ميشال العويط

وصيّتي إلى الموارنة

تقديم
نيافة البطريرك الكاردينال
بشارة بطرس الراعي

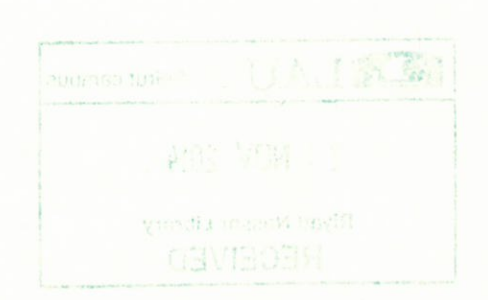


ميشال العويط

وصيّتي إلى الموارنة



دار النهار



الطبعة الأولى، تشرين الأول 2014
ص. ب 5188 - الحمراء، بيروت، لبنان
فاكس 961-1-747623
darannahar@darannahar.com

ISBN 978-9953-74-394-3

المحتويات

القسم الثالث: البطريركيّة المارونية في وادي قنّوبين (من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٨٢٣)

القسم الرابع: البطريركيّة المارونيّة في الديمان وبكركي (من سنة ١٨٢٣ إلى اليوم)

القسم الخامس: ماذا يريد الموارنة؟

خاتمة:

PATRIARCAT MARONITE D'ANTIOCHE
ET DE TOUT L'ORIENT
Bkerke - Liban



بطريركية انطاكية وسائر المشرق المارونية
بكركي

البركة الرسوليّة

تشمل عزيزنا الخوراسقف ميشال العويط الجزيل الإحترام.

تُصدر أيها العزيز الخوراسقف ميشال كتابك الجديد السابع والعشرين "**وصيّتي إلى الموارنة**"، من بعد خبرة طويلة في حياتك الكهنوتيّة ومسؤوليّاتك في أبرشيّة طرابلس أوّلاً، ثمّ في الكرسي البطريركي، ومن تأمّلات يوميّة في كلام الله، فيما الإنجيل والكُتب المقدّسة بين يديكَ كلّ يوم، كما كنّا نراك. ففي كلّ لحظة حرّة من يومك كنت تكتب أفكارك على الآلة الكاتبة ثمّ على الحاسوب.

ورحت تسلّط كلام الله على حياة الموارنة ورسالتهم ودعوتهم التاريخيّة، وتستنبط روحانيّتهم من مسيرتهم عبر الأجيال حول القدّيس مارون وفي ديره على نهر العاصي، ثمّ حول البطريرك الأوّل القدّيس يوحنا مارون، ومن بعده حول البطاركة حيثما تواجدت "قلاية" كراسيهم، على مرّ السنين، في البترون وبلاد جبيل ووادي قنّوبين والدّيمان وبكركي. وقد استخلصت بأن الموارنة مدعوّون ليكونوا، كما كانوا، شهوداً لإيمانهم القوي، بحقيقة المسيح، ورسلاً لإعلاء شأن الحرية. **بالشهادة والرسالة** استطاع الموارنة أن يصمدوا بوجه المحن والمصاعب على مدى ألف وخمسماية سنة. وبهما يواجهون كلّ التحدّيات. فنهجهم هو إيّاه نهج المسيح والرسل، ونهج القدّيس مارون والقدّيس يوحنا مارون. وهكذا عاهدوا أنفسهم، فتميّزوا بالعزيمة والصبر على الشدائد والتضحية، كما جاء في خاتمة كتابك.

وكنتَ دائماً في كتبك التي كنتَ تُصدرها سنة بعد سنة، تبوح بمكنونات قلبك وفكرك، فيما همّك الكبير أن يعيش الموارنة إنجيلهم بروحانيّة مار مارون ويانوح وإيليج وقنّوبين. وتشوّقت لأن يحمل معلّمو التّعليم المسيحي هذه الأفكار إلى أجيالنا الطّالعة، والأساقفة إلى أبناء أبرشيّاتهم، وكهنة الرعايا إلى مؤمنيها. وكم تمنّيت أن تربي الرّهبانيّات أبناءها وبناتها على هذه الرّوحانيّة الأصيلة التي خرّجت قدّيسين كباراً أمثال شربل ورفقا ونعمة الله وأسطفان ويعقوب. هؤلاء الذين رفعتهم الكنيسة على المذابح، فيما السّماء تزخر بأبرار عاشوا شريعة الإنجيل ببطولة الإيمان والرّجاء والمحبّة.

"**وصيّتي إلى الموارنة**"، جميلة التسمية ومعبّرة، فمن بعد أن خلدت في هذه المحطة من حياتك إلى الصّلاة والتأمّل والكتابة، إنما تعبّر الآن عن أعزّ رغبة وأمنية في قلبك الكهنوتي الماروني، وهي أن يعيش الموارنة هذه الوصية.

شكراً أبونا ميشال، على كلّ هذا العطاء. أملنا ودعاؤنا أن يدخل هذا الكتاب كلّ عائلة مارونية، حيثما وُجدت، لكي نظلّ كلّنا في مجتمعاتنا شهودَ إيمان ورسلَ حرية.

مع دعائنا ومحبتنا وصلاتنا.

عن كرسينا في بكركي، في ٣ تشرين الأوّل ٢٠١٤.

الكردينال بشاره بطرس الراعي

بطريرك انطاكية وسائر المشرق

البطريركية المارونيّة: بكركي - لبنان: تلفون ٩١٥٤٤١ - ٩ - ٩٦١ - فاكس: ٩١٥٤٤٠ - ٠٩
Patriarcat Maronite: Bkerké - Liban: Tel. 961-9-915441 - Fax: 09-915440
E-mail: sec.bkerke@gmail.com - www.bkerke.org.lb

تقديم

بطريركية أنطاكية وسائر المشرق المارونية

بكركي

البركة الرسولية

تشمل عزيزنا الخوراسقف ميشال العويط الجزيل الإحترام

تُصدر أيها العزيز الخوراسقف ميشال كتابكَ الجديد السابع والعشرين «**وصيّتي الى الموارنة**»، من بعد خبرة طويلة في حياتك الكهنوتيّة ومسؤوليّاتك في أبرشيّة طرابلس أولاً، ثمّ في الكرسيّ البطريركيّ، ومن تأمّلات يوميّة في كلام الله، فيما الإنجيل والكتب المقدّسة بين يديكَ كلّ يوم، كما كنّا نراك. ففي كلّ لحظة حرّة من يومكَ كنتَ تكتب أفكاركَ على الآلة الكاتبة ثمّ على الحاسوب.

ورحتَ تسلّط كلام الله على حياة الموارنة ورسالتهم ودعوتهم التاريخيّة، وتستنبط روحانيّتهم من مسيرتهم عبر الأجيال حول القدّيس مارون وفي ديره على نهر العاصي، ثمّ حول البطريرك الأول القدّيس يوحنا مارون، ومن بعده حول البطاركة حيثما تواجدت «قلاّية» كراسيهم، على مرّ السنين، في البترون وبلاد جبيل ووادي قنّوبين والديمان وبكركي. وقد استخلصتَ أن الموارنة مدعوّون ليكونوا، كما كانوا، شهوداً لإيمانهم القويّ، بحقيقة المسيح، ورسلاً لإعلاء شأن الحرّية. بالشهادة والرسالة استطاع الموارنة أن يصمدوا بوجه المحن والمصاعب على مدى ألف وخمسماية سنة. وبهما يواجهون

كلّ التحدّيات. فنهجهم هو إيّاه نهج المسيح والرسل، ونهج القدّيس مارون والقدّيس يوحنا مارون. وهكذا عاهدوا أنفسهم، فتميّزوا بالعزيمة والصبر على الشدائد والتضحية، كما جاء في خاتمة كتابكَ.

وكنتَ دائماً في كتبكَ التي كنتَ تُصدرها سنةً بعد سنة، تبوح بمكنونات قلبكَ وفكركَ، فيما همّكَ الكبير أن يعيش الموارنة إنجيلهم بروحانيّة مار مارون ويانوح وإيليج وقنّوبين. وتشوّقتَ لأن يحمل معلّمو التعليم المسيحي هذه الأفكار الى أجيالنا الطالعة، والأساقفة الى أبناء أبرشيّاتهم، وكهنة الرعايا الى مؤمنيها. وكم تمنّيتَ أن تربّي الرهبانيات أبناءها وبناتها على هذه الروحانيّة الأصيلة التي خرّجت قدّيسين كباراً أمثال شربل ورفقا ونعمة الله واسطفان ويعقوب. هؤلاء الذين رفعتهم الكنيسة على المذابح، فيما السماء تزخر بأبرار عاشوا شريعة الإنجيل ببطولة الإيمان والرجاء والمحبّة.

«وصيّتي الى الموارنة»، جميلةٌ التسمية، ومعبِّرة. فمن بعد أن خلدتَ في هذه المحطّة من حياتكَ الى الصلاة والتأمل والكتابة، إنما تعبّر الآن عن أعزّ رغبة وأمنية في قلبكَ الكهنوتيّ المارونيّ، وهي أن يعيش الموارنة هذه الوصيّة.

شكراً أبونا ميشال، على كلّ هذا العطاء. أملنا ودعاؤنا أن يدخل هذا الكتاب كلّ عائلة مارونية، حيثما وُجدت، لكي نظلّ كلّنا في مجتمعاتنا شهود إيمان ورسل حرّية.

مع دعائنا ومحبّتنا وصلاتنا.

عن كرسيّنا في بكركي في ٣ تشرين الأول ٢٠١٤.

الكردينال بشارة بطرس الراعي

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

مقدّمة

عرفتُ مَن هم الموارنة، فخشعتُ. ذلك أنّي وجدتُ نفسي أمام شعب عظيم. وتلمّستُ ماذا يريدون، فشعرتُ بفرح كبير. فقد اكتشفتُ عندهم رسالةً رائدة أيقظت لديَّ روح التضامن والعطاء، حتى إذا انضممتُ إلى هذه الجماعة، كمارونيّ، حملتُ مسؤوليتي، وتابعتُ مسيرة بذل النفس، موقناً أنّ ما يحتاج إليه الموارنة اليوم، هو استرجاع روحيّة العيش في يانوح وميفوق ووادي قنّوبين. فلا يتميّز أحدهم عن الآخر بل يتميّزون جميعهم عن العالم، كونهم شعباً واحداً يطلب ملكوت الله.

هذا الكتاب ليس تاريخاً، بل هو أضواء على مسيرة شعب عرف كيف يعيش، ما يشبه إلى حدٍّ بعيد، حياة المسيحيين الأوّلين في مدينة أورشليم. وإذ أُعيد نشره في طبعة ثانية، منقّحة ومزيدة، وكان صدر للمرة الأولى في العام ١٩٨٧، تحت عنوان **الموارنة مَن هم وماذا يريدون؟**، فلكي أتشارك مع كلّ مارونيّ، ومسيحيّ، ولبنانيّ، العِبَر الكثيرة التي استخلصتُها في سياق بحثي عن الموارنة.

لعلّ أبرز هذه العِبَر أنّ رسالة الموارنة هي واحدة على مدى الأزمنة والأجيال: أن يكونوا شهوداً للمسيح. هكذا كانت رسالتهم مع مارون، وهكذا يجب أن تبقى.

وإذا كان الموارنة قد نجحوا في عهودهم الأولى، وفي مراحل تاريخهم الطويل، في أن يكونوا شهوداً للمسيح، فإنّهم مدعوّون اليوم، أكثر من أي وقتٍ مضى، إلى متابعة الرسالة التي قامت عليها كنيستهم.

وإذا كانت رسالتهم اليوم تشهد الكثير من الخيبات والمرارات، وتُواجه الشديد من التحدّيات والمشقّات، بسبب من ظروف ومعطيات مختلفة، بعضها يتعلّق بهم كشعب وجماعة، وبعضها الآخر يتعلّق بما يشتدّ في وجه هذه الرسالة من ظلمات وعواصف وغوايات، ففي العودة إلى أصالتهم، مدخلٌ إلى عودة الآخرين إلى أصالتهم أيضاً.

أمّا الطريق فواضحٌ وصعب: أن يعود الموارنة تلاميذ، كالتلاميذ الأوّلين، وأن يكونوا شهوداً للمسيح، واضعين نصب أعينهم مملكة السماء، متخلّين عن مملكة الأرض بما فيها من بهرجة ومظاهر، وعن كلّ ما يعلق بروح التتلمذ والشهادة من قيمٍ دنيوية عابرة وقشور أرضية فانية.

لكنّ عودة الموارنة إلى أصالتهم، لا تعني الخروج من العالم، بل تعني عيش مارونيّتهم في هذا العالم، والشهادة لها من قلب هذا العالم، وأوجاعه.

شهادتهم في هذا المعنى، هي، في هذه الأزمنة الصعبة، بطولةٌ مطلقة. وهم يحتاجون إلى أن يعيشوا، اليوم، هذه البطولة المسيحية المطلقة.

عودة الموارنة إلى أصالتهم، طريقها الوحدة. والوحدة لا تكون إلاّ باجتياز وادي الدموع.

أُعطيتُ في حياتي المارونية أن أكون شاهداً منخرطاً في صميم عمل الكنيسة. فقد انتميتُ بالولادة وبالإرث العائلي إلى المسيح. ورأيتُني مدعوّاً إلى الشهادة له، فدخلتُ سلك الكهنوت منذ العام ١٩٥٨، ولا أزال إلى اليوم أكسر الخبز والخمر، وأشارك في مسيرة مارون.

لقد أمضيتُ من هذه المسيرة أربعةً وثلاثين عاماً في خدمة الكرسيّ البطريركيّ، ما يجعلني أشعر بالمسؤولية المهيبة الملقاة على عاتقي، ويضفي على شهادتي هذه رمزيةً خاصة.

شهادتي في هذا الكتاب، هي نوعٌ من وصيّة إلى الموارنة.

ووصيّتي إليهم أن يتوحّدوا. لأنّ وحدتهم هي باب الأمل. والخلاص.

وصيّتي إلى الموارنة أن يعودوا إلى مارون. ففي العودة إليه، عبورٌ حقيقيٌّ لوادي

الدموع، تحقيقاً للوعد الخلاصيّ بالمسيح. وهو وعد الحرّية.

آملاً أن يجدوا في متن هذا الكتاب – الوصيّة، وخصوصاً في الأقسام الجديدة التي كتبتُها في السنوات الأخيرة، مستلهماً خلاصة الوقائع والمحن والخبرات الشخصية والعامة، ما يساهم في إنارة الطريق أمامهم للعودة الشاقّة إلى المسيح على خطى القدّيس، تحقيقاً للخلاص.

بهذه الروح أهدي هذا الكتاب إلى جميع الموارنة في لبنان والعالم.

بزيزا، في ٢٨ أيلول ٢٠١٤

القسم الأول

الموارنة رجلٌ وكنيسة

من سنة ٣٢٥ إلى سنة ٧٠٠

مارون معلّم على مستوى الرسل

شغلَ مارون الناسَ بنسكه وقداسته. كابرَ في وجه الصعاب. فأصبح أيقونة. وأسطورة. تقاطروا إليه في حياته، وتنازعوا جثمانه بعد وفاته.

أحبّوه، وكانوا يطلبون شفاعته، ويشكرون الله على الإنعامات التي كان يُجريها على يده. كثيرون شُفوا من أمراضهم بواسطة صلاته. وآخرون غيّروا مسار حياتهم بفضل إرشاداته.

البعض اعتبره راهباً لابساً العباءة والأسكيم. البعض الآخر وجد فيه رجل صلاة. هكذا كتب إليه القدّيس يوحنا الذهبي الفم يقول: «... ونسألك قبل كلّ شيء أن تقدّم الصلاة من أجلنا»[1].

آخرون رأوا فيه ناسكاً، فوصف تيودوريطس أسقف قورش (تقع قورش على بعد ٧٠ كيلومتراً شمال غرب حلب على أحد روافد نهر الفرات) حياته قائلاً: «لقد قرّر مارون أن يعيش في العراء. لذلك أقام على قمّة جبل حيث كرّس لله هيكلاً كان في القديم مختصاً بالأبالسة، وبنى فيه كوخاً قلّما كان يأوي إليه.

«حباه الله شفاء الأمراض، فذاع صيته في كلّ مكان. وكان الناس يقصدونه من جميع النواحي. وكان ما يجري على يده، يبرّر ذلك الصيت العظيم الذي اكتسبه. كانت بركته

---

١. كتاب الشرح المختصر في أصل الموارنة وثباتهم في الأمانة وصيانتهم من كل بدعة وكهانة، الجزء الأول، للبطريرك اسطفان الدويهي، طبعة الأباتي بطرس فهد، ١٩٧٤. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة الشرح المختصر، الجزء الأول أو الجزء الثاني.

ندى سماوياً يوقف البرداء ويسقط الحمّى ويطرد الشياطين ويشفي من كلّ مرض» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٣٤).

عاش مارون على قمّة جبل في جوار أنطاكيا في أواخر القرن الرابع. لكنّ اسمه تخطّى الأمكنة والزمن، فتأثّر الشرق كلّه بأعماله وواكبت ذكره الأجيال.

لا نعرف أين وُلد مارون ولا مَن كان والداه. فقد ظهر فجأةً كملكيصادق، لكنّه كالرسل ترك وراءه ذكراً خالداً.

مات مارون سنة ٤١٠ كما يقول المؤرّخون، لكنّ شهرته لم تمت. ظلّ الناس يتحدّثون عنه ويتناقل أخباره الخلف عن السلف. ظلّوا يُجلّون اسمه ويطرحون الأسئلة حول شخصه. فمَن تراه يكون هذا الرجل؟

مارون هو كاهن، وقد أدّى مهمته بأحسن تدبير. علّم ووزّع الأسرار. لكنّه لم يرث رعيّته من كاهن آخر، وهنا تكمن أهميته. هكذا يجب أن نتعرّف إليه فنفهمه ونقوّم أعماله.

كان المسيحيون في القرن الرابع منقسمين بعضهم على بعض، وفي المدن تجلّى التفكّك بصورة جلية. فكان مَن يقول إن يسوع هو إله، ومَن يقول إنه إنسان، والذين يجدون فيه مشيئة واحدة ومَن يجد فيه مشيئتين.

توجّه مارون إلى الأرياف في جوار أنطاكيا، بعيداً عن المنازعات اللاهوتية، لينشد الله. هناك عرف في خلوته على الجبل أنّ دعوته هي أن يكون مع الشعب، فعاد إليه مؤسِّساً رعيّته الأولى. حبكها عائلةً عائلة، كما البنّاء يشيّد بيته مدماكاً مدماكا. قبل أن يوزّع الأسرار على رعيته، علّم حقائق الإيمان أولاً. أثّر مارون بتعليمه في شعبه، فانقاد إليه كثيرون، وتبعوه.

كان مارون معلّماً، وكان للمعلّم تلامذة. وهؤلاء حفظوا عنه قوله إنّ يسوع جاء ليجعل الكثيرين واحداً، فتبعوه ونشدوا الوحدة. حملوا اسمه وأصبحوا كنيسته وتابعوا المسيرة.

في سنة ٤٥١، وأثناء انعقاد المجمع المسكوني في خلقيدونية (تُعرف اليوم بقاضيكوي وتقع في القسم الآسيوي من مدينة اسطنبول)، كان للموارنة موقف صريح. أوضح المجمعُ العقيدةَ الصحيحة حول شخص المسيح. يسوع هو إله وإنسان، وله طبيعتان،

إلهية وإنسانية، فأيّده الموارنة ودافعوا عن مقرّراته، مقدِّمين ٣٥٠ شهيداً، فداء التمسك بموقفهم الإيماني.

من ذلك اليوم، بدأ درب الجلجلة الماروني، ولمّا ينتهِ حتى تاريخه. عرف الموارنة الاضطهاد والمجازر، فتضامنوا متحدّين الصعاب والأهوال. حيثما حلّوا، كانوا «يتابعون تعليم الرسل والحياة المشتركة وكسر الخبز والصلاة» (أعمال ٢/ ٤٢)، كما كانوا مع مارون. ظلّوا الشعب الأكثر تعلّقاً بالعذراء أمّ الله وأمّهم وسيّدة لبنان، والأكثر طاعةً للبابا خليفة القديس بطرس، ولبطريركهم، بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق، عنوان وحدتهم، وظلّوا الأكثر تعلّقاً بأرضهم وبوطنهم.

الموارنة بطبعهم هذا، هم خير دليل على أنّ مارون كان معلّماً على مستوى الرسل. فالكلمة المتجسّدة التي علّمها مارون هي التي تبني وتنتقل. ووحدها تتخطّى الأجيال.

أبصر الشعب الجالس في الظلمة نوراً باهراً

في الأجيال الأولى للكنيسة، شهدت البلدان التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسّط القائمة في أراضي الأمبراطورية الرومانية آنذاك، انتشاراً سريعاً للإنجيل، على رغم المقاومة الوثنية. تحوّلت معظم المدن الكبرى إلى المسيحية، على مثال أورشليم وأنطاكيا وقورنثية وأفسس وأثينا وروما...

وكان أن مارست الأمبراطورية الرومانية الوثنية طوال ثلاثة قرون أبشع أنواع الاضطهاد في حقّ أتباع الكنيسة، إلى أن اهتدى الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير (من ٣٠٦ إلى ٣٣٧) إلى المسيحية، فشكّل هذا الحدث تحوّلاً كبيراً في تاريخ المسيحية.

ففي سنة ٣١٣، عقد قسطنطين معاهدة صلح بين الأمبراطورية والكنيسة، منح بموجبها المسيحيين حقّ ممارسة شعائرهم بحرية، فاعتبروه مليكهم وسندهم. راح يدافع عن الكنيسة ويسهر عليها ويهتمّ بشؤونها، فنعم المؤمنون بالسلام بعد عذابات طويلة. أمّا الأساقفة فكانت لهم صلاحيّات واسعة، فأخذوا يلبسون التيجان ويدخلون الكنائس بأبهة.

لم يجعل قسطنطين المسيحية دين الدولة، فبقيت الوثنية إلى جانب المسيحية. وكان المسيحيون من شعوب عديدة، وأسباب الخلاف في ما بينهم كثيرة. اليونانية كانت لغة البلاط والمثقفين، أمّا السريانية فكانت لغة الشعب في الأرياف. وعندما عزمت الكنيسة على تحديد إيمانها، كبر الخلاف.

قال اليونانيون إنّ يسوع إله، واعتبر السريان في شخص نسطور أنّ في كلمة الله طبيعتين،

وقد شدّدوا في تمييز الطبيعتين إلى حدّ الاعتقاد بوجود شخصين اثنين، وأنّه تبعاً لذلك لا يجوز أن تُدعى العذراء مريم أمّ الله، بل أمّ يسوع لا غير.

تمادى المسيحيون في خلافاتهم، فانقسم السريان بدورهم فريقين، الأوّل بقي تابعاً لنسطور فسُمّوا النساطرة، والثاني تبع يعقوب البرادعي فسُمّوا اليعاقبة. وقال هؤلاء إنّ المسيح هو ابن الله، وإنّه يظهر بصورة إنسان، لكنّه ليس إنساناً بطبيعة بشرية كاملة.

تعمّقت الانقسامات وتأصّلت، حتى أصبح لكلٍّ من النساطرة واليعاقبة كنيسة مختلفة.

وفي الوقت الذي كان فيه المسيحيون يتراشقون التهم ويعمدون إلى تخوين بعضهم البعض وصولاً إلى التعذيب والتشريد والقتل، مبتعدين عن الإنجيل ومشوّهين وجه الكنيسة الحقّ، «أبصر الشعب الجالس في الظلمة نوراً باهراً»، وهو القاطن في جوار أنطاكيا وفي الأرياف. وقد حدث له على يد مارون، ما حدث للشعب الفقير الذي بشّره الملاك بمولد يسوع المسيح.

قبل أن يبدأ مارون نشاطه الرسولي، صعد إلى الجبل كما النسّاك، وبلغ في هذا المجال حدّاً بعيداً، كما قال الأسقف تيودوريطس: «لقد قرّر مارون أن يعيش في العراء... ولم يكن يكتفي بأعمال التقشّف التي كان يمارسها الآخرون فاستنبط تقشّفات جديدة» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٣٥).

لكنّ عظمة مارون لا تأتي من حيث أنّه انقطع عن العالم فحسب، بل من حيث أنّه كان معلّماً وكان له تلاميذ. وهذا ما شهد له تيودوريطس نفسه إذ قال: «... وكان يشفي هذا من البخل وذاك من الغضب. يعلّم هذا أصول القناعة في المأكل والمشرب. ويزوّد ذاك وصايا تمكّنه من العيش ببرارة. يصلح المنقاد لشهواته ويوقظ الكسول». وأضاف البطريرك العلاّمة اسطفان الدويهي على ذلك، قائلاً عن مارون: «... وأوقات كان يجول القرى والمدن فيتلمذ الكفّار والمخالفين ليقدّموا إلى الطاعة. ويعظ المؤمنين ليتجنّبوا الرذائل ويتمسّكوا بالفضائل، وينذر الموسرين ليقيموا بالمحاويج، وخاصة الذين كانوا تجرّدوا عن العالم وقصدوا الحياة الملائكية في الفقر. وكان الجميع يحبّونه ويقبلون بشاشة كلام الحياة

الذي كان يخرج من فمه» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٣٩).

تتجلّى عظمة مارون أيضاً في ما نقله المطران يوسف الدبس، أحد مؤرّخي الطائفة المارونية، الذي قال: «باشر أعمال الرسالة... فكان يطوف في المدن والقرى»[٢]. ذلك أنّ الكثيرين اعتنقوا المسيحية من دون تهيئة بعد اهتداء الأمبراطور قسطنطين، فكانوا مسيحيين بالاسم، ووثنيين في عاداتهم وحياتهم. فلمّا أقبل مارون على القرى والمزارع وصولاً إلى المدن في جوار أنطاكيا معلّماً ومبشّراً وداعياً إلى حياة جديدة، كان عمله هذا فتحاً جديداً في فهم الدعوة الإنجيلية وجوهر الرسالة المسيحية.

أحبّ مارون شعبه، واعتنى به، وأطلعه على ما قاله يسوع. وأكّد له أنّ الله يحبّه، وأنّه أرسل ابنه الوحيد الذي تألّم ومات وقام ليميت الخطيئة التي أقامت حاجزاً بين الأخ وأخيه، وليجعل الكثيرين واحداً. قال لشعبه إنّ مكانته كبيرة عند الله، وإنّ لأعماله قيمة روحيّة فريدة.

كان هؤلاء المسيحيون كالخراف التي لا راعي لها، فجمع مارون شملهم وقادهم إلى الله. علّمهم أن يطلبوه في وحدتهم، وآنذاك يجعل الله مقامه فيهم. هذا هو فعل الرعيّة التي أعاد مارون إليها قوّتها، وكان ذلك حدثاً مهمّاً وعظيماً في تاريخ الكنيسة.

رجّح مارون كفّة المحبّة على قوى الشرّ، فتخلّى شعبه عن الأنانية والمطامع في خيرات الدنيا. ما عمله في قرية واحدة، عمّمه على غيرها من القرى، فجمع من حوله التلاميذ من كلّ حدب وصوب، وقوّى إيمانهم، فدخلوا التاريخ بقوّة. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد يحدث شيء في المنطقة من دون أن يكون لهم موقف فيه.

ظهر الموارنة في المنطقة أقوياء في الإيمان وفي المحبّة، فأثاروا ردّ فعل قويّاً. حاول النساطرة أن يفرضوا عليهم آراءهم، فلم يقبلوا. وجرّب اليعاقبة استمالتهم، فلم يحيدوا عن موقفهم. ويوم أعلن مجمع خلقيدونية العقيدة المسيحية الصحيحة حول شخص يسوع المسيح سنة

٢. الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل للمطران يوسف الدبس، ١٩٠٥، صفحة ٢. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة الدبس.

٤٥١، دافع الموارنة عن مقرّراته، في حين كان النساطرة واليعاقبة القوّتين الشعبيّتين الأكثر نفوذاً في المنطقة.

إنّ موقف الموارنة هذا، إنّما نبع من إيمانهم بيسوع المسيح الذي صار إنساناً وتألّم ومات وقُبر وقام. يسوع كما هو، وكما عرفوه. فقد سمعوا كلمة الله على يد معلّم قديس، وآمنوا بأنّ يسوع تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء وصار إنساناً. عاشوا هذه الحقيقة، وخبروا يسوع في حياتهم، فقالوا مع القدّيس يوحنا: «ذلك الذي سمعناه. ذلك الذي رأيناه بعيننا. ذلك الذي تأمّلناه. ذلك الذي لمسته يدانا» (يوحنا أولى ١/١). وعندما قال اليعاقبة إنّ يسوع إله لا إنسان، وإنّه أخذ صورة إنسان من دون أن يصير إنساناً، شعر الموارنة كأنّ سهماً طعنهم في صميم إيمانهم، فتصدّوا لهذا التعليم وقالوا إنّ يسوع إله وإنسان.

لم يتّخذ الموارنة موقفهم هذا ضدّ اليعاقبة، ولا اليعاقبة فعلوا ذلك ضدّ الموارنة، فجميعهم مسيحيون يحاولون أن يتبعوا يسوع بصدق وإخلاص، وأن يحافظوا على أمانتهم لتعليمه. لكنّ الأمبراطورية البيزنطية وارثة الأمبراطورية الرومانية في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كانت لها سياستها، فتدخّلت وجعلت الأخوة أعداء. وحين وقف الموارنة إلى جانب المجمع، تصدّى لهم اليعاقبة وكمنوا لهم وقتلوا منهم ٣٥٠ رجلاً. كانت تلك المجزرة أولى مراحل درب الصليب المارونية.

وتكونون شهوداً لي

ماذا حدث لتلاميذ مارون بعد المجزرة التي راح ضحيّتها المئات من الشهداء؟ هل غيّروا موقفهم تجاه مقرّرات المجمع؟ هل التحقوا بركب الأكثريّة في الشرق؟ هل انضمّوا إلى النساطرة تحاشياً لشرّ اليعاقبة؟ هل وجدوا طريقاً جديداً يقيهم الأخطار في ظلّ الصراعات الدائرة آنذاك؟

كان الشرق في تلك الحقبة من الزمن مساحة للصراعات العقائدية، فاضطربت الكنيسة ودعت إلى وحدة الصف. التأمت المجامع تباعاً، في نيقية سنة ٣٢٥، وفي القسطنطينية سنة ٣٨٠، وفي أفسس سنة ٤٣٠، وفي خلقيدونية سنة ٤٥١، وجميعها أوضحت العقيدة الصحيحة، لكنّها لم تستطع أن توحّد المسيحيين، ولا أن تحملهم على أن يقبلوا جميعهم بها.

بعدما أعلن تلاميذ مارون تأييدهم لمقرّرات مجمع خلقيدونية، لاقوا الاضطهاد وعرفوا شهادة الدم. فهل تمكّنوا من أن يتابعوا المسيرة بعد تلك المجزرة؟

تدلّ العريضة التي رفعها تلاميذ مارون إلى البابا هورميزدا في سنة ٥١٧ غداة المجزرة الرهيبة، أنّهم ظلّوا على موقفهم، وتابعوا الرسالة. وهذا نصّ العريضة:

«إذ تحفز بنا نعمة المسيح مخلّصنا جميعا إلى اللجوء إلى غبطتكم كما يُلتجأ من الزمهرير والعواصف إلى ميناء الأمان، نرانا بغنى عن البحث عن ملجأ آخر. ومهما تألّمنا نقتبل ذلك بفرح، علماً منّا بأنّ آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع أن يظهر فينا. ولمّا كان المسيح إلهنا، أقامكم سلطان الرعاة وطبيب النفوس ومعلّمها، يجدر بنا أن نصف لكم العذابات التي حلّت بنا ونجعلكم على بيّنة من الذئاب التي لا شفقة لها، والتي تمزّق قطيع المسيح. لتطردوها بعصا

السلطة من بين النعاج، وتشفوا الروح بكلمة التعليم وتضمّدوها ببلسم الصلاة.

«أمّا مَن هم أولئك، فإليكم أيها الكلّي الطوبى: هما ساويروس وبطرس اللذان ما اعتُبرا أبداً من عداد المسيحيين، إذ يحرمان كلّ يوم علانيةً المجمع الخلقيدوني المقدس، وأبانا الكلي القداسة لاون بدينونة الله. وقد داسا قوانين الآباء القديسين، ورقّيا إلى الأسقفية بالقوة الملكية. وأذاقانا عذابات لا قياس لها، لإكراهنا على احتقار المجمع المقدس المذكور.

«ومن ثمّ فالذين لم يستطيعوا احتمال الجروح التي أثخنونا بها، فارقوا هذه الدنيا. ممّا أدّى إلى موت جمهور غير قليل منا. فبينما كنّا ذاهبين إلى دير مار سمعان لمصلحة الكنيسة، كمن لنا في الطريق الأشرار المشار إليهم، ووثبوا علينا وقتلوا منا ثلاثمائة وخمسين رجلاً. وأثخنوا الكثيرين بالجراح، والذين لجأوا إلى حرمة المذابح، لاقوا حتفهم قتلاً هناك، لأنّهم أحرقوا الأديار، إذ أرسلوا ليلاً شرذمة من الرجال الأشرار المشترين بالمال، الذين نهبوا كلّ ما يخصّ الكنائس.

«وستقفون على التفاصيل بواسطة الوثائق التي يحملها إليكم أخوانا الموقّران يوحنّا وسركيس، اللذان أرسلناهما إلى القسطنطينية، للتكلّم عن هذه الشرور. ولكنّ الملك لم يتكرّم عليهما ولا بكلمة، بل طردهما بفظاظة شديدة، متوعّداً الذين دفعوهما إلى ذلك. إذ ذاك علمنا سفاهة هذا قدرها، وإقداماً إلى هذا الحدّ على الإيقاع بالكنائس، ما كانا ليحصلا لولا أمر الملك.

«فنبتهل إليكَ أيّها الأب الكلّي الطوبى أن تنهض بقوّة وغيرة، وتشفق على الجسد الممزّق فأنتَ رأس الجميع. وتثأر للإيمان وللقوانين المداسة، وللآباء الذين تعرّضوا للتجديف، وللمجمع المطعون بالحرم.

«أولاكَ الله سلطان الربط والحلّ. وليس الأصحّاء الذين يحتاجون إلى طبيب ولكن المرضى. فانهض أيّها الأب القديس لخلاصنا. وتشبّه بربّنا الذي نزل من السماء إلى الأرض ناشداً الخروف الضالّ. وتأمّل ببطرس أمير الرسل، الذي تزيّن كرسيّه، وبولس الإناء المختار، فقد طافا المسكونة لينوّراها.

«والكلوم الكبيرة تحتاج إلى أدوية عظيمة. إذا رأى الذئاب مقبلة تركوها تمزّق النعاج لكنّكَ أنتَ الراعي الحقيقي، والطبيب الذي تقلّد العناية بالنعاج لأجل خلاصها، الذي

يجب على النعاج الناجية من الذئاب أن تعرفكَ راعياً لها، وتتبع صوتكَ، عملاً بقول الرب: نعاجي تعرف صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني. فلا تهملنا أيّها الكليّ القداسة نحن الذين كلّ يوم تثخننا بالجراح الوحوش الضارية. ونحيط علماً ملاككم القدّيس إننا نحرم باستغاثتنا هذه كلّ الذين ينبذهم ويحرمهم كرسيّكَ الرسوليّ، أي نسطور وأوطيخا وديوسقورس وبطرس الأنطاكي المدعوّ القصار، وأكاسيوس أسقف القسطنطينية شريكهم، وكلّ من يدافع عن أيٍّ من هؤلاء الهراطقة» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٧٠).

كتب تلاميذ مارون إلى البابا لكي يطلعوه على ما جرى لهم، ويؤكّدوا له أنّهم باقون على أمانتهم للكنيسة، وأنّهم لا يخافون الموت.

كان لأعداء المجامع المسكونية القوّة الكبيرة في الشرق، مع ذلك أعلن تلاميذ مارون موقفهم الايجابي منها. فضُربوا وتشتّتوا ونُهبت كنائسهم وأُحرقت بيوتهم وتعرّضوا للتنكيل والتعذيب والذبح. وفي الوقت الذي سقط منهم الشهداء، أعلنوا التزامهم العقيدة الصحيحة. وعلى رغم امتناع الملك البيزنطي عن استقبالهم والاستماع إلى مظالمهم، وتعرّضهم إلى الكثير من الضغوط نظراً لخضوعهم إلى البابا، اعترفوا أنّ خليفة بطرس هو المرجع الأوّل والأخير للمسيحيين، وأنّه راعي الكنيسة ورئيسها الأوحد. عرضوا عليه آلامهم، وقالوا له إنّنا نبارك مَن تبارك ونلعن مَن تلعن.

لم يكن تلاميذ مارون وحدهم أمينين على تعاليم الكنيسة، بل كان هناك أعداد كثيرة من المسيحيين ظلّت تؤيّد المجامع. إلاّ أنّ هؤلاء عرفوا أنّ الأعداء كثيرون، فلزموا الصمت وتحاشوا التورّط في مسألة سيخسرونها حتماً وسيتعرّضون للتعذيب والذبح. ولمّا شاهد هؤلاء المسيحيون أنّ تلاميذ مارون أعلنوا موقفهم بجرأة، وأنّهم في النهاية قدّموا شهادة الدم، خرجوا عن صمتهم وأعلنوا إيمانهم بكلّ جرأة. انضمّوا إليهم، كما كانت الجماعات في عهد الرسل تنضمّ إلى جماعة المؤمنين. فكان تلاميذ مارون مثالاً حيّاً في التضحية. وكانوا شهوداً ليسوع المسيح.

الجبّة ومنطقتا جبيل والبترون أرضٌ مارونية

في القرن الرابع انتشرت الديانة المسيحية انتشاراً سريعاً، وحلّت محلّ الديانات الوثنية في كلّ الأمبراطورية الرومانية، لكنّها تراجعت عن الدخول إلى جبل لبنان.

أصدر الأمبراطور الرومانيّ قسطنطين، بعد اهتدائه إلى الدين المسيحي، أمراً إلى جيشه بهدم هياكل الأصنام. فتمّ الأمر، وحوّل بعضها كنائس، وهكذا صار هيكل أفقا وهو الأهمّ بينها، كنيسة على اسم العذراء مريم. مع هذا، ظلّ سكّان جبل لبنان على دين أجدادهم الوثنيين، وكانوا يعودون إلى ما كانوا عليه، عندما تسنح الفرص وتُرفَع عنهم عوامل الضغط على حريتهم.

حار القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ في أمر هذا الشعب و«أراد أن يستأصل من لبنان شافة الشرك فأرسل قوماً من دعاة الدين ليرشدوا أهل لبنان إلى طريق الهدى»[٣].

وقد لاقى هؤلاء المرسلون في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة، فطرد الأهلون بعضاً منهم وقتلوا آخرين، ولم يتركوا الديانة المسيحية تدخل إلى صفوفهم.

إلاّ أنّ حوادث طرأت في أواخر القرن الخامس في جبل لبنان قلبت المقاييس كلّها، وغيّرت مجرى التاريخ. فسكّان هذا الجبل الذين صمدوا في وجه الفاتحين عبر الأجيال، وواجهوا قسطنطين الذي حوّل هياكلهم الوثنية كنائس، ووقفوا في وجه بطريرك القسطنطينية القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، عادوا فاهتدوا إلى الديانة المسيحية وانضمّوا إلى

٣. تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، للأب هنري لامنس. الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩١٣، صفحة ١١٣. والطبعة الثانية مصوّرة ١٩٨٢. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة لامنس، الجزء الأول أو الثاني.

راية القدّيس مارون وصاروا من تلاميذه.

كيف حدث ذلك، وما هي الأسباب التي كانت وراء انضوائهم تحت راية القدّيس مارون؟ الروايات كثيرة لكنّها بأجمعها تؤكّد الحقيقة ذاتها.

تقول رواية أولى إنّ ابراهيم، أحد تلاميذ القديس مارون، جاء إلى جبل لبنان ليعيد الوثنيين إلى الدين المسيحي. فعمد إلى الحيلة وتظاهر بأنّه تاجر.

فجاء مع رفاق له ليبتاع جوزاً لكثرة توافره في تلك المنطقة. وعرف سكّان إحدى البلدات أنّ ابراهيم ورفاقه يعبدون إلهاً غير آلهتهم، فضايقوهم وأخرجوهم من بلدتهم.

واتّفق أنّ جنوداً جاؤوا إلى تلك البلدة وأخذوا يكرهون الأهالي على دفع الجزية وراحوا يضايقونهم. فتوسّط ابراهيم لدى هؤلاء الجنود ووعدهم بمبلغ من المال. تغيّر موقف سكّان البلدة تجاه ابراهيم بعد هذا الصنيع، واستبقوه عندهم واستمعوا إليه. وفي النهاية اهتدوا إلى الدين المسيحي على يده، وصاروا من تلاميذ مارون. قال الأب لامنس إن البلدة هذه تقع بالقرب من مغارة أفقا، ويمكن أن تكون العاقورة مثلاً، وإنّ نهر ابراهيم دُعي كذلك بعد أن كان اسمه أدونيس، نسبة إلى ابراهيم الذي بشّر منطقة بلاد جبيل.

هناك رواية ثانية مفادها أنّ بعض أهالي لبنان الشمالي جاؤوا إلى القدّيس سمعان العموديّ يسألونه إنقاذهم من بعض الضواري التي كانت تسطو على قراهم وتفترس كلّ يوم شخصين أو ثلاثة منهم. فأجابهم أنّ الخلاص في أن يصبحوا مسيحيين، وأن يقيموا في جهات كلّ قرية من قراهم أربعة صلبان. ولمّا أتمّوا ما أمرهم به القدّيس، كفّت عنهم هذه الضواري أذيّتها. قال العلاّمة المطران يوسف السمعاني إنّ هذه الأعجوبة حدثت في جهة بشرّي في شمال لبنان. أضاف أنّ الموارنة هناك توارثوا خبرها بالتواتر عن أجدادهم إلى اليوم. وهم يدلّون على هذه الصلبان وقد شاهد هو نفسه بعضها بأمّ عينه.

أيّ رواية أصحّ؟ كتب تيودوريطس أسقف قورش هاتين الروايتين في القرن الخامس. وقد تكونان كلتاهما صحيحتين. فالمارونية دخلت جبل لبنان من طريق أفقا والجبّة معاً. وكلتاهما تعبّران عن حقيقة واحدة وهي أنّ الموارنة لم ييأسوا بعد المحنة التي حلّت بهم، ولم

يحيدوا عن خطٍّ ساروا عليه منذ القدّيس مارون.

كان أصحاب هاتين الروايتين على علم بما يجري في هذه الأرض، وأيّ أخطار تعترض مصيرها. فوجّهوا أنظارهم إليها وأرادوا أن يطلعوا أبناءها على تعاليم الخلاص. عرفوا أنّ شعب هذه الأرض لا يبدّل دينه بالإكراه، ولا يغيّر حرفاً واحداً من تقاليده مهما قست الأيام. وتيقّنوا أكثر أنّ تمسّك قاطني هذا الجبل بدينهم وتقاليدهم عبر تاريخهم الطويل، وما تخلّل ذلك من اضطهادات ومجازر، إنّما ينبع من تمسّكهم بالحرّية وشهادتهم للحقّ. وهذا هو القاسم المشترك الذي يلتقون حوله معهم، وأنّ هذا في النهاية ما يدعو إليه الإنجيل. فجاء الموارنة إليهم بهذه الروح، وأطلعوهم على حقيقة مَن مات على الصليب ليشهد للحقّ، ويعيد إلى الإنسان حريته وكرامته.

تكلّلت أعمال الموارنة بالنجاح. فكانوا الشعب الوحيد الذي استطاع أن يدخل جبل لبنان، هذا الحصن الذي صمد في وجه الفاتحين عبر الأجيال. وكان سكّان هذا الجبل، الذين رفضوا الديانات كلّها، ورفضوا الديانة المسيحية عينها، يتحمّسون للإنجيل وينضمّون تحت راية مارون ويصبحون موارنة.

كان لبنان قد عرف الديانة المسيحية منذ عهد المسيح، فقد جاء يسوع إلى صور وصيدا. «ثمّ خرج يسوع من هناك وذهب إلى نواحي صور وصيدا» (مرقس ٧/ ٢٤). يذكر الإنجيل أنّ يسوع استجاب صلاة امرأة لبنانية فشفى ابنتها (مرقس ٧). ويذكر الإنجيل أيضاً أنّ أوّل امرأة آمنت بيسوع كانت على أكبر الظنّ لبنانية «فرفعت صوتها من الجمع وقالت: طوبى للبطن الذي حملك وللثديين اللذين رضعتهما» (لوقا ١١/ ٢٧).

وكان الرسل أيضاً، من جهة ثانية، قد مرّوا في لبنان. ويوم سُجِن القدّيس بولس، سُمِح له عندما وصل إلى صيدا في طريقه إلى روما، بأن يذهب إلى الجماعة المسيحية (أعمال ٢٧/ ٢). ويقول التقليد إنّ بطرس مرّ في بيروت في طريقه إلى أنطاكيا، وإنّه جعل يوحنّا مرقس أسقفاً على جبيل.

كانت جماعات مسيحية تقطن الساحل الشرقي للبحر البيض المتوسط، ولم يكن لها أيّ

نفوذ. ويوم بدأت الانقسامات في أحضان الكنيسة، ظهرت تأثيراتها في هؤلاء. فكان بين مسيحيي لبنان نساطرة، وكان بينهم يعاقبة.

أمّا لبنان فلم يعرف الديانة المسيحية بطريقة جدّية قبل القرن الخامس، أي عندما أصبح الجبل اللبناني مارونياً، على ما يشهد الأب لامنس فيقول: «وهذه الملاحظات العمومية عما لقيته النصرانية في طريقها من العثرات، يؤيّدها التاريخ القديم الذي لم يذكر الدين المسيحي في لبنان إلاّ نادراً. وكذلك الآثار الكتابية فإنّ الوثنية منها كثيرة أمّا النصرانية فهي قليلة جداً. فكلّ ذلك دليل واضح على ما نال ديانتنا المقدسة من المقاومات والمدافعات، قبل أن ترسخ مبادئها القويمة في أرض لبنان حتى صارت على توالي الاعصار عصمة للدين، لا سيّما بعد أن توطّنت هذا الجبل الطائفة المارونية المعروفة بحماستها الدينية» (لامنس، الجزء الثاني، صفحة ١٠٤).

عرف الجبل اللبناني الدين المسيحي على يد تلاميذ مارون، فاختفت منه معالم الوثنية. وأصبح سكّانه، الذين عُرِفوا بتقاليدهم وعباداتهم الوثنية وتاريخهم الطويل الحافل بالتضحيات في سبيل الحرّية والمعتقد، يجاهرون بإيمانهم بيسوع المسيح، ويحملون بفخر اسم تلاميذ مارون. إنّ الفكرة السائدة بأنّ الموارنة في لبنان جاؤوا جميعهم من سوريا هي فكرة خاطئة. فقبل أن تحدث تلك الهجرة في القرن السابع، كان الجبل اللبناني في القرن الخامس قد عرف المارونية، وأنّه منذ ذلك الحين أصبحت جبّة بشرّي ومرتفعات جبيل والبترون كلّها مناطق مارونية.

البترون أوّل كرسيّ أسقفيّ مارونيّ

كان لانتشار الديانة المسيحية في جبل لبنان أهمية كبيرة، فشكّل منعطفاً مهمّاً في التاريخ الماروني. فلقد بدا المستقبل قاتماً لأتباع مارون في بداية الطريق، نظراً إلى الانقسام العقائدي والنزاعات المسيطرة في المنطقة واضطرارهم إلى مواجهة شتّى العراقيل والضغوط. لكن مع اهتداء جبل لبنان إلى الدين المسيحي، شعر الموارنة بفرح عظيم ولاحت لهم في الأفق بارقة أمل. فقد لمسوا في ذلك عنايةً وتدبيراً من الله، ذلك أنّ الجبل اللبناني هو حصن منيع، وقد يصبح ملجأ لهم إذا دعت الحاجة.

إلا أنّه قبل أن يلتحف الموارنة سماء ذلك الجبل الأشمّ، كانت هناك أمور يُفترض تسويتها أوّلاً. فالسكّان الذين اعتنقوا المسيحية وانضمّوا تحت راية مارون، كان عليهم توحيد صفوفهم وتنقية ذواتهم من الرواسب الوثنية. وعلى الرغم من الأخطار التي كانت تواجههم من كلّ صوب، كانت الأنانية والروح الفردية قويّة في صفوفهم، تبعدهم الواحد عن الآخر، وتجعل كلّ قرية من قراهم مستقلّة عن غيرها. من هنا نشأت الحاجة إلى قيام أسقف من بينهم يجمع شملهم ويوحّد كلمتهم.

وقد برزت هذه الفكرة بنوع خاص، عندما ظهر اسم يوحنا مارون مدافعاً صلباً عن العقيدة ضدّ أصحاب المشيئة الواحدة: «وبما أنّ دير مار مارون هو بالقرب من مدينة أنطاكيا، كانت تصير محاورة لم تنقطع بين يوحنا مارون وبين تلاميذ جريج (جرجس أي سرجيوس) بطريرك أنطاكيا وتلاميذ مكاريوس الذي تخلّف بعده في الرئاسة... فإنّ تلاميذ جريج ومكاريوس كانوا يحتجّون على رأي المشيئة الواحدة... وأمّا يوحنا فكان

ينتصر لسرّ المشيئتين والفعلين على موجب قرار الكنيسة الرومانية» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٩٣).

من هو يوحّنا مارون وأين عاش؟

ولد في سروم (تقع حالياً جنوب أنطاكيا) ودرس في أنطاكيا. تعمّق في العلوم اللاهوتية والتفاسير الإنجيلية والسريانية، ودافع عن العقيدة الصحيحة بجرأة وبالحجج والبراهين. كان ذا فضيلة وغيرة، ما لفت انتباه أخوانه الموارنة الذين راحوا يلهجون باسمه ويتساءلون: أما حان الوقت ليكون لنا أسقف؟

جاء في **سفر الملوك الأول** أنّه «اجتمع شيوخ إسرائيل كافّة وأتوا صموئيل في الرامة. وقالوا له إنّك قد شخت وبنوك لا يسلكون في سبلك. فالآن أقم علينا ملكاً يقضي بيننا لجميع الأمم... ونكون نحن أيضا كسائر الشعوب فيقضي بيننا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا...» (٨/ ٤،٢٠).

لكن أين سيكون كرسيّ أسقف الموارنة؟

لم يكن ممكناً أن يفكّر الموارنة في أنطاكيا، لأنها كرسيّ بطريركيّ... فاختاروا جبل لبنان. وعلى هذا الأساس التجأوا إلى يوحنا الفلدلفي النائب عن الكرسيّ الرسوليّ في الشرق.

وقد جاء في براءة البابا مرتينوس ليوحنا الفلدلفي ما يأتي:

«نحرّضك على أن تكون نائباً لنا في هذه الأصقاع المشرقية في جميع المقتضيات البيعية فأسرع إلى إصلاح ما كان إصلاحه لازماً والى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة لبطريركيتَي أنطاكيا وأورشليم. أنّا نأمرك بذلك السلطان الرسولي الذي أولیناه الله بواسطة بطرس زعيم الرسل» (الدبس، صفحة ١٤).

كان في الأصقاع المشرقية ذلك الزمن بعض المستشرقين، وكانوا يقفون إلى جانب الذين ظلّوا محافظين على العقيدة الكاثوليكية. وقد رأى هؤلاء ما يحدث في جبل لبنان، فانتهزوا الفرصة وطلبوا أن يكون لهم أسقف كاثوليكي. «فرأى وجان البرنس (أمير أنطاكيا) وجميع الإفرنج المقيمون في أنطاكيا أن يقدّموا يوحنا مارون إلى الكاردينال، سفير الكرسي

الرسولي، ليرقّيه إلى الدرجة الأسقفية على مدينة البترون. ليقي أهل جبل لبنان من الضلال ويثبتهم في إيمان الكنيسة الكاثوليكية» (الدبس، صفحة ٤١).

ورأى الكاثوليك في أنطاكيا وجبل لبنان، من جهة ثانية، أهمية وجود أسقف محلّي، فضمّوا أصواتهم إلى أصوات المستشرقين «وسألوا يوحنا الفلدلفي أن يرقّي يوحنا مارون الذي اشتهر بعلمه وفضيلته ومناضلته أصحاب البدع، إلى أسقفية البترون» (الدبس، صفحة ٤٢).

... «فسرّ يوحنا الفلدلفي بما بلغه من امتداد سطوة الموارنة وانتشارهم في لبنان. ولئلاّ يفتقروا إلى المساعدات الروحية، أقام لهم سنة ٦٧٥ أسقفاً يوحنا مارون»...، «فانتقل هذا من دير القدّيس مارون إلى فونيقي أي إلى رعيته» (الدبس، صفحة ٤٢)، وجعل كرسيّه الأسقفي في كفرحي.

«في سنة ٦٧٧ دخل المردة إلى جبل لبنان... وارتدّ إليهم نفر كثير من عبيد وأسرى وغرباء حتى في مدّة يسيرة من الزمان نافوا على ألوف كثيرة... فاضطر (الخليفة الأموي) معاوية إلى أن يعقد معاهدة مع قسطنطين اللحياني ملك بيزنطية يدفع بموجبها عشرة آلاف ذهب كلّ سنة ومایة أسير وخمسين حصاناً. ومن هذه الهدنة صار هدوء عظيم لمملكة الروم» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٩٥).

هل كان المردة هم الموارنة أنفسهم، أم جنوداً مرتزقة مسيحيين استوطنوا شمال سوريا ولبنان واندمجوا بالموارنة، الأمر الذي أدّى إلى قيام الطائفة المارونية؟

ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال، لكنه «منذ ذلك الحين بدأ الجبل اللبناني بالظهور على المسرح السياسي في هذا القسم من العالم»[٤].

٤. تاريخ لبنان للدكتور فيليب حتي، ١٩٥٩، صفحة ٣٠٠. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة حتي.

قيام البطريركيّة المارونيّة

كانت ترقية يوحنّا مارون إلى الدرجة الأسقفية خطوة مهمّة، فالأسقف في الكنيسة هو عنوان الوحدة. إلا أنّ يوحنّا مارون هو مطران أبرشية واحدة هي البترون، ولا بدّ من أن يكون على رأس الموارنة بطريرك. وإذا كان الأسقف هو عنوان وحدة رعيّته، فالبطريرك هو وحده عنوان وحدة الموارنة في كلّ مكان. فهل يستطيع الموارنة أن ينصّبوا بطريركاً عليهم؟

كان المسيحيون يرجعون إلى ملك بيزنطيا في كلّ أمر، فهو بمثابة ملك الكنيسة، يعيّن بطاركتها ويتدخّل في شؤونها. وكان الموارنة يتبعون الكرسي الأنطاكي، فهل كان عليهم الوقوف في وجه السلطة للوصول إلى هدفهم وهل ينصّبون على كرسي أنطاكيا بطريركاً عليهم؟

كانت كنيسة أنطاكيا تنعم بالوحدة، وكانت لها تقاليدها التي تعود إلى عهد الرسل. وكانت لغتها السريانية واليونانية على السواء، وهي ازدهرت طوال الأجيال الثلاثة الأولى للكنيسة، وظلّت كذلك حتى العهد البيزنطي.

ابتدأ العهد البيزنطي مع قسطنطين يوم نقل عاصمته من روما إلى بيزنطيا. ومعه حلّت حضارة جديدة تميّزت بالعظمة والمجد. إنها حضارة المدينة وحضارة الأمبراطور. أمّا أنطاكيا فطبعتها نقاوة الأرياف وصفاء القرية وأصالة الإنسان المتعلّق بالأرض، الفقير القانع بالحياة الجاعل ثقته بالله وبساعده. إنّها حضارة الشعب في سوريا ولبنان وفلسطين بمَن في هذه الديار من نساطرة ويعاقبة. وقد شعر هؤلاء بأنّ بيزنطيا هي عنوان للقوة

والقمع، ولكنّهم كانوا بحاجة إلى الأمبراطور فساروا في ركبه وسكتوا. فمَن بقي في الساحة؟

عملياً، نشأ تيّاران في الكنيسة. تيّار يقول بالطاعة للملك، وتيّار يقول ببقاء الكنيسة على أصالتها التي تعود إلى عهد الرسل، والتي دامت طوال الأجيال الثلاثة الأولى.

ظلّ هذان التيّاران يلتقيان طوراً، وأسباب اللقاء الأصالة الواحدة واللغة الواحدة والتراث الآرامي الواحد. وتارةً يختلفان، وأسباب الخلاف ردّ الفعل المتنوّع إزاء تدخّل الملك في شؤون الكنيسة الداخلية.

وبدأ الفتح العربي، فانقلبت القوى في الشرق. خفّ اليعاقبة لاستقبال الفاتحين. أما الموارنة فوجدوا أنفسهم أمام حائط مسدود. تابع العرب زحفهم، فسقطت أنطاكيا تحت الحكم العربي سنة ٦٣٦، وضعف الحكم البيزنطي وكاد ينتهي. حاول الملوك البيزنطيون أن يُبقوا المسيحيين تحت سيطرتهم، فأخذوا يعيّنون بطريركاً لأنطاكيا يقيم في القسطنطينية. لكنّهم عرفوا بعد حين أنّ بطريركاً يقيم خارج بطريركيته لا يعطي ما يرجى من مقامه، فأهملوا هذا التعيين سنة ٧٠٢، فزادت الفوضى.

مرةً أخرى وجد الموارنة أنفسهم في وضع صعب. عرفوا أنّ الخطر كبير وأنّهم إذا بقوا على ما هم عليه فإنهم معرّضون للانهيار. فالأعداء كثيرون والمستقبل قاتم. فإمّا أن يتخلّوا عن المسيرة وإمّا أن يتابعوها. وفي الأمر رهان ومخاطرة. فقرّروا المضيّ قدماً ولم يجبنوا. فاستدعوا في سنة ٦٨٧ الأسقف يوحنّا مارون، أسقف البترون، إلى دير مار مارون ونصّبوه بطريركاً عليهم. وكان هذا أكبر إنجاز حقّقوه في تلك الأزمنة. فقد وقفوا في وجه التحدّيات وأبقوا مشعل الكثلكة مضيئاً في الشرق.

ولكن كيف تمّت ترقية يوحنّا مارون بطريركاً؟

ليست لدينا وثائق تاريخية في هذا الشأن الخطير. قال المطران يوسف الدبس: «إن ترقية يوحنّا مارون إلى البطريركية اختلفت فيها الأقوال. فمن قائل إنّ القاصد الرسولي في سورية أخذه بعد موت (المؤرخ) توافان إلى رومية، وكان وقتئذ أسقفاً على البترون،

فأقامه البابا سرجيوس بطريركاً على أنطاكية. ومن قائل إنّ الأساقفة اجتمعوا في أنطاكية وأقاموه بطريركاً، واضطر إلى أن يهرب منها إلى دير القديس مارون، ثمّ إلى لبنان، كما روى الإهدني. ومن قائل إنّ أساقفة الموارنة اجتمعوا في لبنان واختاروه بطريركاً أنطاكياً عليهم، كما روى السمعاني. وكلّ هذه الأقوال نراها محتملة الصحّة، ولا يتسنّى لنا أن نرجّح أحدها على الأخرى. ولا سيّما أنّ العلاّمة السمعاني لم يقطع بصحّة قوله، بل عبّر عنه بكلمة أظنّ ولم يقم عليه دليلاً إلاّ صمت المؤرّخين اليونان واللاتين عن ذكر يوحنّا مارون وخلفائه في سلسلة بطاركة أنطاكية. والكلّ يعلم أنّ هذا الدليل وحده ليس بقاطع. ولكن بأيّ هذه الأقوال قلنا، تبيّن أنّ الأحبار الرومانيين اقرّوا ليوحنّا مارون بالبطريركية على أنطاكية. ولا سيما أن توفان أثبت (سنة ٧٤٣) أن كنيسة أنطاكية لم يقم فيها راع مدّة أربعين سنة. وروى توافيلكس أنّها استمرّت حينئذ خمسين سنة خالية من بطريرك وتابعه على ذلك ادوار برندرس في سلسلة بطاركة أنطاكية. واعتمد لكويان هذه الأقوال (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) ولم يحقّق وجود بطريرك يقيم في أنطاكية إلاّ اسطفانوس الذي أقيم سنة ٧٤٢ (طالع عدد ٦٩٢ من تاريخ سوريا) ولا تسه عما كانت عليه حال سورية في تلك الأيّام من الحروب والتشيّع للبدع وما كان للمردة، أي الموارنة، من السطوة والصولة واستحواذهم على كلّ البلاد من الجبل الأسود إلى أورشليم. فهل يخطر على بال أنّ الأحبار الرومانيين تركوا أنطاكية وسورية، خلواً من رئيس يعنى بأمر المؤمنين ويقيهم الضلال ويثبّتهم في الإيمان الكاثوليكي؟ ويكفينا مؤونة البرهان في ذلك قول العلاّمة البابا بناديكتس الرابع عشر بخطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ حيث قال: «لا يفوتكم أنّه في أواخر القرن السابع عندما فشت بدعة القائلين بمشيئة واحدة في المسيح وأفسدت سكّان البطريركية الأنطاكية، حزم الموارنة حينئذ، رغبة في وقاية طائفتهم سالمة من ذلك الفساد، أن اختاروا لهم بطريركاً يثبت من الحبر الروماني. وقد أجمع كلّ من ذكروا هذه الأحداث أنّ البطريرك الذي اختاره الموارنة حينئذ إنّما هو البطريرك يوحنّا مارون» (الدبس، صفحة ٤٤ و٤٥).

سكن البطريرك أوّلاً في دير مار مارون، لكن إلى حين. فقد كان الملك البيزنطي يعيّن هو نفسه البطاركة. ولما حزم الموارنة أمرهم دون استئذانه، لاحقهم، فاضطرّ البطريرك إلى أن يهرب إلى لبنان.

تقول التقاليد المارونية إنّ القدّيس يوحنّا مارون، البطريرك الماروني الأوّل، لجأ إلى لبنان. وسرعان ما صدرت الأوامر البيزنطية بملاحقة الموارنة، وجاءت الجيوش في أثرهم. تضيف التقاليد المارونية أنّه حصل اصطدام بين الموارنة والجيش البيزنطي في أميون، وكانت الغلبة فيه للموارنة. وقُتل أثناء المعركة قائدا الجيش البيزنطي موريق وموروقيان. فدُفن موريق في أميون ودُفن مورقيان في شويته في عكّار. وسكن البطريرك بلدة كفرحي جاعلاً كرسيّه الأسقفي فيها كرسيّاً بطريركيّاً.

مع انتقال البطريرك إلى لبنان ابتدأت هجرة الموارنة من وادي العاصي إليه. جاؤوا جماعاتٍ جماعات وسكنوا إلى جانب أخوانهم موارنة لبنان. في الشمال حيث لا تزال كنيسة مار ماما في إهدن أقدم كنيسة للموارنة في لبنان. وفي العاقورة في منطقة جبيل. عاشوا في الجبال مدّة طويلة في شبه عزلة... ثم انتشروا في لبنان كلّه.

الكنيسة المارونيّة

يوم راح مارون إلى الجبل لم يكن يفكّر في أنّه سيتّخذ له تلاميذ، وأنّ تلاميذه سيحملون اسمه يوماً. صعد إلى الجبل ليكون خادماً للمسيح، فأراده المسيح أن يكون على رأس شعب. وقد أخذ هذا الشعب ينمو بالإيمان ويعظم بالرسالة.

ويوم وقف تلاميذ مارون إلى جانب مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، لم يكونوا يفكّرون في أنّهم سيتولّون الدفاع عن العقيدة المسيحية الصحيحة في الشرق، وأنّ موقفهم هذا سيكون بمثابة الحجر الأوّل في بناء الكنيسة المارونية.

إنّ بناء الكنيسة لا يُرتجَل، بل يُشيَّد مدماكاً فوق مدماك، بصبر الإزميل على حسن توازناته وإيقاعاته. وهكذا كان. فقد كان على هؤلاء التلاميذ أن يقفوا في وجه جميع مَن لا يريدون أن تستقرّ الأحوال، بل أن تبقى الفوضى في صفوف المسيحيين. كان عليهم أن يقفوا في وجه المسيحيين أنفسهم، وقد انقسموا كنائس تحارب إحداها الأخرى. وكان عليهم أن يقفوا في وجه ملوك بيزنطيا، الذين اعتبروا نفوسهم أوصياء على الكنيسة، فأخذوا يعيّنون بطاركتها ويتدخّلون في شؤونها الداخلية.

من جهة ثانية، كان على تلاميذ مارون أن ينظّموا شؤونهم الداخلية، فيقوم كهنتهم بواجب التعليم والرعاية، ويقبل المؤمنون إلى متابعة التعليم وكسر الخبز والصلاة... فتتّحد كلمتهم وتزدهر رعاياهم وتنتشر كلمة الله.

جاء في كتاب **أعمال الرسل** أنّ المسيحيين الأوّلين «أخذوا يخاطبون اليونانيين ويبشّرونهم بالربّ يسوع. وكانت يد الرب معهم فآمن منهم عدد كبير، فاهتدوا إلى

الرب» (أعمال ١١/ ٢٠). وباركت الكنيسة أعمالهم في شخصَي برنابا وبولس، فنشأت كنيسة أنطاكيا وازدهرت. هكذا نشط تلاميذ مارون في نشر الكلمة وأكملوا تجهيزاتهم، فأيّدتهم الكنيسة في شخص البابا، ونشأت كنيستهم، شعباً وأساقفةً وبطريركاً، قويّةً بإيمانها ووحدة بنيها، «كالوردة بين الأشواك»، متتبّعةً خطى الرسل، معلنةً اسم الرب يسوع أمام جميع الناس.

جاءت مبادرة تلاميذ مارون هذه توازي في أهمّيتها تلك التي قام بها المسيحيون الأوّلون في أنطاكيا، يوم فكّوا الحصار وانطلقوا إلى الأمم. «في أنطاكيا اتّخذ التلاميذ لأوّل مرّة اسم المسيحيين» (أعمال ١١/ ٢٦). وفي أنطاكيا أخذ تلاميذ مارون للمرّة الأولى اسم الموارنة.

قبل أن يفعلوا ذلك، كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في اقتفاء آثار معلّمهم. فحفظوا الإنجيل وجسّدوه في صلواتهم وسماعهم القدّاس وقبولهم الأسرار، كما في فلاحتهم الأرض وزراعتهم القمح واتّخاذهم زوجات وتربيتهم الأولاد.

كانت كنيسة أنطاكيا قد تفكّك شملها، وسار أبناؤها في تيّارات مختلفة، فأعاد مارون تشييدها من جديد. بناها على طريقة بولس وبرنابا، واضعَي أساساتها، وعلى مثال بطرس أسقفها الأوّل. فأخذت الانفتاح والشمولية عن بولس وبرنابا، والإيمان عن بطرس. أراد مارون أن يتكرّس جميع أبناء كنيسته لله، ويطلبوا الكمال ويكونوا جميعهم نوراً للعالم وملحاً للأرض. هكذا راح الموارنة في رعاياهم يُقبِلون على الكنائس، فيتحلّق الذين يعرفون القراءة منهم حول القرّاية، ويتناوبون تلاوة الأناشيد والقراءات من الكتاب المقدّس.

هذه الصلوات كانت تدور حول ولادة الربّ وحياته وأعماله. كما كانت تتمحور حول آلامه وموته وقيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماء وإرساله الروح القدس ومجيئه الثاني. كانت صلواتهم بالسريانية، وكان الشعب يفهمها. وفي الجماعة كانت الرعيّة تتذكّر تعاليم الرب وتتقدّم كلّ يوم في الإيمان والرجاء والمحبّة. هكذا تميّزت الكنيسة المارونية

بمحبّة أبنائها للصلاة والتأمّل واحتمال المصائب والصبر على الشدائد، تشبّهاً بيسوع المسيح الذي تألّم ومات ليفتدي البشر.

تميّزت الكنيسة المارونية كذلك بانتظارها المسيح في مجيئه الثاني: «إننا نتذكّر موتك يا ربّ ونعترف بقيامتك وننتظر مجيئك الثاني». إنها كنيسة تعيش في غربة هذه الدنيا، لكن عينها تبقى شاخصة إلى فوق.

تزامنت نشأة الكنيسة المارونية مع بروز أخطار ثلاثة: مسألة المشيئة الواحدة في المسيح، مسألة انفصال الروم عن كنيسة أنطاكيا، ومسألة نزوح موارنة سوريا إلى جبل لبنان وانضمامهم إلى موارنة لبنان.

ظهرت مسألة المشيئة الواحدة في المسيح في بداية القرن السابع. كانت هذه المسألة في الأساس مبادرة من الملك البيزنطي هرقل (حكم ما بين ٦١٠ و٦٤١) لتوحيد المسيحيين وسدّ الثغرة القائمة بين القائلين إنّ في المسيح طبيعة واحدة (المونوفيزيّون) والقائلين إنّ في المسيح طبيعتين (الخلقيدونيّون). لكنّ هذه المبادرة لم تُرضِ أحداً، لا المونوفيزيّين ولا الخلقيدونيّين. على العكس من ذلك، أثارت بلبلة وجدالاً كبيرين، وكانت سبباً جديداً للخلاف. فانقسم المسيحيون إزاءها قسمين: قسم يقول إنّ في المسيح مشيئتين، وقسم آخر يقول إنّ في المسيح مشيئة واحدة. جزم مجمع القسطنطينية في الأمر وأعلن أنّ في المسيح مشيئتين، مشيئة إلهية ومشيئة بشرية. عقد مجمع القسطنطينية سنة ٦٨٠ ليحدّد العقيدة الصحيحة، فنجح في ذلك، لكنّه لم يستطع أن يوحّد المسيحيين فظلّ الخلاف قائماً.

كان البابا هونوريوس قد وافق على مشروع توحيد المسيحيين أوّلاً، باعتبار أنّ ابن الله الذي صار إنساناً، كانت مشيئته البشرية منسجمة كلّ الانسجام مع إرادته الإلهية، إلى درجة لا يمكن اعتبارهما مشيئتين، بل مشيئة واحدة. وقد سار الموارنة في هذا الخطّ، خطّ البابا هونوريوس، خطّ الكنيسة، وقالوا إنّ في المسيح مشيئة واحدة. ولكن بعدما تطوّر الجدال في بيزنطيا من المراد إلى الإرادة، وقال المجمع كلمته، أيّد

الموارنة مقرّرات المجمع من دون قيد أو شرط، وقالوا إنّ في المسيح مشيئتين، مشيئة إلهية ومشيئة بشرية.

قامت الضجّة حول موقف الموارنة. اتّهمهم الناس بالهرطقة عندما قالوا إنّ في المسيح مشيئة واحدة، كما اتّهموهم بالخروج على تعاليم الكنيسة عندما قالوا إنّ في المسيح مشيئتين. وقد ردّ الموارنة على كلّ هذه الادّعاءات وبيّنوا بطلانها. لكنّ ردّهم القاطع كان في تنصيبهم بطريركاً عليهم على كرسيّ أنطاكيا، فدلّت مبادرتهم هذه على أنّهم لم يريدوا أن يتابعوا خطّ كنيسة أنطاكيا فحسب، بل أنّهم هم أنفسهم كنيسة أنطاكيا، وأنّهم ماضون في الدفاع عن الحقيقة المسيحية حتى النهاية.

المشكلة الأولى التي واجهتها الكنيسة الجديدة هي عداء الأمبراطور البيزنطي يوستينيوس الأخرم لها، إذ انضمّ إلى القائلين بأنّ في المسيح مشيئة واحدة وأخذ يضيّق على الموارنة.

تفاقم الأمر، واستفحل الخطر، بعدما انفصل الروم عن كنيسة أنطاكيا، فعرف أبناء مارون في سوريا الاضطهاد. فكان يوحنّا مارون رجل العناية. وهو أعلن إيمانه الكاثوليكي في وجه الخارجين على سلطة الكنيسة، من جهة، وقاد شعبه، من جهة ثانية، من سهول خصبة في سوريا، إلى أرض الوعر والصخر في جبل لبنان. وقد اضطرّ على الصعيد الداخلي إلى أن يعمل على توحيد الصفّ بين موارنة لاجئين وموارنة يعيشون في المغاور والكهوف.

قال البطريرك الدويهي: «عن قدوم البطريرك يوحنا البار والراعي المختار إلى جبل لبنان، تشهد سيرته القديمة، انّه جاء لجبل لبنان ورفع صليبه في رنك البابا، واقتبله البلاد بفرح، وافترق شعبه عن اليعاقبة، ورسم مطارنة في جبل لبنان» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ١٢١).

وأضاف: «في مدّة تردّده في جبل لبنان، صحّح الرتب الكنسية، بما يخصّ رتبة الصلاة وتوزيع الأسرار على ما نحن مستمرّون عليها إلى يومنا هذا، ليفرّق جماعته من الطوائف التي بجيرتها، ويثبّتها على الاتحاد مع الكنيسة الرومانية» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ١٢٢).

وختم الدويهي: «فإن هذا البطريرك الكلّي قدسه، من حين استراح من عواصف الاضطهاد، ما زال يجول أصقاع لبنان وجبرتها، فيثبت الذين بحجر الكنيسة، ويردّ المخالفين إلى حظيرة الخراف» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ١٢٤).

كان أعداء الإيمان الكاثوليكي لاهوتيين وأصحاب نفوذ. وكانت مهمّة يوحنّا مارون أن يجمع شمل الشعب ويبقيه أميناً لتعاليم الكنيسة. إنّ كتاب **نافور يوحنا مارون يُظهر** بوضوح أهمية التعليم، ويؤكّد أنّ البطريرك كان يجاهد ليحافظ على إيمان شعبه: «اذكر يا ربّ بمراحمك الغزيرة جميع من أحسنوا أمامك من البدء، آباءنا ورؤساء الآباء ملافنة بيعتك المقدسة، الذين ردّوا الشعوب من ظلمة الطغيان إلى نور الإنجيل المقدّس الصادق، بأشعّة تعاليمهم المجيدة، وجاهدوا من أجل حق الإيمان المستقيم».

وبما أنّ الاختلافات بين المسيحيين كانت تدور حول الإيمان بالآب والابن والروح، كان القدّاس الماروني، وكان نافور القديس يوحنّا مارون بنوع خاص، يؤكّدان الاعتراف بالثالوث الأقدس: «امنحنا... أن يتمجّد ثالوثك أيها الآب والابن والروح القدس... أقمنا معهم لنعترف ونسجد ونمجّد الثالوث الآب والابن والروح القدس... وبلّغنا الانضمام إلى أبرارك وصانعي مشيئتك. بنعمتك وبإرادة أبيك المبارك وروحك الحيّ القدّوس... فلتسبّح الثالوث الممجّد كلّ طغمة جملة وكلّ محلّ باندهاش وكلّ فم بتعظيم وكلّ نسمة بدوام».

وفيما كان الموارنة يمجّدون الآب والابن والروح القدس، كانوا يعيشون وحدة لا حدود لها، فتضطرّهم هذه الصلوات إلى أن يكونوا هم واحداً، كما أنّ الآب والابن والروح القدس هؤلاء الأقانيم الثلاثة هم إله واحد.

وكان لهذه الوحدة التي هي نتيجة حياة مسيحية صحيحة، تأثير بالغ في الناس. فأخذت الجماعات تدخل الكنيسة المارونية، كما كانت الجماعات في عهد المسيحيين الأولين تنضمّ إلى كنيسة أورشليم.

قال الدويهي: «ويوحنّا مارون من حين قبل وضع اليد انتقل إلى رعيّته، وصار في

المواعظ والمواصلات وفي الدوران والتنبيهات وفي حسن السيرة والصلوات، يقودهم إلى الطاعة ويشدّدهم في الإيمان القويم. فاستمثل الشعب بكلامه من غير مخالفة وارتدّ إليه جمع كثير من غرب وقرب، ومن الذين كانوا متمسّكين بطبيعة واحدة، ومن الذين كانوا يكرزون بمشيئة واحدة. وصار قطيع عظيم جداً في الروح وفي الجسد، حتى أنّه بمدّة يسيرة من الزمن تولّوا ليس فقط على مقاطعات جبل لبنان، بل تملّكوا جميع ما هو من القدس الشريف حتى بلاد الأرمن» (الشرح المختصر، الجزء الأول، صفحة ٩٤).

ظهرت الكنيسة المارونية راسخة في الإيمان، زاهدة في خيرات الدنيا. وقد أخذ أبناؤها في كلّ رعية، في المدن والقرى، «يتابعون تعليم الرسل والحياة المشتركة وكسر الخبز والصلاة» (أعمال ٢/ ٤٢)، يكملون رسالة يسوع ويشهدون له لدى الأمم.

لم تكن الكنيسة المارونية طرفاً بين كنائس الشرق وشعوبها، بل منارة، فأخذت على عاتقها خدمة جميع الناس وخلاصهم. إنّها كنيسة يسوع المسيح الذي تألّم ومات ليفدي الإنسان، وهي الكنيسة التي أرادت أن تساهم معه في عمله الخلاصي، فتبعته على طريق الجلجلة وركّزت ليتورجيّتها على موته وآلامه، وعاشتها معه إلى درجة ظهرت فيها أنها كنيسة الصليب، كنيسة الاستشهاد الدائم.

القسم الثاني

البطريركية المارونية في منطقة جبيل

من سنة ٩٣٨ إلى سنة ١٤٤٠

شعب في خدمة الله

انتقل البطريرك الماروني إلى جبل لبنان، فهل كانت هذه الخطوة نهائية؟

بعد أن انضمّت جماعات مارونية سورية إلى موارنة جبل لبنان، تبدّلت المتطلّبات وازدادت الأثقال، وأصبح من الضروري أن يبقى الراعي بين رعيّته. مع ذلك فقد ظلّت عين البطريرك على أنطاكيا، وظلّ يترقب الفرصة لكي يعود إليها ليبقى إلى جانب البقية الباقية من المسيحيين التي كانت تعاني الشدائد وتقلق لمصيرها.

هذه الرغبة لم يحقّقها القدّيس يوحنّا مارون، ولا البطريرك قورش الذي خلفه على كرسيّ أنطاكيا، ولا البطريرك جبرائيل... بل البطريرك يوحنّا الثاني، الذي عاد إلى دير مار مارون، ومنها إلى أنطاكيا عينها.

حاول أن يجمع شتات الرعيّة هناك، لكنّه لم ينجح. فقد تكرّرت الشدائد وكثرت الأخطار فاضطرّ إلى الهرب من جديد إلى جبل لبنان. وصادفت عودته مع متابعة الفاتحين العرب تقدّمهم إلى الساحل اللبناني حيث سكنوا إلى جانب اليعاقبة، فلم يعد في مأمن. ولكي ينجو البطريرك من مضايقات هؤلاء جميعاً، تابع طريقه إلى الجبل واختار جرود العاقورة في منطقة جبيل.

قال البطريرك الدويهي في هذا الصدد: «في هذه السنة أي سنة ٩٣٨ نختبر من بعض تواريخ سريانية قديمة، أنّ البطريرك يوحنّا انتقل من أنطاكية وجاء إلى لبنان... إلى يانوح. وكانت يانوح من أشرف المجالس في جبّة المنيطرة، وأهلها كثيرو الغيرة والعبادة. فابتنوا دير مار جرجس، كلّه من الحجر الأزرق في غاية الصنعة والشرافة. وهو إلى يومنا هذا باقٍ

ولكن خال... ثمّ إنّ البطريرك يوحنّا لما قرب أجله، جمع كلّ كهنة البلد وأقام لهم بطريركاً آخر، يحمل اسمه من قرية دملصا»[١].

بعد يوحنّا الذي من دملصا، جلس على كرسيّ يانوح غريغوريوس واسطفان ومرقس وأوسابيوس، ويوحنّا وداود، وغريغوريوس وتوافيلكوس ويشوع، ودومط واسحق ويوحنّا وسمعان ويوسف الجرجسي إلى سنة ١١٢٠، وفي عهده ابتدأ الموارنة بدقّ الأجراس بدلاً من نواقيس الخشب.

إنّنا لا نعلم شيئاً عما فعله هؤلاء الأحبار وما تركوا من مآثر، «فالقرون الأربعة من بدء القرن الثامن إلى آخر الحادي عشر تسمّى قرون الجهل... وقد رأيت ما قاله لكويان في المشرق المسيحي عن بطاركة أنطاكيا وأورشليم في هذه القرون. إنّه لم يكن لهم تاريخ غير ما نقّب عنه الإفرنج بعد استحواذهم على سوريا في بدء القرن الثاني عشر. وما ظنّك ببطاركة الموارنة الذين لم يقيموا في المدن الشهيرة كأنطاكيا وأورشليم، بل في كفرحي ويانوح بين قمم لبنان الوعرة الصعبة المسالك، مؤثرين العزلة في أصعب المحال مسلكاً، على الإقامة في المدن والتعرّض للأخطار، تعوزهم جميع وسائل العلم ويحسبون من السعادة أن يعيشوا مع رعاياهم آمنين ومحافظين على إيمانهم القويم» (الدبس، صفحة ١١٠).

لا نعرف شيئاً عن الموارنة في القرن الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر، إذ عاشوا في عزلة تامّة في جبال لبنان. وقد كانت طريق البحر أمامهم مسدودة، تماماً كما كانت الطرق وراءهم. فلم يبق لهم إلاّ هذه البقعة الضيّقة الممتدّة من العاقورة إلى إهدن: الجبال العالية الصعبة المسلك، والأودية العميقة الضيّقة العبور.

ما نعرفه هو أنّه لّما فتح الإفرنج لبنان، لم يتعرّضوا للموارنة ولم يلزموهم الحرب إلى جانبهم. كما أنّ المسلمين لم يجنّدوهم لمحاربة الصليبيين.

في الوقت عينه، تشير الدلائل التاريخية إلى أنّ الموارنة عرفوا الاستقلال الذاتي باكراً،

١. تاريخ الأزمنة للبطريرك اسطفان الدويهي، طبعة الأباتي بطرس فهد، ١٩٧٦، صفحة ٥٠. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة الأزمنة.

إذ ذكر البطريرك إرميا الذي هو أيضاً من دملصا، أنّه في سنة ١١٧٩ كان على جبيل أمير. كما ذكر الملك لويس التاسع في كتابه إلى البطريرك سمعان في سنة ١٢٥٠، أنّ البطريرك أوفد إليه الأمير سمعان أمير الموارنة. وصرّح البابا بينيديكتوس الرابع عشر للكرادلة سنة ١٧٤٢، أنّه لّما هرب الإفرنج من أنطاكيا، التجأوا إلى جبل لبنان، واحتموا لدى البطريرك الماروني.

نستنتج من هذا كلّه أنّ الموارنة كانوا يعيشون بعيدين عن الأنظار، يقطنون الجبال العالية التي تكسوها الثلوج في الشتاء، والتي لم تكن تستهوي الفاتحين لصعوبة الوصول إليها. فتنظّموا بقيادة بطريركهم وأقاموا أميراً عليهم. وشكّل حكمهم الذاتي هذا نوعاً من الاستقلال، الأمر الذي سمح للإفرنج الهاربين من أنطاكيا باللجوء إليهم، فضمّهم البطريرك إلى شعبه.

شكّل عيش الموارنة في هذه البقعة من الأرض التي تمتدّ من العاقورة إلى تنّورين، ومن الحدث وحصرون، وصولاً إلى بشرّي فإهدن...، مثار عجب وانبهار لدى كثيرين. كانت حياتهم صعبة شاقّة. ليس من باب لديهم إلى محيطهم ولا من نافذة إلى العالم. كان وضعهم يدعو إلى القنوط والإحباط، لكنّهم لم ييأسوا. زادتهم مشقّات الحياة صلابةً وإيماناً. والجنائن التي تركوها لنا تشهد على أنّ عزيمتهم لا تنثني، وأنّ الحياة هي أقوى من الموت. والليتورجيا التي خلّفوها لنا تدلّ على أنّ إيمانهم يتخطّى اليأس وأنّه ينقل الجبال.

وصف لامرتين هذا الواقع قائلاً: «هذا الشعب الذي لا يعرف التعب، والذي لم يكن له مأوى، إلاّ حمى هذه القمم وهذه الوهاد، لقد جعل الصخر ذاته مخصباً». أضاف: «صعد (هذا الشعب) في الجبل حتى أعلى قممه، حتى الثلوج الأبدية، يرفع الأرض طبقةً تلو الطبقة تسندها جدران من الحجر الغشيم، يحمل إليها ما تيسّر من تراب يصلح للزراعة، مما تجرف السيول إلى الأودية. حتى أنه سحق الأحجر ليمزج غباره الخصب بقليل من التراب الذي بيده. وهكذا جعل من لبنان كلّه بستاناً تغطّيه أشجار التوت والتين والزيتون

والزروع المختلفة»[٢].

وكتب الأخوان تارو عن شعب هذا الجبل قائلين: «فرض عليهم أن يعيشوا في طبيعة جافّة قاسية، فأعملوا يدهم في الصخور ونحتوها فإذا هي حفافي متدرّجة معلّقة، وبساتين جوّية، وكروم من التوت واساقيل من الدوالي. وإذا هي رائعة من الروائع» (كتاب طريق دمشق لجان وجيروم تارو، ١٩٢٣، صفحة ٤١ و٤٢).

وقال سائح فرنسي كان يشغل وظيفة رسمية: «الوادي ضيّق سحيق، وبسبب ارتفاع الجبال من حوله يبدو مظلماً إلاّ عندما تصبّ الشمس أشعّتها العمودية فيه حتى قعره... وتعتري الإنسان رهبة إذ يلتفت من حوله فيرى الجبال وكأنها تسدّ بوجهه سدّاً محكماً كلّ مخرج، ويتساءل بقلق عن الطريق للخروج من هذا الكهف... ولكن بالرغم من هذا المظهر المخيف، يستأنس بالشجر الكثير فيه، وبالأخصّ الزيتون، رمز السلام، الذي يبلغ أحجاماً غير عادية. ويدهش لما يبذل له من عناية، دليل ما يمتاز به أصحاب هذه الأملاك من نشاط في العمل. فكم تكبّدوا من مشقّات لكي يمكّنوا هذه الأشجار العملاقة من أن تصعد على تلك السفوح الشديدة الانحدار، فلا تنقلب إلى قعر الهاوية في زمن الأمطار الغزيرة، إبّان الشتاء أو عند ذوبان الثلوج. كلّ زيتونة مدعّمة بحجارة مرصوفة بمنتهى البراعة. فإذا أمامك حيطان ومصطبات من تراب على مد النظر» (المسيح في لبنان، صفحة ٩٨).

وقال المستشرق الفرنسي قسطنطين فرنسوا ڤولني (١٧٥٧-١٨٢٠): «فالأمن في نظرهم (الموارنة) نعمة غالية تستأهل أن يبذل هنا، ما لا يبذل في أيّ مكان آخر، من جهد وعناية بهذه الصخور. فبفضل حذقهم وصبرهم على العمل، ذلّلوا الصخر وأخصبوه. فتراهم، في سبيل الانتفاع بالمياه، يحفرون لها حيناً الأقنية المتعرّجة في المنحدرات أو يضبطونها بسدود في الأودية، وحيناً آخر يدعمون بالجدران الأراضي المهدّدة بالانهيار ويجعلون منها مصطبات للزراعة. وهكذا تبدو سفوح الجبال كلّها تقريباً مدرّجات تحمل

٢. المسيح في لبنان للأب فيرجيل جورجيو، ترجمة الأب يوحنا كوكباني، صفحة ٩٧. وسنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة المسيح في لبنان.

صفوفاً من أشجار التوت ودوالي العنب. وإنّك لتجد أحياناً على السطح الواحد المائة والعشرين مصطبة مرصوفة من قعر الوادي إلى رأس المرتفع» (المسيح في لبنان، صفحة ١٨).

أما الليتورجيا التي خلّفوها لنا فإنّها لا تزال شهادة ناطقة بقوّة إيمان الموارنة. هي ليتورجيا كنيسة أنطاكيا التي جسّدت فيها إيمانها ورجاءها ومحبّتها. ليتورجيا الكنيسة الناشطة التي فهمت حقيقة يسوع المسيح وأرادت أن تبشّر به.

الليتورجيا المارونية هي صراخ شعب سُدّت في وجهه كلّ الأبواب، فعاد إلى ربّه يطلب النجدة. إنّها حياة شعب تألّم وآمن. اضطُهد وصمد. ويكفي أن تسمع أنشودة واحدة من الليتورجيا المارونية حتى تعرف أنّها ليست من صنع اللاهوتيين ولا العلماء، بل من وضع شعب، وهي صلاة شعب. إنّها صلاة رعيّة بجميع أبنائها. برجالها ونسائها وشيوخها وأولادها. إنّها صلاة مَن جعل مقامه في وادي الدموع، ووقف أمام الربّ يسوع وأعرب له، بطريقة عفوية وبكلام خارج من القلب، عن إيمانه به ومحبّته له وحاجته إليه.

وهي ليتورجيا تعليمية. فكأنّ رؤيا مارون في خلوته على الجبل، وهي أن يتابع المؤمنون تعليم الرسل، قد طبعت الشعب الماروني بطابع لا يمحى. فكان البطريرك والأساقفة والكهنة أوّلاً وأخيراً معلّمين...

وهي تعليمية من حيث تتبّعها حوادث يسوع في دورتها الطقسية، وتبدأ في الأحد الأوّل من تشرين الثاني (أحد تقديس البيعة)، وتنتهي في أواخر تشرين الأوّل. تجمع هذه الليتورجيا، من جهة، في سنة واحدة، حوادث يسوع الخلاصية، ميلاده، ظهوره، صومه، موته، قيامته، حلول روحه القدّوس، وانتظار مجيئه الثاني، مبيِّنةً أنّ يسوع المسيح هو الأوّل والآخر، وأنّه وحده المخلّص الذي ننتظر منه كلّ شيء. وتساعد المؤمنين، من جهة ثانية، في أن يشتركوا في حياة يسوع يوماً بعد يوم، ويدخلوا في سرّه خطوة خطوة، ويتجدّدوا، وينتقلوا به ومعه، من الخطيئة إلى الحياة.

وكان هذا البعد الرؤيوي الروحي الليتورجي يتجلّى في صلاة الصبح كما في صلاة المساء، في زيّاح العذراء كما في منح سرّ العماد أو رتبة الزواج، وخصوصاً في القدّاس.

ينقسم القدّاس الماروني إلى جزءين:

– الأوّل قسم الموعوظين التعليمي، وكان يدور في صحن الكنيسة، حيث كان يجلس الكهنة إلى طاولة بين صفوف المؤمنين كمعلّمين. ويتضمّن صلوات وأناشيد وقراءات من الكتاب المقدّس، مع شروحها وإظهار معانيها. وكانت هذه الصلوات والأناشيد والقراءات تُطلع الموارنة على حقيقة الله، فيعبدونه ويحاولون أن يصلحوا ذواتهم ويحفظوا وصاياه.

– والثاني هو القدّاس في حدّ ذاته. فبعد أن يكون المؤمنون قد تهيّأوا له، يحضرون فيه اشتراكاً فعلياً بموت يسوع وقيامته.

نجحت الليتورجيا المارونية في تأدية رسالتها، فصهرت الشعب الماروني وجعلته في المسيح، يحيا له ومن أجله. ويكفي أن يحضر المؤمن اليوم، مناسبةً دينية واحدة في كنيسة مارونية، ليحيا ظاهرة إيمان فريدة من نوعها، تترك فيه أثراً لا يمحى، فيدرك من خلال ذلك بأيّ ثقة وبأيّ محبة كان الموارنة الأقدمون يدخلون إلى الكنيسة ويسكبون نفوسهم أمام مذبح الرب.

عندما عرف الموارنة الاضطهادات بسبب إيمانهم بالعقيدة الصحيحة، عقيدة الثالوث الأقدس بنوع خاص، غلبت على ليتورجيتهم الحاجة إلى الآب والابن والروح القدس. وبعد أن عرفوا الحصار في جبال لبنان وعاشوا الوحدة الخانقة، عرفوا أنّ الله وحده هو رجاؤهم، فخلعوا على ليتورجيتهم وشاحاً من الرجاء قلّما نجده في ليتورجيا أخرى.

فقد جاء في **نافور الكنيسة الرومانية**: «إن رجاءنا وطيد بمراحمك الغزيرة أيّها الربّ إلهنا. ولذلك نسألك أن تجعلنا أهلاً لحظّ تقديسك بواسطة ابنك الوحيد ربّنا يسوع المسيح الذي أنت معه مبارك وممجّد مع روحك القدّوس الآن وفي كلّ أوان...».

أما في **نافور مار يعقوب** فنجد: «أيها الإله الآب الذي أرسلت ابنك إلى العالم من جرى عظم محبّتك التي لا توصف للبشر، لكيما يردّ الخروف الضالّ، لا تردّ وجهك عنّا نحن الذين نخدم الآن هذه الذبيحة الرهيبة، غير الدموية. فإنّنا بالاتكال على رحمتك لا على

برّنا، نتضرّع إلى نعمتك مبتهلين ألاّ يكون لدينونة شعبك هذا السرّ الذي أوجدته لخلاصنا. بل يكون لمحو الخطايا وغفران السيّئات والشكر لك بنعمة ابنك الوحيد ورحمته. وبه ومعه يليق لك المجد مع روحك القدّوس...».

وفي **نافور مار يوحنّا مارون** أخيراً: «لا تمنعنا مراحمك يا ربّ. ولا ترخ بنا الأيدي لنسقط ونبلغ إلى تيهان الجهل، بل امنحنا أن نسلك في طرقك ونسير في سبلك ونصنع مشيئتك. اغفر لنا ولرعيّتك كلّها جميع الخطايا والمخالفات الخفية والظاهرة. الاختيارية وغير الاختيارية. وأهّلنا لآخرة صالحة مسيحية تحسن لك. وامنحنا الوقوف عن يمينك بغير خزي. وبلّغنا الانضمام إلى أبرارك وصانعي مشيئتك. بنعمتك وبإرادة أبيك المبارك وبقوة روحك القدّوس...».

كلّ ما نعرفه عن الموارنة في الجيل الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر، هو تلك الجنائن التي نحتوها في الصخور، والصلوات التي كانوا يتلونها. الأولى تظهر أنّهم كانوا يأكلون خبزهم بعرق جبينهم، وأنّهم كانوا يتعاونون لكي يتغلّبوا على مشقّات الحياة. أمّا الليتورجيا التي خلّفوها لنا فتدلّ على أنّهم جعلوا رجاءهم في الله عندما فقدوه في الأرض. التعاون بين الأخوة والإيمان بالله والعودة إليه في كلّ أمر، تلك هي الحياة المسيحية الصحيحة. ففيما كانت شعوب العالم تفتّش عن السعادة في خيرات الأرض فلا تجد إلاّ الهوان، كان الموارنة في جبال لبنان ووهاده ينعمون برضى الله ويعيشون ما عاشه المسيحيون الأوّلون من مشاركة حياة ومحبّة.

فُرِض عليهم أن يكونوا في حصار لا تنفتح منه نافذة إلاّ على الله، فطلبوا ما يطلبه ورفضوا ما يرفضه. تعلّموا أن يسيروا في خطى المسيح فتركوا كلّ شيء وتبعوه. ولم يكونوا على شيء من شؤون الناس، بل كانوا شعباً في خدمة الله.

الصليبيون في لبنان: أصدقاء الموارنة أم أعداؤهم؟

في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ ألقى البابا أوربان الثاني خطاباً، دعا فيه المسيحيين إلى أن يسترجعوا القبر المقدّس من «أيدي غير المؤمنين».

وفي سنة ١٠٩٧، لبّى نداء البابا جيش أوروبي قوامه مئة وخمسون ألف محارب تجمّعوا في القسطنطينية. وفي سنة ١٠٩٨، وصلوا إلى لبنان.

تتضارب الآراء في شأن الوقائع الكاملة المتّصلة بوجود الصليبيين في الشرق، وعلاقتهم بالموارنة، على رغم كلّ ما كتبه المؤرّخون ووثّقوه في هذا الشأن. كما تتضارب الآراء في شأن النتائج المترتّبة على ذلك، سلباً وإيجاباً. هنا يجوز طرح السؤال الآتي: هل كان الصليبيون أصدقاء للموارنة أم أعداء لهم؟ أو في الأصحّ والأدقّ: متى كانوا أصدقاءهم حقّاً، وأعداءهم حقّاً؟

ما يمكن استخلاصه على العموم، أنّه قد لا يكون جائزاً، للأمانة التاريخية، أن تؤخذ العلاقة بين الطرفين في مظاهرها وظواهرها البيّنة فحسب، وخصوصاً ما له صلةٌ بالودّ الذي نشأ بينهما، والذي نجم عن الإيمان الديني المشترك والتعلّق بكرسيّ روما. فتحت سقف هذا الودّ الديني، كانت تعتمل اختلافات كثيرة في المصالح وفي الأهداف. فمصالح الصليبيين وأهدافهم لم تكن جميعها متوافقةً مع ما كان يهدف إليه الموارنة، وخصوصاً ما يتعلّق بذاتيّتهم، وبنشدانهم الحرّية، كجماعة، الأمر الذي يمكّنهم من أن يتّخذوا قراراتهم بأنفسهم، وفق ما تقتضيه ظروفهم التاريخية الموضوعية.

لقد كان من الطبيعي، بل من مصلحة المؤرّخين الغربيين الذين رافقوا الحملات

الصليبية، أن يتحدثوا عن «انقياد» الموارنة للصليبيين، إلاّ أنّ ما كان يفرّق هؤلاء عن أولئك بقي في الواقع عميقاً جدّاً، وجوهرياً، ليس في العادات والطقوس والتقاليد الاجتماعية فحسب، بل أيضاً على مستوى الليتورجيا الدينية. يضاف خصوصاً إلى هذا وذاك، أنّ السياسة التي اتّبعها الصليبيون في الشرق، وخصوصاً في لبنان، لم تكن تحظى برضى الموارنة، إلاّ من حيث اعتبارها أمراً واقعاً، يجد طريقه إلى القبول والتنفيذ، مستنداً إلى حجّة الإيمان المسيحي المشترك.

إلاّ أنّ تلك السياسة كانت تفرض شروطاً لم تكن محمودة العواقب، ولا تأخذ في الاعتبار مصالح الموارنة، كشعب شرقيّ، تربطه بشعوب الشرق الأخرى، وبأديانه، وأحواله، وشائج وعلاقات، من المؤكّد أن الصليبيين لم يأخذوها البتّة في الاعتبار.

قال المؤرّخ اللاتيني غليوم الصوري، أسقف صور: «ولمّا خيّم الفرنج فوق مدينة طرابلس (في زحفهم على أورشليم بعد فتح أنطاكيا)، هبط إليهم جماعة من المؤمنين السريان الذين يسكنون جبل لبنان فوق جبيل والبترون وطرابلس... لأجل تهنئتهم وعرض خدماتهم عليهم. فرحّبوا بهم بعواطف الحبّ الأخوي واتّخذوا منهم هداة يرشدونهم آمن الطرق وأيسرها في تلك الجبال الهائلة التي كانت تعترضهم»[٣]. وأضاف: «لم يكن جمهور هذا الشعب قليل العدد، بل كان يقال إنهم يتجاوزون الأربعين ألفاً عدداً: وهم يقطنون جرود لبنان ووهاده، في أسقفيات جبيل والبترون وطرابلس...» (دريان، صفحة ٧٥). وقال مؤرّخ آخر للصليبيين هو ريموند دي اعويليار، «إن عددهم يبلغ الستين ألفاً» (دريان، صفحة ٧٦).

وجد الصليبيون في الموارنة رجالاً أشدّاء فاستعانوا بهم في فتوحاتهم. ووجد الموارنة في الصليبيين أخوة لهم فأحبّوهم وانقادوا إليهم في أمور كثيرة، وأخذوا عنهم بعض العادات.

قال الأسقف يعقوب دي وتري: «مع كون الأساقفة في الشرق ما خلا اللاتين، لا يستعملون لبس التاج الحبري والخاتم، ولا يحملون عصا الرعية. وليس عندهم نواقيس

٣. نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية للمطران يوسف دريان، صفحة ٦٧. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة دريان.

من نحاس إنما يستدعون الشعب إلى الكنيسة بقرع العصيّ على الأخشاب، فإنّ الموارنة المذكورين، يحفظون عوائد اللاتين وطقوسهم للدلالة على انقيادهم إليهم وامتزاجهم بهم» (دريان، صفحة ٨٣).

وقال البطريرك الدويهي: «في هذا الزمان انتشر دين النصرانية في بلاد الشرق، وصار ينادى به جهراً. وأخذ جماعتنا يدقّون أجراساً من نحاس للصلاة والقدّاس الإلهي. والذين فاضت نعمة الله بين أيديهم صاروا يبنون ديورة وكنائس، وتقصد الناس خدمة الله وعمل الخير. وكان للخوري باسيل البشرّاني ثلاث بنات: مريم وتقلا وسالومي. فالبنت مريم بَنت هيكل مار سابا في قرية بشرّي في جبل لبنان، والبنت سالومي هيكل مار دانيال في الحدث، وأما تقلا فبنت هيكل مار جرجس في بقرقاشا وكنيستين في أرض الكورة...» (أزمنة، صفحة ١٠٤).

توثّقت عرى الأخوّة بين الصليبيين والموارنة. فكان الكهنة الموارنة يدخلون كنائس اللاتين ويستعملون أدواتهم الطقسية. وكان الصليبيون يعتبرون الموارنة أقرب الناس إليهم فيجعلونهم في المركز الأوّل. وقد ظلّت هذه العلاقات طوال بقاء الصليبيين في الشرق. كان الإيمان يجمعهم. إلاّ أنّ هناك أشياء كثيرة بقيت تفرّق بين الطرفين، من حيث المصالح والمفاهيم والرؤى.

كانت علاقة الموارنة بالصليبيين علاقة ودّ في وجه عام، وبالفرنسيين منهم في وجه خاصّ، على ما نجده في كتاب وجّهه القدّيس الملك لويس التاسع إلى البطريرك الماروني:

«إلى أمير الموارنة بجبل لبنان

وإلى بطريرك هذه الطائفة وأساقفتها

لقد أفعمتم قلبنا سروراً عند رؤيتنا ولدكم سمعان آتياً إلينا من قبلكم على رأس خمسة وعشرين ألف رجل يبلغنا عبارات حاساتكم ويقدّم لنا الهدايا فضلاً عن الحلى الكريمة التي أرسلتموها إلينا. فنؤكّد لكم أنّ المودة الصادقة التي أخذنا نشعر بها بحرارة شديدة نحو الموارنة في مدّة إقامتنا في قبرص حيث هم مقيمون قد زادت فينا أيضاً: ونحن على

يقين من أنّ هذه الأمّة التي وجدناها قائمة تحت اسم القدّيس مارون إنّما هي قسم من الأمّة الفرنسية. لأنّ إخلاصها للفرنسيين أشبه بإخلاص الفرنساويين بعضهم لبعض. ومن ثمّ فمن العدل أن تتمتّعوا أنتم أيضاً وسائر الموارنة بنفس الحماية التي يتمتّع بها الفرنساويون لدينا وأن تقبلوا في الوظائف نظيرهم تماماً.

«ونحن نحرّضك أيها الأمير الشريف على بذل الغيرة والجهد في سبيل سعادة سكّان لبنان وعلى العناية بإقامة أشراف من الأكثر أهلية بينكم كما يعمل عادة في فرنسا.

«وأنتم أيّها السيّد البطريرك والسادة الأساقفة وسائر الإكليروس والشعب الماروني مع أميركم الشريف أيضاً، فإننا ننظر بمزيد التعزية إلى تعلّقكم الثابت بالديانة الكاثوليكية وإلى احترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القدّيس بطرس ونحضّكم على حفظ هذا الاحترام وعلى الثبات في إيمانكم بلا انقسام.

«أما نحن وكلّ الذين يخلفوننا على عرش فرنسا، فإنّنا نتعهّد بأن نوليكم أنتم وشعبكم نفس الحماية التي للفرنسيين أنفسهم وأن نعمل على الدوام كلّ ما هو ضروري لسعادتكم.

صدر عن عكا في ٢١ أيار ١٢٥٠ وهي الرابعة والعشرين لتملكنا» (دريان، صفحة ٩٤).

اكتشف الصليبيون أولاً أنّ البطريرك الماروني هو «الكلّ في الكلّ في طائفته. كلّ شريعة تصدر منه وكلّ قانون ينتهي إليه. ما يريده ويقرّه يكون. وما لا يريده لا قيام له. كانت له السلطة المطلقة في اختيار معاونيه من الأساقفة. لا بل كان هو أسقف الطائفة كلّها. وكان سائر المطارنة نوّاباً له يبعثهم باسمه، تارةً إلى هذه الأبرشية، وطوراً إلى تلك الأبرشية، ليتفقّد شؤونها ويرفع تقريراً عنها إليه. البطريرك هو الرأس. إليه وحده يلجأ الموارنة في جميع حاجاتهم واحتياجاتهم، روحية أو زمنية» (مجموعة المجامع الطائفية المارونية للأباتي بطرس فهد، صفحة ١٠٨).

وتلمّس الصليبيون ثانياً أنّ للأسقف مركزاً مرموقاً بعد البطريرك. وتظهر سلطته بنوع خاصّ عندما يزور رعيّته. فيقبل إليه جميع أبنائها، يقبّلون يده، ويصغون إلى تعاليمه. فيحلّ مشكلاتهم المستعصية ويردّ على أسئلتهم ويثبّتهم في الإيمان.

بعد الأسقف، عرف الصليبيون أنّ للكاهن الماروني المرتبة الأولى في الرعيّة. ما يقوله هو الصحيح. فهو الأب الروحي. وهو المرشد. وهو الذي يعلّم الأولاد القراءة والكتابة. وهو الذي يعلّم الشعب تعاليم الإنجيل.

ووجد الصليبيون أنّ سلطة الأهل قويّة عند الموارنة، تقرّر مصير كلّ أفراد العائلة حتى في أمر الزواج، تماماً كما كان يحدث في عهد الآباء.

«قبل أن يموت إبراهيم، استدعى إليه عبده المولى على جميع ماله وقال له: استحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض، أن لا تأخذ زوجة لابننا من بنات الكنعانيين الذين أنا مقيم فيما بينهم. بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب. وتأخذ زوجة لابني اسحق. فقال له العبد: لعلّ المرأة لا ترضى أن تتبعني إلى هذه الأرض. فهل أردّ ابنك إلى الأرض التي خرجت منها. فقال له إبراهيم: إيّاك أن تردّ ابني إلى هناك. الربّ إله السماء الذي أخذني من بيت أبي ومن أرض مولدي، والذي كلّمني والذي أقسم لي قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابني من هناك، وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك فأنت بريء من يميني هذه» (تكوين ٢٤).

كان الأب والأم يرافقان ولدهما في كلّ أطوار حياته. يفكّران في مستقبله، ويتشاوران كلّ يوم في مَن تكون زوجته. حتى إذا وقع اختيارهما على صبيّة، فاتحا والديها بالأمر، واتّفقا معهما وقدّما هديّة للصبيّة. وكان الولد يطيع والديه فيرضى باختيارهما. وكان اختيار العروس الحدث الأهمّ الذي يتناقله أبناء الرعيّة.

أمّا الخطيبان فكانا يتهيّآن لزواجهما بروح طيّبة وثقة جريئة، تساندهما محبّة الأهل ومعاونة جميع أبناء الرعيّة.

هذه الصفات هي نتيجة حياة مسيحية صحيحة، عاشها الموارنة ضمن إطار الرعيّة وضمن إطار العائلة أيضاً.

كان الموارنة في الرعيّة شعباً واحداً. يواظبون على سماع القدّاس والصلاة. كانوا يساندون أحدهم الآخر، فـ «إذا تألّم عضو تألّمت معه سائر الأعضاء، وإذا أكرم عضو

سرت معه سائر الأعضاء» (أولى قورنتس ١٢/١٦).

وإذ كان طالب الزواج عند الموارنة يعرف أنّ العالم صعب، لكنّه كان يدرك في الوقت عينه أنّه يستطيع أن يقبل إلى العالم إذا كانت العائلة وراءه. كان يتلمّس في كلّ يوم أنّ والديه يريدان له ما يريده لنفسه. وأنّهما يساندانه في اتّخاذ القرار في ما لم تعلّمه التجارب أن يقرّره وحده، فيحبّ المرأة التي تزوّجها، والمرأة تحبّ الرجل الذي تزوّجته. ولا يخطر في بالهما البتّة أن لا يكون ذلك في صالحهما. كانا على يقين أنّ محبّة الأهل ترافقهما في حياتهما. يتحمّلان معاً أثقال الحياة. حلوها ومرّها. ويؤلّفان بجوارهما عائلة مسيحية تعيش بخوف الله. وهذا هو مناخ الرعيّة المارونية.

كان الزوج الماروني يقول لربّه: «والآن يا ربّ أنت تعلم أنّي لا لسبب الشهوة أتّخذ أختي زوجة. وإنّما رغبة منّي في النسل، الذي يبارك فيه اسمك إلى دهر الدهور» (طوبيا ٨/٧).

فالزواج الماروني، صفة لكلّ عقد يعقده الناس، لا عودة عنه. بحيث أنّك إذا قلت «زواجاً مارونيا» يفهم السامع أنّك تعني أمراً لا فكاك منه. فإذا وقع اختلاف بين الزوج والزوجة، كان يسوّى على صعيد العائلة. فالعادات المارونية تشدّ بالزوج والزوجة إلى أن يتحمّلا جروحهما ويبقيا على عهديهما حتى الموت.

لم يكن هناك جامعات ولا مدارس، ومع ذلك فهم الموارنة الديانة المسيحية وعاشوها على بساطتها. وعاشوا الزواج على حقيقته. عرفوا أنّ العائلة هي كنز ثمين فتمسّكوا بها، وضحّوا بكلّ شيء للمحافظة عليها.

وما قاله الأب جيروم دانديني الذي قدم لزيارة الموارنة في سنة ١٥٩٦، موفداً من البابا كليمنتوس الثامن، هو شهادة ناطقة عن أخلاقيات نساء الموارنة إذ قال[٤]: «أما النساء الموارنة فيتّصفن بالآداب والرصانة والتقوى. إنّ الفتاة المارونية مثال الحشمة والآداب. وليس فيها ما ينكر عليها. لا في هيئتها الطبيعية ولا في ملابسها ولا في آدابها ورصانتها. وما

٤. جيروم دانديني. عاد إلى روما في آب ١٥٩٧ بعد زيارته لبنان، وهناك روى تفاصيل رحلته في كتاب بعنوان البعثة البابوية إلى البطريرك الماروني في جبل لبنان بالايطالية، ونُقل إلى الفرنسية بعد وفاته تحت عنوان رحلة إلى الشرق، العام ١٦٧٥. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة دانديني.

نستحسنه نحن في المرأة اللبنانية تفخر فيه المرأة الأوروبية. لا يوجد في هذه البلاد ما يوجب الريبة في سلوك النساء. فلا مومسات. ولا من ذوات الهنات. فلا يسمع فيها ما يندى له الجبين. ولا ما يخجل من ذكره. إنها نعمة خاصة يفاخر بها الشعب اللبناني».

ولكن قبل أن يأتي دانديني ويفحص أمور الموارنة ويشهد لهم، كان الصليبيون قد استغربوا هذه العادات والقوانين لدى الموارنة، يقرّها ويدافع عنها رؤساء الطائفة المارونية، البطريرك والأساقفة والكهنة.

استغرب الصليبيون هذا كلّه وتساءلوا لماذا يهيمن الإكليريكيون على كلّ شيء. لكنهم قبلوه على مضض. غير أنّهم وجدوا أنّ هناك أموراً لا يمكنهم السكوت عنها، كالاختلاف في الليتورجيا، مثلاً.

أوّل هذه الأمور القدّاس. فالقدّاس الماروني هو باللغة السريانية وليس باللغة اللاتينية. وبينما كان الكاهن اللاتيني يقرأ الإنجيل بصوت منخفض وباللغة اللاتينية، كان الكاهن الماروني يقرأه بصوت جهوري وبلغة الشعب. وبينما يغلب الصمت على القدّاس اللاتيني، يظهر القدّاس الماروني قدّاساً شعبياً صارخاً. في القدّاس الماروني لا يسجد الكاهن بل ينحني. في القدّاس اللاتيني كاهنٌ واحد يقيم الذبيحة، بينما في القدّاس الماروني يستطيع كاهنان أو أكثر أن يحتفلوا بالذبيحة الإلهية معاً. المناولة في القدّاس اللاتيني تتمّ تحت شكل الخبز، أما المناولة في القدّاس الماروني فتتمّ تحت شكلَي الخبز والخمر.

كلّ هذه الأمور بسيطة في ذاتها، لكنّها كانت عند الموارنة غيرها عند الصليبيين. فالليتورجيا هي صلاة الشعب المسيحي. وطريقة الصلاة تختلف عند شعب وآخر. إلاّ أنّ هذه الأمور البسيطة كانت عظيمة في نظر الصليبيين. وكان ما يشاهدونه عند الموارنة يجعلهم حيارى. فهذا «الشعب الذي كان يعيش في قرى صغيرة وفقيرة، في بيوت واطئة لا طاولات فيها ولا موائد ولا كراسي، بل حصائر وبسط. لا يستعمل المناشف ولا السكاكين ولا الشوك عند الأكل. وليس له أسرّة ولا شراشف. ولكنه يجلس على الحصائر والبسط. وعليها يأكل وينام» (دانديني).

كان هذا الشعب شعباً مؤمناً. ينسى نفسه ويعمل إرادة الله. وعندما كان يأتي إلى الكنيسة، كان يحمل إليها أتعابه وآلامه وهمومه. كان يتصرّف في الكنيسة كما في الحقل وكما في البيت، ببساطته وطريقته العفوية. كان في الكنيسة، الرجل الذي شقّق المحراث يده. والمرأة التي تحمل طفلها الصغير على زندها وفي قلبها هموم عائلتها وشجونها. وكان الشيخ الذي أحنت السنون ظهره. والشيخة التي تستند على عكّازها من جهة، وعلى حفيدها من جهة ثانية. وكان هناك الأولاد. هذا يصرخ وهذا يضجّ. لم يكن في الكنائس مقاعد ولا كراسٍ. فكان هذا يستند إلى الحائط وذاك على عكّازه. وكان هذا يتنهّد وذاك يتمتم صلوات. وكانوا جميعاً يعلنون إيمانهم بالله ببساطة عفوية نابعة من القلب.

وكان الكاهن على بساطته يذكّر المؤمنين بتعاليم الرب، فيردّد عليهم الأمثال التي أوردها الإنجيل والتي كانوا يختبرونها كلّ يوم. فكان مثل «الزارع الذي خرج ليبذر بذره. وبينما هو يزرع، وقع بعض الحبّ على جانب الطريق، فداسته الأقدام، ثمّ التقطته طير السماء. ووقع بعضه الآخر على الصخر، فما إن نبت حتى يبس، لأنه لم يجد رطوبة. ومنه ما وقع بين الشوك، فنمى الشوك معه فخنقه. ومنه ما وقع على الأرض الطيبة، فنبت وأثمر مائة ضعف» (لوقا ٨/ ٤-٨).

وكان مَثَل «مَن يمضي إلى صديق له نصف الليل، ويقول له: يا أخي، أقرضني ثلاثة أرغفة، فقد وفد عليَّ صديق من سفر، وليس عندي ما أضيفه» (لوقا ١١/ ٥-٨).

وأيضا مَثَل التينة التي لا تثمر: «كان لرجل تينة مغروسة في كرمه، فجاء يطلب ثمراً فلم يجد. فقال للكرّام: إنّي أجيء منذ ثلاث سنوات إلى تلك التينة، أطلب ثمراً عليها فلا أجد، فأقطعها لماذا ندعها تعطّل الأرض؟ فأجابه: سيّدي دعها أيضاً هذه السنة، حتى أقلب الأرض من حولها وأسمّدها. فإمّا تثمر في العام المقبل وإمّا اقطعها» (لوقا ١٢/٦-٩).

ومَثَل حبّة من خردل «أخذها رجل وألقاها في بستانه. فنمت وصارت شجرة تستظلّ طير السماء في أغصانها» (لوقا ١٢/١٨-١٩).

كانت هذه الأمثال في متناول الشعب، وتعني كلّ واحد بمفرده. ففهمت الرعيّة أنّ

يسوع يطلب منها أن تتساند وأن تتغلّب على الخطيئة وترتفع إلى حدّ التشبّه بابن الله. لم يكن الشعب دخل المدرسة، لكنّه كان فاهماً سرّ الخلاص، واعياً ما يعلّمه الإنجيل والطقوس.

الليتورجيا المارونية هي ليتورجيا شعب يعيش في الجبال ويعمل في الأرض. فكانت في متناوله تساعده على أن يشهد لإيمانه بربّه ببساطة، لكن بقوّة وعزم. وعندما كان الكاهن الماروني يقول: «نجّنا يا ربّ من كلّ الشرور الماضية والحاضرة والمستقبلة، بصلوات والدتك وقدّيسيك، لنصعد لك المجد...»، كانت الكنيسة تضجّ بالتنهّدات وبترداد هذه الصلاة. كانت الأيدي ترتفع ضارعةً مستغيثة. وعندما كان الكاهن يرفع القرابين ويقول: «الأقداس للقدّيسين بالنقاوة والطهارة والقداسة»، كان يتكرّر الأمر عينه فيقول الشعب من خلال التنهّدات والآهات: «آب واحد قدّوس. ابن واحد قدّوس. روح واحد قدّوس. تبارك اسم الله. انه واحد في السماء والأرض له المجد إلى الأبد».

كان تاريخ الخلاص يمرّ بكامله أثناء القدّاس الماروني: تعاليم يسوع. دعوته إلى المحبّة. موته. قيامته من بين الأموات. صعوده إلى السماء. جلوسه عن يمين الآب. وكان الشعب يعي كلّ هذه الحقائق، ويشترك اشتراكاً فعلياً فيها بطريقته العفوية، بحيث يظهر القدّاس أنّه عمل يقوم به الكاهن والشعب معاً. وكان الشعب يعود من القدّاس وقد استمدّ نشاطاً وهمّة، قويّ الإرادة، مستعداً أن يتحمّل مسؤولياته بإخلاص وهمّة أعظم.

لم يكن الصليبيون يعون هذه الناحية الإيجابية من القدّاس الماروني، بل الناحية الشكلية فيه. كان جوّ القدّاس الماروني الذي لا مجال للصمت فيه، يختلف تماماً عن جوّ القدّاس اللاتيني، إلى درجة أنّ الصليبيين كانوا يتساءلون هل الموارنة هم حقّاً مسيحيون كاثوليك. وقد أخفى الصليبيون هذا الأمر عندما كانوا بحاجة إلى الموارنة. لكنّهم بعد أن عادوا إلى بلدانهم، خرجوا من صمتهم فظهر الخلاف الجوهري علناً بينهم وبين الموارنة.

قبل أن يعود الصليبيون إلى بلدانهم ويشنّ بعضهم حملة على الموارنة، كان هؤلاء قد طرحوا الأسئلة حول مجيء هؤلاء الأوروبيين إلى الشرق وحول سياستهم فيه، فانقسموا تجاههم قسمين. قسمٌ أيّد الصليبيين وقسمٌ عارضهم. ففي سنة ١١٣٧ «انطلق بزدراش

باشا التركي، أمير حلب، من بعلبك نحو مقاطعة طرابلس الفرنجية. فسلّم مسيحيو الجبل ممرّات جبل بشرّي لبزدراش، ورافقوه حتى سهول طرابلس. وكانت النتيجة أن انكسر الفرنج وقتل أمير طرابلس بونس، ولما خلف ريموند أباه بونس، انتقم من السريان نصارى الجبل، فاعتقل الذين منهم عاونوا قتل أبيه مع نسائهم وأولادهم، واقتادهم إلى طرابلس حيث أعدمهم» (كتاب المؤرخ رينيه غروسيه من الأكاديمية الفرنسية ملحمة الحروب الصليبية، صفحة ٦٩-٦٧).

لقد أعطى الموارنة الصليبيين الكثير وأخذوا منهم الكثير. بفضل الصليبيين خرج الموارنة من عزلتهم «وانتشر دين النصرانية في بلاد الشرق...». لكن ما أخذه الموارنة من حرية بفضل الصليبيين عاد عليهم بالويل، وجعل أعداء الصليبيين أعداء الموارنة. وعرف الموارنة من جرّاء ذلك الحروب والاضطهادات. فقد اجتاحت جحافل المماليك بين سنتَي ١٢٦٠ و١٣٠٣ سوريا ولبنان وأنزلت بالناس جميع أنواع التقتيل والتشرّد والتعذيب. هدمت المنازل وأحرقت الجنائن وخلّفت الدمار والخراب. ولم يكتف المماليك بهذا فقط، فقد فرضوا القيود القاسية على اليهود والمسيحيين. فأجبروهم أن يلبسوا ألبسة تميّزهم عن سائر الناس ومنعوهم من ركوب الخيل والبغال.

كان الموارنة يقطنون الجبال العالية. وكانت بوعورة مسالكها تقف سدّاً منيعاً في وجه المعتدين. لكنّ الحقد والكراهية اللذَين ولّدتها الحروب الصليبية على النصارى في وجه عام، وعلى الموارنة حلفاء الصليبيين في وجه خاصّ، دفعا هؤلاء المماليك إلى ملاحقة الموارنة أينما كانوا. قال الدويهي: «ففي شهر حزيران سنة ١٢٨٣، سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبّة بشرّي، فصعدوا في وادي حيرونا إلى جبّة إهدن... فحاصر العسكر إهدن حصاراً شديداً، في شهر حزيران، فملكوها ونهبوا وقتلوا وسبوا، ثم دكّوا على الأرض القلعة التي كانت على الجبل الذي وسط إهدن. وهدموا الحصن الذي كان على الجبل العالي. ثم انتقلوا إلى بقوفا ففتحوها في شهر تموز، وقبضوا على أعيانها وأحرقوهم كلّهم بالبيوت، وبعدما نهبوا وسبوا أهلها ودكّوها إلى الأرض.

«وفي الثاني والعشرين من آب انتقلوا إلى الحدث فدخل أهلها إلى العاصي وهي مغارة جميلة منيعة، فثبت عليها الحصار مدة سبع سنين، ثمّ في الأمان تسلّم أهلها فأحرقوا إمارتها بالنار وقتلوا من قتلوا وسبوا النساء والدراري.

«وقيل إنّ البرج الذي كان في حوقا عجز الجيش عن أخذه فأشار إليهم ابن الصبحا من كفرصغاب بجرّ نبع بشرّي وتركيبه عليه، فملكوه بقوّة الماء ودكّوه، ولأجل ذلك أذنوا لابن الصبحا أن يلبس باش أبيض وبقية العبيد لخدمته. ثم إنّه تاب عن سوء فعله ورجع، وعمّر دير حوقا قرب البرج...» (الأزمنة، صفحة ٢٦١).

الارتباط بروما

أهمّ ما خلّفه الصليبيون للموارنة هو أنّهم أتاحوا لهم الاتّصال بروما، كنيستهم الأمّ. وقد اغتبط الموارنة للأمر وصلّوا كي يبقى التواصل قائماً.

كانت الكنائس الشرقية تعتبر أن للبابا حقّ الرئاسة على كلّ الأساقفة، وفي الوقت عينه كانت تجد تدخّله في أمورها تطفّلاً. أمّا الموارنة فأكّدوا في كلّ مراحل تاريخهم، أنّ أسقف روما هو رئيس الكنيسة في مجملها. دافعوا عن هذه الحقيقة، وكان نصيبهم جرّاء ذلك الاضطهادات والمجازر.

مرّت حوادث كثيرة جعلت الموارنة في حصار دام أكثر من ثلاثمئة سنة. فهل تغيّر موقفهم خلال تلك السنين؟

ظلّ الموارنة على أمانتهم للكنيسة، وكان هرمزداس آخر بابا تواصلوا معه قبل أن ينقطعوا عن العالم (ما بين ٥١٤-٥٢٣)، وقد أثنى على أعمالهم وشجّعهم على المضيّ في الدفاع عن الإيمان بعد المجزرة التي ذهب ضحيّتها ٣٥٠ شهيداً.

مَن جاء بعد هرمزداس على كرسيّ بطرس؟ وما هو عدد البابوات الذين لم تسمح الظروف للموارنة بالتواصل معهم؟ ليس في تاريخ الموارنة ما يدلّ على أنّهم كانوا يعلمون بالمتغيّرات، لكن ما هو جليّ لديهم أنّه أياً كان اسم البابا وشخصيته، فهو خليفة القدّيس بطرس، وهو رئيس الكنيسة. ظلّ الموارنة في فترة الانقطاع بينهم وبين روما من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر، يذكرون البابا في صلواتهم ويكنّون له المحبة. ولمّا أتيح لهم لاحقاً أن يتصلوا بروما، شعروا بفرح عظيم. فوجّه البطريرك يوسف جرجس

(١١١٠-١١٢٠) كتاباً إلى البابا يؤكّد له فيه خضوعه وإخلاص طائفته. وكان هذا قاطناً في قرية يانوح وأنّ قصّاده وصلوا إلى رومية مع قصّاد الملك جوفروا. وإنّه قبل التاج والعصا من صاحب الكرسيّ الروماني مع التثبيت»[٥].

أبلغ البطريرك البابا في رسالته أنّ الموارنة لا يزالون على أمانتهم للكنيسة، وأنّ الإيمان الذي بشّر به القدّيس بطرس عندما كان أسقف أنطاكيا، لا يزال إيمانهم، على الرغم ممّا لاقوه من اضطهاد ومجازر. وأطلعه، أنّه عملاً بهذه الروح، وحفاظاً على وديعة الإيمان بعد أن تعرّضت للخطر، فقد حزم الموارنة أمرهم فنصّبوا في سنة ٦٨٧ بطريركاً عليهم.

كانت الرسالة بين لبنان وروما تستغرق ثلاث سنوات. وفي حين كانت رسائل البابا تحمل عبارات التأييد والرعاية، كانت رسائل البطريرك موشّحة بالطاعة والمحبّة. في سنة ١٢١٣ «ركب البطريرك إرميا العمشيتي البحر وقام بذاته بزيارة الأعتاب الرسولية، وكانت زيارته تلك الأولى من نوعها في تاريخ البطريركيات الشرقية. وفي أثناء الزيارة اشترك البطريرك في المجمع اللاتراني الرابع». ووجّه إليه البابا مع درع التثبيت، البراءة المسطّرة فيها هذه السطور: «بعد أن وافقنا على التقاليد المرعيّة حتى اليوم في الكنيسة الأنطاكية لصالحكم وصالح أسلافكم نمنحكم درع التثبيت» (المطران مخايل ضومط. رابطة الأخويات. ١٩٥٥).

لم ينقطع الاتصال بروما. وإذا كان أسقف روما هو خليفة بطرس الذي أقامه يسوع رئيساً لكنيسته، فكيف يمكن للموارنة ألاّ يتواصلوا معه؟ أليس هذا هو الخطّ الذي ساروا عليه منذ القديم والذي رسمه لهم القدّيس مارون؟

على رغم ذلك، لم يحل الارتباط بروما دون تعرّض الموارنة للشدائد. فبعد أن أيّدوا مقرّرات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، انقضّ عليهم اليعاقبة وقتلوا منهم المئات. وكان أن ناصبوهم العداء، فاعتبروهم «نصوب الكرم الخلقيدوني» و«فروع كرم لاون»، وهم

٥. **سلسلة بطاركة الطائفة المارونية** للبطريرك اسطفان الدويهي، صفحة ٢١. نشرها المعلم رشيد الشرتوني سنة ١٩٠٢. سنكتفي بالإشارة إلى هذا الكتاب بكلمة **سلسلة البطاركة**.

يقصدون لاون بابا روما الذي اعتمد آباء المجمع على رسالته لهم لتحديد العقيدة.

عرف الموارنة الصعاب والتحديات عبر الأجيال بسبب ارتباطهم بروما، لكنّ أياً منها لم تكن لتثنيهم عن تشبّثهم بالأرض. فافترشوا الصخور والوديان والتحفوا الكهوف. كما أنّ مواجهتهم الويلات لم تضعف لديهم يوماً عشقهم للحرّية. أمّا ذلك الشغف الكامن في حنايا إيمانياتهم تلمّساً لحقيقة الله، فأعلنوه جهاراً وما حادوا عنه. وتابعوا الطريق. ولم يتخلّوا البتّة عن الانفتاح، وهو الطريق التي أدخلهم التاريخ ووضعهم على مستوى العالم كلّه.

من كهف إلى كهف

عصر المماليك هو زمن ذاق فيه الموارنة الأمرّين، وقد أصاب بطاركتهم منه النصيب الأكبر. فكان الواحد منهم يُهان. والثاني يُحمَل على الانتقال القسري. والثالث يُساق إلى المحاكمة. والرابع يقاوم، والخامس يُحرَق حيّاً.

إلاّ أنّ ذلك كلّه لم ينل من عزائم البطاركة الموارنة، ولم يضعف من عضد الشعب الماروني. كان هذا الشعب كلّما تكاثرت عليه المحن، وتعاظمت الشدائد، وسُدّت في وجهه السبل، وادلهمّت الآفاق، ازداد رسوخاً في الإيمان ورفضاً للخنوع وتعلّقاً بالحرّية.

لم ييأس الشعب الماروني، ولم يرضخ بطاركته الذين كانوا قد واجهوا العديد من الشدائد قبل زمن المماليك أيضاً. ظلّت البطريركية المارونية خمسمئة سنة واثنتين في منطقة جبيل، من سنة ٩٣٨ إلى سنة ١٤٤٠. وكانت تلك الحقبة من الزمن مرحلة شديدة الحلكة والشقاء في تاريخ الطائفة الشديدة المراس. إذ تعرّضت فيها للاضطهاد والتنكيل، ومورست في حقّ بطاركتها وشعبها أنواع شتّى من الترهيب الروحي والفكري، ومن الإرهاب الجسدي والمادي، مما اضطرّ البطاركة إلى عيش الجلجلة مع المسيح، واجتياز مراحل الوجع، بالنزوح المتواصل من مكان إلى مكان، تفادياً للاضطهاد، وحمايةً للطائفة من التشتّت. فنُقل الكرسيّ البطريركيّ إلى أماكن عديدة وتعاقب عليه ٣٤ بطريركاً، هم حسب كتاب **سلسلة البطاركة** للبطريرك الدويهي، كالآتي:

- يوحنا مارون الثاني
- يوحنا من دملصا

- غريغوريوس
- اسطفان
- مرقص
- اوسابيوس
- يوحنا
- يشوع
- داود
- غريغوريوس
- توافيلكوس
- يشوع
- دومط
- اسحق
- يوحنا
- سمعان
- يوسف الجرجسي (١١١٠-١١٢٠)
- بطرس (١١٢١-١١٣٠)
- غريغوريوس من حالات (١١٣٠-١١٤١)
- يعقوب من رامات (١١٤١-١١٥١)
- يوحنا (١١٥١-١١٥٤)
- بطرس (١١٥٤-١١٧٣)
- بطرس من لحفد (١١٧٣-١١٩٩)
- ارميا من عمشيت (١١٩٩-١٢٣٠)
- دانيال من شامات (١٢٣٠-١٢٣٩)

- يوحنا من جاج (١٢٣٩-١٢٤٥)
- شمعون (١٢٤٥-١٢٧٧)
- دانيال من حدشيت (١٢٧٨-١٢٨٢)
- ارميا من دملصا (١٢٨٢-١٢٩٧)
- سمعان (١٢٩٧-١٣٣٩)
- يوحنا (١٣٣٩-١٣٥٧)
- جبرايل من حجولا (١٣٥٧-١٣٦٧)
- يوحنا (١٣٦٧-١٤٠٤)
- يوحنا من جاج (١٤٠٤-١٤٤٥)

وقد اضطرّ معظم هؤلاء البطاركة إلى أن يختفوا في البراري، فانتقلوا من كهف إلى كهف، ومن مغارة إلى مغارة، ومن مخبأ إلى مخبأ، طريقهم واحد، هو الجلجلة، وغايتهم واحدة: الانتصار بالمسيح.

وبدل أن يشعر الموارنة بالهلع من جرّاء الاضطهاد، وبدل أن يطمروا رؤوسهم في الرمال، ويتقرّبوا من قوى الاستبداد، اتقاءً لشرّها، التفّوا حول بطريركهم، يشدّون أزره، ويقدحون من صلابته الروحية شرراً ينير أمامهم الدروب في الظلمات الدامسة.

كان كرسيّهم أولا في كفرحي من أعمال البترون، حيث أقام ثلاثة بطاركة، هم يوحنّا مارون وقورش وجبرائيل. ثم انتقل الكرسيّ البطريركيّ إلى يانوح حيث استمرّ من سنة ٩٣٨ إلى سنة ١١٢٠. وتعاقب عليه سبعة عشر بطريركاً، هم: يوحنّا مارون الثاني، يوحنّا من دملصا، غريغوريوس، إسطفان، مرقس، أوسابيوس، يوحنّا، يشوع، داود، غريغوريوس، توافيلكس، يشوع، دومط، إسحق، يوحنّا، سمعان، ويوسف الجرجسي الذي أهدى إليه البابا تاجاً وعصا.

ثم نُقل الكرسيّ البطريركيّ في المرّة الثالثة إلى ميفوق، حيث أقام ثلاثة بطاركة، هم بطرس وغريغوريوس الحالاتي ويعقوب الرامي الذي كتب بخطّ يده «لما كان تاريخ سنة

١٤٥٢ لليونان في شهر تموز المبارك، في عشرة أيام مضت منه، حضر إليّ أنا بطرس بطريرك الموارنة والجالس على الكرسيّ الأنطاكيّ باسم يعقوب من قرية رامات، من أعمال البترون، الولد الراهب دانيال من رهبان دير مار كفتون. وقد أعطيته سلطاناً من الله ومن حقارتي بأن يكون رئيساً ومدبّرا على دير مار يوحنّا الكوزبند في جزيرة قبرص المحروسة» (سلسلة البطاركة، صفحة ٢٢).

نُقل الكرسيّ في المرّة الرابعة إلى لحفد حيث استقرّ يوحنا اللحفدي، صاحب الناقور المعروف باسمه، وهو الذي نقل الكرسيّ في المرّة الخامسة إلى هابيل.

ثمّ انتقل الكرسيّ البطريركيّ في المرّة السادسة إلى يانوح من جديد في رئاسة البطريرك إرميا العمشيتي، سنة ١٢٠٩. حضر المجمع اللاتراني وكان أوّل بطريرك ماروني يزور حاضرة الفاتيكان سنة ١٢١٣، وأرسل إليه البابا زخيا الثالث الرسالة الشهيرة التي يسمّي فيها الكنيسة البطريركية، كنيسة يانوح، ويعدّد الكراسي التابعة لها، أي مطرانية بشرّي وقزحيا وأسقفيات المنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقة.

ذكر إبن القلاعي أنّه لمّا كان البطريرك أرميا يقدّس في حضرة البابا وانتهى إلى رفع القربان، بقيت «الشيلة» معلّقة في الهواء فوق رأسه، فذُهل البابا وأمر بنقش صورة تذكارية لهذه الآية على جدار كنيسة القدّيس بطرس القديمة، شاهدها الدويهي حين كان طالباً في روما.

ونُقل الكرسيّ البطريركيّ في المرّة السابعة إلى كفيفان حيث جلس دانيال الشاماتي، وهو الذي نقل الكرسيّ في المرّة الثامنة إلى كفرحي. ومنها، في المرّة التاسعة، إلى الكفر من أعمال جبيل.

ثمّ انتقل الكرسيّ البطريركيّ في المرّة العاشرة إلى يانوح مجدّداً، حيث استقرّ يوحنّا. وبعده سمعان الذي وجّه إليه البابا اسكندر الرابع في تاريخ أوّل شباط ١٢٥٦، رسالة ذكر فيها الكنيسة البطريركية في يانوح.

ثمّ انتقل الكرسيّ البطريركيّ في المرّة الحادية عشرة إلى ميفوق، حيث استقرّ البطريرك

يعقوب الذي في أيّامه اجتاحت عساكر المماليك لبنان. وبعده دانيال الحدشيتي الذي قاد بنفسه رجاله سنة ١٢٨٣ طوال أربعين يوماً، وقاوم جيوش المماليك عندما زحفت على جبّة بشرّي، واستطاع أن يوقف الجيوش أمام إهدن أربعين يوماً. ولم يتمكّنوا منها إلاّ بعد أن أمسكوا البطريرك بالحيلة. في هذا الصدد قال المؤرّخ ابن الحريري: «لقد تجبّر البطريرك الحدشيتي واستطال وتكبّر واستغوى أهل تلك الجبال وتحصّن فيها وشمخ بأنفه فقصده التركمان، واحتالوا عليه فأمسكوه. وكان إمساكه فتحاً عظيماً، أعظم من افتتاح حصن أو قلعة. وقانا الله شرّه».

بعد دانيال، استقرّ في كرسيّ ميفوق إرميا من دملصا الذي كتب بخطّ يده: «في اليوم التاسع من شباط سنة ١١٧٩ أنا الحقير ارميا من دملصا المباركة، أتيت إلى دير سيّدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليج إلى سيّدنا بطرس بطريرك الموارنة ورسمني بيديه المقدّستين مطراناً على دير كفتون المقدّس، الذي على ضفّة النهر وبقيت هناك أربع سنوات. وبعد انقطاع السنين الأربع طلبني أمير جبيل والأساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة، وألقوا قرعة فأصابتني، وصيّروني بطريركاً في دير حالات. ثم أرسلوني إلى مدينة رومية العظمى وتركت أخانا المطران تاودوروس يدير الرعيّة ويهتمّ بشؤونها» (دريان، صفحة ٨٥).

في أيّام البطريرك إرميا حصلت المعركة بين المماليك وأهالي منطقة جبيل في الفيدار. وقد ذكرها الدويهي قائلاً: «لأنّ أهل كسروان والجردين نزلوا إلى نجدة الفرنج، أمر حسام الدين لاجين نايب دمشق، أن يجمع العساكر الشامية ويزحف إلى استئصالهم... وكتب إلى الأمير جمال الدين صبحي بن محمّد التنوخي والى زين الدين ابن علي... وأمر أن من نهب امرأة منهم كانت له جارية، أو صبيّاً كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم رأساً فله دينار. وأنّ سنقر توجّه لاستئصال شافتهم ونهب أموالهم وسبي أنفسهم» (سلسلة البطاركة، صفحة ٢٦٥).

وقال الأسقف ابن القلاعي في الإطار عينه، إنّه كان متولّياً على كسروان الأمير حنا الماروني، «فلما نظر الملك حنا أن قلوب المسلمين قويت بفتح طرابلس، ومات البرنس،

طلب الهدنة من المسلمين... ثمّ إنّه في هذه السنة هيّا مراكب في الليل واوسقهم من الناس والبهائم إلى جزيرة قبرس وبلاد النصارى، وقبل أن يدخل البحر أشعل النار في أربعة أقطار جبيل. ثمّ إنّه جاء في أثره فجأة العسكر الإسلامي... فدقّ أهل الجبال النواقيس وطرحوا الصوت... فاجتمع ثلاثون مقدّماً، ومن جملتهم المقدّم خالد مقدّم مشمش، وسنان وسليمان أخوه مقدّما ايليج، وسعادة وسركيس مقدّما لحفد، وعنتر مقدّم العاقورة، وبنيامين مقدّم حردين وبرفقتهم المقدّمون الآخرون. فأقاموا ألفي مقاتل ليخفروا الدرب عند الفيدار، وألفين آخرين عند المدفون (وكان يدعى وادي حربا وعرف من يومها بوادي المدفون لكثرة ما دفن فيه من قتلى المماليك. وكان اسم وادي حربا أخذ من المعركة التي جرت نحو سنة ٦٩٣ بين الموارنة المتحصّنين في قلعة سمار جبيل والجيش البيزنطي) ونزل المقدّمون مع ثلاثين ألفاً، فوجدوا حميدان قائد عسكر المسلمين في الطريق منفرداً فقتلوه، ثمّ هجموا على العسكر فقتلوهم عن آخرهم، لأنّ الذين هربوا وقعوا في يد الذين كانوا كامنين على الطريق. وكانت قد جاء المسلمين النجدة من الأكراد الذين كانوا في الفيدار فالتقوهم وقتلوهم، ولم يخلص منهم أحد. وقتل في هذه المعركة بنيامين مقدّم حردين. فدفنوه عند باب الأركان. وحزن لأجله العسكر حزناً عظيماً، ولم يدقّوا الطبول ولا يزعقوا بالأبواق... ثمّ إنّهم غنموا غنائم وأخذوا أسلحة القتلى وأمتعتهم، وعادوا ليلاً إلى البترون. ومن هناك صعدوا إلى معاد ليقتسموا المغانم على عدد المقدّمين. فصار أن عنتر العاقوري أخذه الطمع... وإذا لم يعتبر قدّمت الشكايات به إلى قدس البطريرك الذي كان ساكناً في بلاد البترون بدير مار يوحنّا مارون كفرحي، وإذ لم يطع ولا يعتبر، حرمه السيد البطريرك، وفي اليوم الثالث مات».

شهدت سنة ١٣٠٢ أفظع حملة تنكيل جرّدها المماليك بشكل لم يعرفه التاريخ الماروني من قبل. ووجهت الحملة بقيادة المقدّمين: خالد مقدّم مشمش، سنان وأخوه سليمان مقدّما إيليج، سعاده وسركيس مقدّما لحفد، عنتر مقدّم العاقورة، وبنيامين مقدّم حردين. وعند مدخل جبيل كانت الموقعة الرهيبة التي قتل فيها حمدان قائد جيوش المماليك.

يضيف الأسقف ابن القلاعي أنّه بعد إرميا الذي قطن آنياً كفرحي فيما كان كرسيّه في ميفوق، استقرّ في ميفوق يوحنّا وجبرايل من حجولا الذي استشهد في طرابلس. «ففي سنة ١٣٦٧ كان على الكرسيّ الأنطاكيّ جبرائيل، واستتر زمن الاضطهاد في قريته حجولا، من أعمال جبيل. فكتب نايب دمشق إلى نايب طرابلس. وعندما علم هذا أن البطريرك في حجولا، قبض على أربعين رجلاً من هذه القرية وأمرهم بإحضاره. فأحضروه وأمر بحرقه في أول نيسان خارج طرابلس عند جامع طيلان... وقبره لا يزال في باب الرمل أول مدخل طرابلس».

لخّص البطريرك الدويهي ظروف استشهاده بالآتي: «أغار ملك قبرص الصليبي على الاسكندرية، فأمر سلطان مصر نائبيه في الشام وطرابلس بالانتقام من الموارنة وبطريركهم من دون ذنب اقترفوه. فقبض نائب طرابلس على ٤٠ رجلاً مارونياً بعضهم من حجولا قرية البطريرك، مرغماً البطريرك الماروني على الاستسلام، فسلّم ذاته لإطلاق سراح المحتجزين. وما إن تسلّمه نائب طرابلس حتى أمر بإحراقه خارج المدينة في محلة طينال، وكان ذلك في الأول من نيسان ١٣٦٧».

ثمّ انتقل الكرسيّ البطريركيّ في المرّة الثانية عشرة إلى حردين وهناك أقام داود الملقّب بيوحنّا من سنة ١٣٦٧ إلى سنة ١٤٠٤. وفي أيّامه صار جوع وضيق. «في سنة ١٤٠٢ جاء فناء حتى بقي كثيرون بدون دفن. وصار غلاء حتى مات أناس كثيرون من الجوع، وأبصر الناس ضيقاً وشدّة وهمّاً وجوعاً وحزناً وبلاء، لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة. وقبل ذلك بسنة خرج من المشرق تمرلنك من مدينة سمرقند بعساكر متوافرة، وسبى وأحرق وضرب وأسر أناساً كثيرين. ولم يشهر أحد في وجهه سيفاً، وعاد إلى بلاده بغنائم جزيلة. وفي سنته ظهر الجراد في ٢٩ من آذار وأكل الزرّيعة، وبقيت الأرض كما كانت في الكوانين. ثم أكل الزروع، وحملت الكروم حملاً زايد. وفي ١٢ من أيار طلع الزحاف فارتعى الزروع والكروم والعروق والأثمار والأشجار حتى الأحراج والغابات...» (سلسلة البطاركة، صفحة ٣٣٨).

في أيّام البطريرك يوحنّا هذا، انتقل الكرسيّ البطريركيّ إلى ميفوق حيث أقام فيه من

سنة ١٤٠٤ إلى سنة ١٤٤٠ لينتقل بعدها إلى وادي قنّوبين.

كانت الجلجلة المارونية في بلاد جبيل شاقّة ومضنية، وقد اجتازها البطاركة الموارنة مرحلةً مرحلة، من دون أن يخامرهم شكٌّ في أنّ كنيستهم ستشهد القيامة مع المسيح القائم من بين الأموات. يكفي أن يعرف الشعب الماروني كم ذاق بطاركته من العذاب في أيّام المحن، وأيّة أخطارٍ كانت تعترض حياتهم، وهم يرعون الأمانة البطريركية، ويحفظون الوديعة من الوقوع في أيدي المضطهِدين، أصحابُهم الغيوم الملبّدة بالهموم والهواجس، ونجوم الليل، والزمهرير، والعواصف، وتجشّم الأهوال في القفار والوهاد والجبال، سيراً على الأقدام، في بلاد جبيل، طلباً للإيمان والكرامة والحرية.

إنّ تاريخ الطائفة المارونية في منطقة جبيل هو تاريخ بطاركة تألّموا وجاعوا وسهروا وكتبوا مستضيئين بوهج الورع الديني، وصلّوا وصاموا و«هاموا على وجوههم، لباسهم جلود الغنم وشعر المعز، محرومين مقهورين مظلومين، لا يستحقهم العالم، وتاهوا في البراري والجبال وكهوف الأرض» (عبرانيون ١١/ ٣٣).

لكنّهم ظلّوا واعين مسؤولياتهم، حاملين على أكتافهم هموم الرعيّة وآلامها. فاستمرّوا يكرزون ويعلّمون الشعب ويرسلون كهنةً لخدمته. وبقوا يدافعون عن الإيمان ويضحّون بكلّ شيء في سبيل المحافظة عليه. يخلفون أحدهم الآخر، ليبقى المشعل الذي حمله القدّيس مارون مضيئاً ساطعاً.

وعى أبناء مارون هذه الحقيقة، وخصوصاً عندما كانوا يقولون في القدّاس «وطِّد اللهمّ في نفوسنا كلّ وقت إيمانهم الذي لا غشّ فيه. وثبِّت فينا تدابيرهم القويمة. ورسِّخ في عقولنا استقامة الشرائع التي علّمونا إياها، ولا سيّما مَن احتملوا لأجل ثبات كنيستك المقدسة كلّ عذاب واضطهاد. ومَن سكبوا من عيونهم مجاري الدموع لأجل خلاصنا نحن الخطأة. حتى إذا سلكنا في آثارهم، تضيفنا إلى شركة مصافهم السعيد، ونرتّل لك معهم المجد البهي بكلّ نقاوة ولابنك الوحيد وروحك القدوس. الآن والى أبد الآبدين» (القداس الماروني، نافور القديس مرقس).

عندما كان الموارنة يقولون ذلك، كانت أفكارهم تعود إلى هؤلاء البطاركة القدّيسين. فكانوا يذكرون ما عانوه في دروب كفرحي ويانوح وميفوق وهابيل، وأيّة مشقّات تحمّلوا، لكي يبقوا الرعيّة على أمانتها للكنيسة، وفي محبّتها ليسوع المسيح.

لم تنقطع سلسلة البطاركة، ولم تتوقّف عن خدمة الرعيّة. وإذا لم يستطيعوا أن يوفّروا الأمان للشعب كلّ حين، إلاّ أنّهم ظلّوا موجودين يحاولون أن يؤدّوا ما في وسعهم من خدمات وتعزيات ومؤاساة. ظلّوا يحاولون أن يرفعوا قلوب المؤمنين إلى فوق، وقد عرفوا أن يعطوا شعبهم المثل في الصبر والتضحية.

إنّ شعباً هؤلاء هم بطاركته، لا بدّ أن يتمكّن من عيش مرحلة وادي الدموع، ابتغاءً للخلاص والقيامة، عارفاً أن لا خلاص ولا قيامة إلاّ باقتفاء خطى المسيحيين الأوائل في الشهادة للمسيح، وإنْ بأثمانٍ مفجعة.

وادي الدموع

يوم وصل الصليبيون إلى لبنان، اعتقد الموارنة أنّ عهد المخاوف قد انتهى. فخرجوا من عزلتهم وأخذوا يدقّون الأجراس ويُقبلون إلى الكنائس من دون أن يمنعهم أحد. زادت فرحتهم بعد أن فُتِحت أمامهم الطريق إلى روما. فعرفوا أنّ لهم مرجعاً. ولكن سرعان ما تبدّدت آمالهم، فصعقوا واضطرّوا إلى أن يعودوا إلى المغاور والكهوف من جديد. عرفوا أن الحياة المسيحية لا تخلو من الصليب، وأنّ هذا الوادي هو وادي دموع.

إلاّ أنّه كانت لشدائدهم نتائج إيجابية. فتعمّقوا في فهم الإنجيل وعاشوا حياتهم المسيحية كما يليق بالتلاميذ الحقيقيين. كان معظم الأهالي مزارعين يشتغلون الأرض أو يربّون المواشي. وكانت الأرض تقدّم لهم كلّ ما يحتاجون إليه من حبوب وخضر وفاكهة، وتقدّم المواشي الحليب واللحم والصوف. كانوا يصنعون من الحليب أجباناً، ومن الفاكهة حلويات، ومن اللحم دهناً وسمناً. كانت القرية مملكة في حدّ ذاتها، تكفي نفسها بنفسها. لا يتركها أبناؤها إلاّ نادراً. وكان الكاهن يقوم بدور المربّي والراعي. يوزّع الأسرار ويعلّم تعاليم الله. ومتى اطّلع المؤمنون على تعاليم الله وعملوا بها، حقّقوا إرادته وبسطوا ملكوته.

إنّ الرعيّة المارونية هي حياة شعب جعل الله سكناه فيه. وإذا أردنا أن نعرف كيف عاش الموارنة في رعاياهم، يمكننا أن نقرأ كتاب أعمال الرسل. إنها توأمة كاملة لرعيّة أورشليم. هناك، كان المسيحيون «يتابعون تعليم الرسل والحياة المشتركة وكسر الخبز والصلاة»، وفي بشرّي وإهدن والعاقورة وتنّورين وإهمج ومشمش وبجّه وجاج... كان الموارنة أيضاً «يتابعون تعليم الرسل والحياة المشتركة وكسر الخبز والصلاة».

لقد عرف الموارنة في أجيال الاضطهاد أن يكونوا شعباً مختاراً ورعيّةً مقدّسة، وعرفوا أنّ طريق الخلاص هو طريق الألم، فتبعوا يسوع على درب جلجلته. وفيما كانوا ينتقلون من كهف إلى كهف، ويسمعون يوماً أنّ قرية من قراهم قد دُمِّرت، وفي يوم آخر أنّ بطريركهم قد أُحرِق حيّاً، وفي غيره من الأيّام أنّ أسقفاً من أساقفتهم قد أُوقِف أو أُرسِل إلى المنفى، كانوا يشاركون يسوع في آلامه ويتبعونه في طريق الرجاء. كانوا يحقّقون في ذواتهم سرّ الخلاص متغلّبين على ما يبعدهم بعضهم عن بعض، متّحدين.

وكانت لشدائدهم نتائج إيجابية من نوع آخر. فقد وجدوا في أيام المماليك وما رافقها من محن، درساً قاسياً لمحاسبة أنفسهم. راجعوا تحالفهم مع الصليبيين. ماذا ربحوا وماذا خسروا. عرفوا أنّ ذلك قد أراحهم فترةً من الزمن، لكنّه نغّص عيشهم وجعلهم أمام حائط مسدود. فهموا أنّهم لا يستطيعون أن يتّكلوا على أحد في الأرض، وأن ليس لهم في النهاية غير الله. فإليه عادوا وعلى سواعدهم اتّكأوا. أعادوا النظر في أعمالهم، وارتضوا بالبطريرك مرجعاً لهم في أمورهم الروحية والزمنية. فبرزت قيمة البطريرك، الذي كان يساعده الأساقفة. كما ظهر المقدّمون، يوم قبلوا الدرجة الشدياقية.

لماذا نال المقدّمون الدرجة الشدياقية؟ ألاشتراكهم في العمل الرسولي؟ ترى، هل كان العلمانيون في الطائفة المارونية مبعَدين عن هذا العمل قبلاً؟ ولماذا برزت هذه الفكرة في ذلك الوقت بالذات؟ ألم يكن ذلك بداعي تصحيح وضع شاذّ، واتخاذ خطّ جديد؟

بعد رحيل الصليبيين، عرف الموارنة المجازر والدمار، فكان من الضروري أن يعتبروا، ويطووا صفحة عتيقة ويبدأوا أخرى جديدة. إنّ الشدياقية هي مبادرة تصحيحية. إنّها عهد أخذه الموارنة على أنفسهم بأن يعملوا طبقاً لسياسة تضمن لهم النجاح، وتقيهم السقوط في المعاثر. فجدّدوا اعترافهم بسلطة البطريرك، وارتضوا أن يعمل مقدّموهم بتوجيهاته. وقد نجحت المبادرة. فعرفت الطائفة بعد أيّام المحن أياماً مشرقة وزاهية. قال الدويهي: «ومن أخبار هذا العصر نستدلّ على أنّه في دولة المقدّمين وأحكامهم العادلة، توفّرت الراحة لأهل لبنان. وكثرت عندهم المدارس والكنائس. وكان في قرية حدشيت وحدها

عشرون كاهناً. وفي كنائس بشرّي مذابح على عدد أيّام السنة. وفي الحدث ستمائة زوج بقر. وفي الحارة العليا من إهدن سبعون بغلاً. وقد أحصينا أسماء من كانوا من النسّاخ في ذلك العهد من اطّلعنا على كتبهم فإذا هم ينيفون على مائة وعشرة... وبسبب ما اشتهر به لبنان من الأمن والطمأنينة، قصده الناس من الأماكن البعيدة. مثل أولاد جمعه الذين تركوا عين حليا وسكنوا بشرّي. وأولاد شاهين الذين رحلوا من صدد الشرق وسكنوا حصرون»...

على صعيد آخر، أقبل الموارنة إلى أخوانهم في الشدّة، أي الدروز والشيعة، وارتضوا أن يعملوا معاً في خطٍّ واحد. ظهرت في الأفق بادرة أمل. فتابعوا المسيرة وقلوبهم عامرة بالأمل بمستقبل أفضل.

إنّ وجودهم في وادي الدموع لم يحملهم على اليأس، بل على الرجاء. وإنّ حياتهم الرعوية لم تحملهم على الانكماش على الذات بل على الانفتاح على الآخرين.

وادي الدموع كان معبراً إلى الينابيع الشافية. وقد عرف الموارنة أنّ سؤددهم لا يكون إلاّ بمعمودية الدموع. هي شقاؤهم، لكنّها خلاصهم في الآن نفسه.

وكان عليهم أن يجدّدوا فعل الخلاص هذا، مدى التجارب والدهور، لكي ينعموا بالمسيح.

القسم الثالث

البطريركية المارونية في وادي قنّوبين

من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٨٢٣

لبنان الشمالي

التحف البطاركة في أيّام المحن والشدائد سماء منطقة جبيل مدّة خمسمئة سنة واثنتين.
ومع اشتداد الأخطار، كان عليهم أن يفكّروا في بدائل تكون بحجم التحديات. وحده لبنان الشمالي في جباله الشامخة وواديه السحيق شكّل لهم ذلك العرين المطلوب.

ففي سنة ١٤٤٠، قام حاكم طرابلس التركي بحملة على البطريرك يوحنا الجاجي، فاضطرّ البطريرك إلى أن يلجأ إلى الشمال.

كانت وردت إلى البطريرك دعوة البابا أوجين الرابع إلى حضور المجمع الفلورنسي.
«وبسبب ما كان من مخاوف في ركوب البحر وانقطاع الطرقات، أوفد البطريرك من قبله، فرا جوان، إلى الكرسيّ الرسوليّ. فدخل الأخير إلى مجلس البابا وكان يرئس مجمع فلورنسا، وعاد إلى لبنان حاملاً كتاب التثبيت.

«ولمّا قدم إلى مدينة طرابلس، انحدر الشعب إلى لقائه. فبعث النايب ناس تقبض عليه وعلى رفاقه تلقيهم في السجن، متيقنين، أن ما اجتمعت النصارى في فلورنسا، إلاّ ليعتصموا مع بعضهم بعض على استخلاص بلاد الشام من يد الإسلام. وحين بلغ ذلك إلى مسامع البطريرك الذي كان يومئذ قاطناً في دير سيّدة ميفوق، أرسل ناس من أعيان الطائفة، تزيل هذا الفكر عن النايب، وتقنعه في هبة الدراهم، حتى أخرجهم من الحبس تحت كفالة الحضور.

«فصعد فرا جوان مع رفاقه إلى دير الكرسيّ. وبعدما اطلع البطريرك على مكاتيب اوجانيوس ولبسه درع الرئاسة، سار إلى بيروت وعصى على النايب. ولأجل ذلك حنق

حنقاً عظيماً وأرسل جملة بيارق بطلب البطريرك والكفلاء. وإذ لم يحظوا بهم، سلبوا أرزاقهم، وأحرقوا بيوتهم، وقتلوا كثيرين من الطائفة ومن الرؤساء. والذين توجهوا بطلب البطريرك، نكبوا الدير وقتلوا ناساً من الرهبان، وأخذوا البعض في الجنازير إلى طرابلس. ومنذ ذلك الحين، أخلى البطريرك دير ميفوق، وانتقل إلى جبّة بشرّي تحت حماية المقدّم يعقوب البشرّاني» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢١٠).

أوضح الدويهي في كتابه **موسوعة تاريخ الموارنة: سلسلة بطاركة الطائفة المارونية** قائلاً: «وتكلفت الطائفة من جرّاء ذلك أموالاً كثيرة. ولهذا السبب اضطرّ البطريرك إلى أن ينتقل من دير ميفوق إلى دير سيّدة قنوبين تحت حماية أولاد المقدّم يعقوب» (صفحة ٣٠).

وبعدما طرد المماليك الصليبيين، وسحقوا الموارنة والدروز مخمدين الانتفاضات الداخلية، شرعوا في تطبيق سياستهم الخاصة. فقسموا ممتلكاتهم ستّ نيابات، وجعلوا لبنان ثلاثة أقسام منعاً للوحدة والاستقلال، يتبع كلّ قسم نيابة من النيابات الستّ: من المعاملتين حتى أقصى الشمال يتبع ولاية طرابلس، ومن المعاملتين حتى صيدا يتبع ولاية دمشق، ومن صيدا حتى أقصى الجنوب يتبع ولاية صفد.

ثمّ أخذ المماليك يفرضون الضرائب ويضيّقون على الرعية، الأمر الذي أثار حفيظة الموارنة. فاضطرّوا في نهاية المطاف إلى الرحيل ناحية الشمال ليحافظوا على قدر من الاستقلال الذاتي بقيادة مقدّميهم، واضطرّ معهم البطريرك إلى اللجوء إلى قعر وادي قنّوبين.

في قنّوبين، وبين حنايا جبلَين شاهقَين، وحيث لا يتسنّى للناظر إلى فوق إلاّ مشاهدة القليل من السماء، في هذا الوادي السحيق تحديداً، بما يحمل من خفر ورهبة، والذي لا تصل إليه إلاّ النسور، جعل البطريرك الماروني كرسيّه في إحدى صخوره، ومنه كان يوجّه شعبه، ويقوده، كما كان موسى يقود شعبه في العهد القديم.

ظلَ دير سيدة قنّوبين كرسيّاً بطريركيّاً من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٨٢٣، وأقام فيه أربعة وعشرون بطريركاً:

- يوحنا من جاج (١٤٠٤–١٤٤٥)
- يعقوب من الحدث (١٤٤٥–١٤٦٨)
- يوسف من الحدث (١٤٦٨–١٤٩٢)

في عهده ذاق الموارنة الذلّ ألواناً من قبل المماليك، ما دفع البطريرك إلى بيع أواني الكنائس لتسديد الضرائب عن الفقراء.

- سمعان من الحدث (١٤٩٢–١٥٢٤)

في عهده أرسل البابا لاوون العاشر قاصداً رسولياً سنة ١٥١٥ إلى جبال الموارنة وعاد إلى روما رافعاً تقريراً عن أوضاعهم. وبعد أن إطّلع عليه قداسة البابا، أرسل إلى البطريرك الماروني رسالة أعرب فيها عن فرحه ومما جاء فيها: «... أشكره تعالى الذي بعظم رحمته شاء أن تكون أمّة الموارنة وسط أهل الكفر والبدع مصونة كالورد بين الأشواك، وذلك لمجد إسمه وارتداد غير المؤمنين إلى الإيمان، ...».

- موسى العكاري من الباردة (١٥٢٤–١٥٦٧)
- مخايل الرزي من بقوفا (١٥٦٧–١٥٨١)

كان حبيساً في محبسة مار بيشاي في وادي قزحيا.

- سركيس الرزي من بقوفا (١٥٨١–١٥٩٦)

شقيق البطريرك الأسبق وخليفته في محبسة مار بيشاي. وفي عهده أنشئت المدرسة المارونية في روما سنة ١٥٨٤، ولمع نجم الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير، وجاء الأب جيروم دانديني سنة ١٥٩٦ لتفقّد أحوال الطائفة المارونية وشارك في مجمع قنّوبين الذي عقد أواخر ذلك العام.

- يوسف الرزي من بقوفا (١٥٩٦–١٦٠٨)

ابن شقيق البطريرك الأسبق، والثالث بهذا الاسم. انتخب في حضور الأب دانديني.

- يوحنا مخلوف من اهدن (١٦٠٨–١٦٣٣)

على أثر وفاة البطريرك يوسف الرزّي، لم يتم انتخاب خلف له «بسبب جور الحكّام»

حتى ١٦ تشرين الثاني ١٦٠٨. في عهده بني سنة ١٦٢٤ أوّل معهد إكليريكي في الطائفة المارونية في دير سيدة حوقا قرب إهدن. وبسبب مضايقة حاكم البلاد الكرسيّ البطريركيّ، انتقل إلى بلدة مجدل المعوش في الشوف حيث بنى كنيسة وداراً، وزار صديقه الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير. وبعد تسلّم الأمير ملحم ابن أخت الأمير فخر الدين الحكم، طلب مساعدة البطريرك مخلوف للاعتراف به من قبل الباب العالي. فكتب البطريرك الماروني إلى قداسة الحبر الأعظم مبيّناً فضل المعنيين على الموارنة طالباً منه التدخل لدى حكّام أوروبا لاستعمال نفوذهم لدى الباب العالي لتثبيت الحكم المعني، فكان له ما أراد.

- جرجس عميره من إهدن (١٦٣٣–١٦٤٤)

طلب الأمير فخر الدين مساعدة البطريرك مخلوف والبطريرك عميرة لنيل استقلال البلاد، فساعداه على عقد المعاهدات بينه وبين توسكانا وبعض الدول الأوروبية من خلال قداسة الحبر الأعظم، ووضعا تحت تصرّفه نخبة من الأساقفة والعلماء الموارنة لمساعدته، كالمطران جرجس مارون الإهدني والمطران سركيس الجمري الإهدني والعلاّمة ابراهيم الحاقلاني وغيرهم.

- يوسف حليب من العاقورة (١٦٤٤–١٦٤٨)
- يوحنا البواب من الصفرا (١٦٤٨–١٦٥٦)
- جرجس رزق الله من سبعل (١٦٥٦–١٦٧٠)
- اسطفان الدويهي من اهدن (١٦٧٠–١٧٠٤)

فخر الطائفة المارونية ومن أعظم بطاركتها وإليه يعود الفضل الأوّل في حفظ تاريخها. متخرّج في المدرسة المارونية، وزار خلال عهده معظم الرعايا وفحص الكتب البيعية ودوّن ما وصل إليه فحفظ تاريخ الكنيسة المارونية، وتوفّي برائحة القداسة في ٣ أيار ١٧٠٤ في قنّوبين ودُفن هناك.

- جبرائيل من بلوزا (١٧٠٤–١٧٠٥)
- يعقوب عوّاد من حصرون (١٧٠٥–١٧٣٣)

- يوسف ضرغام الخازن من غوسطا (١٧٣٣–١٧٤٢)
- سمعان عواد من حصرون (١٧٤٣–١٧٥٦)
- طوبيا الخازن من بقعاتة كنعان (١٧٥٦–١٧٦٦)

في مطلع عهده، قرّر الأساقفة المجتمعون برئاسته في دير مار أنطونيوس–بقعاتة إضافة عبارة «وسائر المشرق» إلى لقب البطريرك الماروني القديم «بطريرك انطاكيا».

- يوسف اسطفان من غوسطا (١٧٦٦–١٧٩٣)
- مخايل فاضل من بيروت (١٧٩٣–١٧٩٥)
- فيليبس الجميل من بكفيا (١٧٩٥–١٧٩٦)
- يوسف التيان من بيروت (١٧٩٦–١٨٠٨)

رفض سياسة الظلم والقهر والاستبداد ورفع الضرائب على الفقراء التي يتّبعها الأمير الشهابي، وارتفع صوته مندّداً بما يجري، حتى هدّد الأمير بشير بالحرم الكنسي الكبير إن لم يخفّف ظلمه. فما كان من الأمير إلاّ أن طلب معاونة صديقه القاصد الرسوليّ الذي رفع التقارير إلى الكرسيّ الرسوليّ ضدّ البطريرك. فتنازل عن الكرسيّ البطريركيّ زهداً وقضى بقية حياته متنسّكاً في قنّوبين.

- يوحنا الحلو من غوسطا (١٨٠٨–١٨٢٣)

عاش جميع هؤلاء البطاركة بخوف الله وخدمة شعبه. ولا يزال وادي قنّوبين إلى تاريخه يروي قصة كلٍّ منهم كأنها سيرة قدّيس، ويشهد أنّهم طلبوا الله واكتفوا للعيش بالشيء الزهيد.

كان للمحن التي حلّت بالموارنة وجهها الايجابي. فقد اجتمع شمل الشعب والتفّ حول قادته تحت سلطة البطريرك. فإذا بالموارنة شعب واحد منظّم، وإذا بمقدّم بشري يحكم على المنطقة بكاملها. وإذا بالمنطقة تعرف الهدوء.

عاش الشعب الماروني في الأرض، ومنها. فُرضت عليه الحياة في الجبال والأودية، فذلّل الصخر وأخصبه، وراح يأكل خبزه مغموساً بعرق جبينه. تعب وجاهد وشقى. لكنّه ظلّ

على رغم ذلك غير آمنٍ من غده. فمَن غلّت أرضه شبع، ومَن بخلت أرضه جاع.

وبروحٍ خلاّقة ومتّقدة بالشعور بالمسؤولية الاجتماعية، ابتكر الموارنة حلاً، بحيث لا يجوع أحد منهم ولا يبقى آخر من دون مأوى. فأخذ المتموّلون منهم يوقفون بعضاً من أرزاقهم ويضعونها في تصرّف البطريرك ليوزّعها على المعوزين، فكثرت الأوقاف مع الأيّام، وكانت علامة غنىً روحيّ ونتيجة حياة مسيحية أصلية.

كانت حقوقاً وقفها الشعب الماروني لصالح المسكين والأرملة واليتيم، وذلك قبل أن يعلن البابا لاون الثالث عشر تعليم الكنيسة في الشؤون الاجتماعية في ١٥ أيار سنة ١٨٩١. عاش الموارنة بوحي هذا التعليم قبل أن يصدره البابا، وعملوا بروحه.

تألّق الموارنة روحياً واقتصادياً واجتماعياً، بما انعكس إيجاباً على شبكة أمنهم وسلمهم الاجتماعي، انطلاقاً من القيمة الروحية والمعنوية للإنسان ووجوب المحافظة على كرامته البشرية. وهذه المبادئ استقوها من الكتاب المقدّس قبل أن تُنشئ الدول وزارات وإدارات ومؤسسات وتوقّع مواثيق تختصّ بهذا الجانب.

عرفوا مبدأ التكافل والتضامن واكتشفوا ما يترتّب على الواحد منهم تجاه الآخر والجماعة، فاهتمّوا بالعامل واليتيم والمشرّد. عاشوا عائلة واحدة وعملوا بما قاله القديس بولس لأهل قورنتس: «لكي تسد زيادتكم في هذا الدهر نقصانهم وتسد زيادتهم نقصانكم حتى تحصل المساواة» (٢ قورنتس ٨/ ١٤).

وكان مقدّم بشري يعقوب قد توصّل بحكمته وذكائه أن يقضي بين أبناء منطقته بعدل، ويبعدهم عن نقمة المماليك وجورهم. كان الملك الظاهر قد «تدروش (على قول الدويهي) وقدم إلى قرية بشرّي شرقي طرابلس، فأقام الشدياق يعقوب ابن ايوب مقدّماً، وكتب له بذلك صفحة من نحاس» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٣٨)، و«قد بقي حاكماً إلى أن توفّي سنة ١٤٤٤. وكانت مدّة ولايته ٦٢ سنة. وخلفه في المقدّمية أولاده المقدّمون سيفا وقمر ومزهر وبدر. وعرفت المنطقة بفضلهم الأمان والعمران».

أضاف الدويهي: «وكانت قرية الحدث وكلّ البلاد في عزّ وأمان. حتى ان في يوم خميس

الأسرار الإلهية، انضبطوا خمسماية مسّاس للفلاحة على باب هيكل مار دانيال، من الذين كانوا يحرثون أرض الحدث. وانعدّوا في إهدن في الحارة الفوقا سبعين بغل الذين كانوا يسافرون إلى مدينة دمشق. وكان فيها خمسة عشر قوّاس يأكلوا علوفة من مدينة طرابلس يخفروا القفول ويقطعونهم قضيب السليقة» (الأزمنة، صفحة ٣٥٥).

إلاّ أنّ أيّام الأمان كانت تعكّرها الشدّة أحياناً، على ما جاء في تقرير رفعه أحد الذين وفدوا إلى وادي قنّوبين سنة ١٤٧٥: «تعيش الأمّة المارونية هدفاً للمضايقات والطغيان بلا انقطاع. لبنان كلّه خراب ورعب ودموع. يتذرّع عملاء الدولة بضريبة تسمّى الجزية ليعرّوا هؤلاء القرويين المساكين من كلّ ما يملكون، ثمّ يشبعونهم ضرباً ويسومونهم كلّ أنواع العذابات، لينتزعوا منهم ما يملكون. ومضايقات لا مجال لاتّقاء شرّها، إلاّ بالصمود. ولولا محبّة بطريركهم بطرس ابن حسان ومساعدته لهم، لكان الكثيرون لربّما وقعوا في هذا الفخّ. لقد هاله الخطر الذي تتعرّض له نفوس رعاياه، فسلّم كلّ مداخيل كنائسه ليشبع نهم الطغاة. وظلّ هكذا بلا وسيلة لتأمين عيشه. وترى باب داره مسدوداً بحائط. وهو يضطرّ أحياناً إلى الاختفاء مثل الحبرَين الأعظمَين أوريانس وسلفسترس في مغارة تحت الأرض» (المسيح في لبنان، صفحة ١٢٢).

وقد عكّرت الأيّام الحلوة أيّام شدّة من نوع آخر. ففي عهد المقدّم عبد المنعم، حصل شقاق كبير بين الموارنة بسبب اتصال الأخير باليعاقبة. وكان هذا المقدّم قد تعلّم القراءة عند كاهن يعقوبي، أشربه مع العلم المعتقدات المغايرة. ولمّا تولّى أمر المقدّمية، أكرم اليعاقبة واستضاف كهنتهم حتى أنّه بنى لهم كنيسة على اسم برصوما.

وحين شعر البطريرك بطرس الحدثي بأنّ اليعاقبة بدأوا باستمالة الموارنة إليهم، قاومهم، وتعرّض له المقدّم عبد المنعم وإلى جانبه حشد من الغرباء قدموا من الحبشة ونابلس. فعظم الشقاق في البلاد.

وفي سنة ١٤٨٨ حصلت مواجهات كبيرة في جبّة بشرّي بين اليعاقبة والموارنة. فهبّ أهل إهدن مدافعين، وأبلوا حسناً في هذه الواقعة التي انتهت بغلبة الموارنة، مما اضطرّ

اليعاقبة إلى المغادرة مكرهين. وكان ذلك في أيّام البطريرك سمعان الرابع الحدثي.

من جهة ثانية، جرى في سنة ١٥١٠ «ضنك عظيم على الناس من الظالمين حتى أنّهم تركوا موطنهم وتغرّبوا لبلدان بعيدة. وأنّه في مركب واحد منهم، دخل من بلاد جبيل إلى جزيرة قبرس ماية وعشرين نفس. وكان بجملتهم الخوري حنا بن الزطيمة من ترتج بعياله» (الأزمنة، صفحة ٣٨٠).

وفي سنة ١٥١١ «حدث ضيق عظيم لم يعهد مثله، وحدث على الناس أيضاً جدري ثقيل جداً، وبعد منه الجرب والحكاك الذي من شدّته كان يمنع الناس من النوم والقعود» (الأزمنة، صفحة ٣٨١).

تدلّ هذه الحوادث على أنّ الأمان في عهد المقدّمين كان دائماً محفوفاً بالأخطار. كان الموارنة يعملون في كرومهم ويقومون بواجباتهم الدينية، لكنهم كانوا دائماً على حذر. فكانت حياتهم حياة استشهاد دائم.

ولعلّ الأمان النسبي الذي وصل إليه الشعب الماروني في منطقة الشمال، جعل أنظار الكنيسة في الغرب تتجه إليه أولاً، فعرضت خدماتها وساعدت في حقول شتّى. لكنّ هذه الخدمات ما عتمت أن حملت أخطاراً جديدة من نوع آخر، وهنا أيضاً كان على الموارنة أن يجابهوا هذه التحديات.

إيمان الموارنة وموقف الغرب المتصلّب

أتاح الصليبيون للموارنة الاتّصال بروما، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع المراسلات بينهم وبين الكرسيّ الرسوليّ. فكان البطريرك يرسل موفداً من قبله، ما إن يتمّ انتخابه، حاملاً كتاباً إلى البابا، يؤدّي له فيه الطاعة، ويطلب منه درع التثبيت. وكان البابا يؤيّد البطريرك في أمانته للكنيسة ويُظهر له محبته.

كثيرةٌ هي الرسائل التي تحتفظ بها البطريركية المارونية من البابوات، نذكر هنا بعضاً منها، لأهميّتها في إلقاء الضوء على مراحل صعبة وشائكة ومعقّدة من تاريخ الكنيسة المارونية، وعلى جوانب متنوّعة من طبيعة العلاقة التي قامت بين البطريركية المارونية والكرسيّ الرسوليّ.

ففي سنة ١٢١٣، أرسل البابا زخيا الثالث إلى البطريرك إرميا العمشيتي كتاباً ثبّته فيه بطريركاً على كرسيّ يانوح، وإليه كراسي رؤساء الكهنة في دير مار أسيا وجبّة بشرّي والمنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقا. جاء فيه: «فإنكم سابقاً كنتم على شبه الخراف الضالّة، لم تفهموا حسناً، إنّ واحدة هي خطيبة المسيح والحمامة الطاهرة أي الكنيسة الجامعة. وإنّ واحداً أيضاً هو الراعي الصادق المسيح، والذي تخلّف بعده وعلى يده، رسوله ونائبه بطرس الذي سلّمه الرب خرافه ليرعاهم...

«فرجعتم بإلهام من الربّ إلى راعيكم وأسقف نفوسكم، وفهمتم أننا نحن رأس الأحبار ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة، وأنّ أمّكم هي الكنيسة الرومانية...

«وأنت أيّها الأخ البطريرك، لمّا كنتَ سابقاً في مدينة طرابلس مع قوم من مطارينك،

أعني يوسف مطران مار أسيا، وتادروس أسقف كفرفو، وجمع كبير من كهنة وعلمانيين الخاضعين لك، من ذات خاطرهم، قدّام بعض أساقفة ورهبان وشمامسة المدينة وشعبها، حلفت أنت والمذكورين عن نفوسكم وعن غيركم، على هيئة الصورة التي بها يتعهّد المطارنة بالطاعة للكرسيّ الرسوليّ، أي إنّكم من الآن وصاعداً تكونون طائعين وخاضعين لكنيسة رومية، لنا وللذين يخلفوننا بعدنا...

«فإننا نحن نثبّت لك العوائد الجارية التي كانت لك ولسلفائك في الكنيسة الأنطاكية إلى هذا الآن. وبالسلطان الرسوليّ نوهبها لك، وللذين يتخلّفون بعدك» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ١٦٩-١٧٢).

وفي سنة ١٤٤٧، كتب البابا نقولا إلى البطريرك بطرس كتاباً جاء فيه: «ثمّ نسأل أيضاً أخوتك وننذرك بربّنا يسوع المسيح، أنّ بكلّ جهدك وبكلّ قوتك، تكون متشابهاً في آثارك سالفك، بحفظ الاتحاد الذي انتهى سابقاً في عصر سالفنا المذكور، والذي انعقد بينك وبين جماعتك معنا ومع الكنيسة الرومانية... فإنّا نحن تابعين آثارات سالفنا المذكور، وبكلّ جهدنا واشتياقنا راغبين إليك الاستمرار على ذلك الاتحاد...» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٣٢).

وفي سنة ١٥١٥، كتب البابا لاون رسالة إلى البطريرك شمعون الرابع الحدثي جاء فيها: «إنّنا فرحنا وانسرّينا في قراءة مكاتيبك وفي سمعها. وامتلأ فؤادنا ابتهاجاً وطرباً لا يوصف. ولذلك إنّنا من كلّ قوتنا، نمجّد الله تعالى ونشكره على جميع نعمه الذي بين كنائس الشرق، أثّر بكم أن تعبدوه في إيمان، وتكونوا منصانين داخل مشهر الكفر والرزايا، بشبه الورد بين الشوك، ليتمجّد اسمه تعالى، ويعتبروا الغير مؤمنين، وأنّكم متمسكين في عوائد الكنيسة الجامعة الرومانية، وفي رتبها بطهارة ودون الريب، وأنّكم لم تزيّفوا عن الإيمان بالمسيح بسبب الضيم والضنك والاضطهاد، الذين يقبلون عليكم من الغير مؤمنين، الذين يبغضون اسم المخلّص، ومن الهراطقة المخالفين» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٧٠).

وفي سنة ١٥٦٢، كتب البابا بيوس الرابع رسالة إلى البطريرك موسى العكّاري جاء

فيها: «ومن مكاتيبك قد شاهدنا ما أعظم الكرامة والخضوع والوقار التي تكرّموا بها كرسي مار بطرس هامة الرسل. وكذلك ثباتكم وثبات ملّتكم في حفظ الإيمان الذي تتمسّك به وتعلّمه الكنيسة الرومانية المقدّسة. فمن كلّ قلبنا نفرح لكم ولطائفتكم، ونشكر رحمة الله الذي أبقى لذاته في تلك السقع البعيدة، كذا ألوف ناس، الذين لم تجثُ ركبهم لبابٍ عالٍ ولا يمكن أن يرعبكم عن الديانة المسيحية ثقل نير الغير مؤمنين، ولا أن تفسدكم غيرة المبدعين، ولا أن تفصلكم وتفندقكم معشرة المنشقين عن اتحاد البيعة» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٨٥).

كان لكلّ تلك الرسائل وقعها الروحيّ والمعنويّ الكبيران على البطريرك وعلى الشعب.

فيوم وردت رسالة البابا زخيا الثالث إلى البطريرك إرميا العمشيتي، كان البطريرك محاصَراً في يانوح.

ويوم وردت رسالة البابا نقولا إلى البطريرك يعقوب الحدثي، كان البطريرك لا يزال عالقاً في ذهنه ما أصاب شعبه من نكبات على أيدي المماليك.

ويوم وردت رسالة البابا لاون إلى البطريرك شمعون الرابع الحدثي، كان البطريرك يعاني التعدّيات، فكتب في سنة ١٥١٥ إلى الأمير ألبرتوس في إيطاليا قائلاً: «أحاطني العدوّ من كلّ جانب ومكان ونهبوا ديري وتركوني كالورد اليابس».

ويوم وردت رسالة البابا بيّوس الرابع إلى البطريرك موسى العكّاري، كان البطريرك يعاني تعدّيات العثمانيين، فكتب في سنة ١٥٦٢ إلى الأمبراطور شارلكان المعروف أيضاً بكارلوس الخامس أن يخلّص لبنان من نيرهم، وكان يومها على رأس الأمبراطورية الرومانية وأحد أعظم الشخصيات في التاريخ الأوروبي.

صحيح أنّ العلاقات كانت ودّية بين روما والموارنة، لكنها عرفت عثرات وهنات بدءاً من سنة ١٥٦٧، عندما أصبح مخايل الرزّي بطريرك الطائفة. وقد طلب إلى جانب درع التثبيت كتباً في قواعد الديانة المسيحية باللغة العربية. كما طلب إنشاء مدرسة يتعلّم فيها مَن يرسلونهم إلى روما. رحّب البابا بالأمر، وهمّ بتلبية طلب البطريرك. لكن وصله في اللحظة

الأخيرة مَن ينقل إليه أن هناك ريباً في إيمان البطريرك. «فعهد إلى فرنسيس بينجنتين، ورديان القدس، أنّ في العاجل يسير إلى جبل لبنان ويفحص جيّداً عن البطريرك الجديد... وعندما وصل الموفد البابوي، جمع البطريرك رؤساء الكهنة وعلماء الطائفة وأخبرهم بأمر التهمة فصرخ الجميع كمن فمٍ واحد أنّ بطريركهم جيّد، صالح، وحسن الديانة، وجزيل التقوى، والقداسة. عند ذلك وضعوا البطريرك ورديان القدس والأسقف داود الحدثي وكيل الطائفة، وسركيس الدويهي أسقف إهدن، وجرجس ابن حروصا أسقف بشرّي، وسركيس الرزّي أسقف عرقا وغيرهم، وضعوا خطوط أياديهم في المكاتيب، أنّ البطريرك الجديد كان مهذّب الرأي، وأنّه برضاهم ومن غير اختياره، ألزموه في الرئاسة عليهم، وأنّه لا زاغ عن معتقد أبهاتهم، ولا تمسّك بديانة غريبة. وكتب أيضاً البطريرك عن نفسه قائلاً: إن كنتُ غيّرتُ عادةً من عوائد الكرسيّ الأنطاكيّ أكون أنا الحقير ملام قدّام الله تعالى وقدّام الكرسيّ الرسوليّ. ثم عاهد على ذاته أنّه عن قريب يرسل قاصده لأجل رمي الطاعة» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٨٨).

وبعدما أوفد البطريرك قصّاده إلى روما يطلبون له درع الرئاسة، رحّب البابا بهم وأرسل معهم «القس جوان باطشتا اليانو والقس توما راديوس، وأمرهما على فحص ديانة الموارنة وتصديق طاعتهم، وتدقيق كتبهم، ومشاهدة رتبهم وعوائدهم وكهنوتهم وعباداتهم» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٩١).

وصل الرسولان في سنة ١٥٧٧ إلى وادي قنّوبين، فلقيا أفضل استقبال. وكان أن «استدعى البطريرك إليه رؤساء الكهنة والأديرة والذين عليهم الاعتماد، فاستقرّ قدّامهم أنّه ماروني ابن ماروني، طائعاً لصاحب الكرسيّ الرومانيّ، وخاضعاً لسننه، وحلف أنّه قابلٌ جميع ما تقبله كنيسة رومية ويرذل جميع ما ترذله. ثم حرّر المكتوب بختمه وخطّ يده قائلاً: «هذا هو قراري عليه أحيا وعليه أموت» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٩٢).

... «وبناء على طلب القاصد جوان اليانو في أن يزور الرعايا، حرّر البطريرك له مكاتيب بختمه وخطّ يده، إلى الأساقفة ورؤساء الأديرة وسائر الشعب، ليقبلوه بكلّ

كرامة ويعرضوا عليه الكتب التي يطلبها» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٩٣).

«وضع جوان باطشتا اليانو ثلاثة دفاتر. وكان يكتب في الأوّل الغلطات التي كان يطّلع عليها. وفي الثاني يرقّم الأشياء التي يجب ارتفاعها إلى مشورة البابا. وفي الدفتر الثالث يوسم الأسرار والأشياء التي يلتزمون الكهنة والأعوام بحفظها لأجل إصلاح السيرة وجمال خدمة الله، متوقّعين أن في العيد الكبير يصير مجمع عام حتى يفحصوها ويتمسّكوا أجمعين بالذي يكون لبنيانهم» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٩٣).

ولكن حدث أن استدعي الأب اليانو إلى روما قبل العيد... وكان البطريرك مخايل وأخوه المطران سركيس الرزّي يحبّانه القدر الكبير لأجل غيرته وطول أناته. ثم عاد إلى لبنان أوائل سنة ١٥٨٠ بأمر من البابا حاملاً إلى البطريرك درع الرئاسة وهدايا كثيرة.

مات البطريرك فخلفه أخوه سركيس. وكان أن طلب من الأب اليانو أن يكون رسوله لدى البابا ويطلب باسمه درع التثبيت. فعاد هذا مجدّداً إلى روما مستصحباً معه بعض التلاميذ الموارنة.

وفيما كانت المدرسة المارونية تفتح أبوابها، انتشر الخبر في روما أنّ الموارنة حادوا عن الإيمان، وأنّ الأب جوان باطشتا اليانو ردّهم إليه. فتصدّى التلاميذ الموارنة الموجودون في روما للخبر، ودافعوا عن إيمان الطائفة.

في واقع الحال، لم تكن تكفي مدافعة التلاميذ في أمرٍ خطير كهذا، يمسّ جوهر العقيدة الذي قام عليه الكرسيّ الأنطاكيّ المارونيّ. وأمام الشكّ والالتباس، كان لا بدّ من أن يرسل البابا وفوداً ورسلاً إلى جبل لبنان للاطّلاع على حقيقة ما يجري.

وهكذا، ففي سنة ١٥٩٦ وصل موفدان إلى البطريرك من قبل البابا إقليموس الثامن، هما إيرونيموس دانديني وفابيوس برون، ووصل معهما «أنّ الخبر الشائع في بلد النصارى، أنّ الموارنة كانوا ارتكبوا سابقاً الرزايا والهرطقات، وأنّ البادري جوان اليانو، في تعبه وفي المجمع الذي عقده بأيّام البطريرك مخايل الرزّي كفّرهم في الهرطقات، وردّهم إلى اتّحاد الكنيسة. فلمّا بلغ البطريرك هذه الأخبار من موفدي البابا ومن مكاتيب التلاميذ، أقبل

عليه غيظ شديد. فعقد مجمعاً وقرأ على آباء المجمع مكتوب البابا، قدّام البادري دانديني، وصار يحتجّ عن طائفته بحكمة عظيمة، ويبرهن أوّلاً أنّ أخاه البطريرك مخايل ما عقد مجمعاً. وثانياً من جهة جوان اليانو، أنّه كان شريكه في الدورة وهو قدّم له الكتب، وهو كان يترجمها له، وأنّ الكتب بعدها منصانة وموجودة عند أصحابها. فأمر البطريرك بإحضارها. فكتب البادري دانديني أنّ الهرطقات التي وسمها جوان باطشتا اليانو ما وجدها في كتب تخصّ الموارنة البتّة، بل في نسخات اليعاقبة. وأظهر له معلناً قرار الموارنة وحسن ديانتهم من كتبهم، حتى أنّ البادري دانديني اشتمله عجب، واستقرّ أنّ الهرطقات والرزايا التي اتّهم بها الموارنة من قصّاد البابا زخيا الثالث، ولاون العاشر وغريغوريوس الثالث عشر، كانت كلّها تجني دون الصواب، كما هو محرّر في المجمع الذي التأم في حضرة البادري دانديني» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٣٠٢).

شهد دانديني في كتابه الشهير «رحلة إيرونيموس دانديني إلى لبنان» سنة ١٥٩٦، قائلاً: «إن مكاتيب أصحاب الكرسيّ الرسوليّ تسطّرت على ذلك المنوال من الاستشهاد المزوّر الذي وصل إليهم. وقد تحقّقتُ أنا أنّ الأمر هو هكذا. لأنّي وجدتُ أنّ نسختهم الخاصّة لم تضادد صدق الكنيسة الكاثوليكية، وأمّا القصّاد، فبسبب أنّهم ما اجتهدوا على تمييز الكتب الخالصة. فما هو عجب أنّهم في سجلّات عظماء الأحبار أوجبوا على الموارنة رزايا مختلفة...» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٣٠٣).

واستطرد دانديني: «إنّ الموارنة القاطنين في جبل لبنان تحت طاعة بطريركهم قد استمرّوا بين جميع طوائف الشرق على الإيمان، وعلى الطاعة الكاملة للحبر الرومانيّ وللكرسيّ الرسوليّ منذ زمن البابا زخيا الثالث. وإلى هذا الآن توجد عن بطريركهم منصانة في الحرص سجلّات أصحاب الكرسيّ الرومانيّ منذ زمن زخيا الثالث والأحبار الذين تخلّفوا بعده...

«فالموارنة احتجّوا عن ذاتهم بالصواب، وبرهنوا أنّهم مبتعدين عن تلك الغلطات، وأظهروا شهادات شتّى من كتبهم ومن نوافيرهم، يحتجّون بها عن تعاليم الكنيسة بثبات،

وهم على التحقيق مدمنون على تجنيز أمواتهم وعلى المحافل التي تخصّ معاليمهم» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٣٠٣-٣٠٤).

لماذا، يا ترى، لحق بالموارنة هذا التجنّي الجائر؟ ولماذا اتُّخِذ في حقّهم هذا الموقف القاسي؟ أبسبب الشخصية المارونية التي تميّزت بالاعتداد بالحرّية؟ أم بسبب الاختلاف في الطقوس الليتورجية بين الشرق والغرب، وجملة العادات والتقاليد التي سار عليها الموارنة واحتفظوها لأنفسهم؟

الشهادة التي كتبها دانديني، وهو موفد البابا، كان لها وزنها. وقد رفعها أمام البابا وكرادلته وأمام العالم. فهل أفلحت تلك الشهادة في إزالة أسباب الشبهات عن الموارنة؟ وهل تمكّنت من جعل الغرب ينظر إليهم بموضوعية، فتُطوى صفحة الاتهام وتبدأ صفحة جديدة؟

كانت شهادة دانديني تقف وحيدة، لكن قويّة، وراسخة، ومذهلة، قبالة جملةٍ من الشهادات الغربية المضادة. لكن، هل استطاعت شهادةٌ كهذه، لشخصٍ واحد، أن تقاوم تيّاراً غربيّاً فكريّاً صاخباً، أعلن حساسيته السلبية المفرطة حيال الموارنة، الذين يشكّلون بالنسبة إلى المسيحيين في الغرب معدناً هو من غير معدنهم، وخصوصاً أنّ عوائد الموارنة هي غير عوائدهم وتقاليد الموارنة هي غير تقاليدهم؟

أيّاً يكن الأمر، فقد ظلّت الكنيسة في الغرب تؤيّد تصرّفات الموارنة حيناً، وتدعوهم إلى اتّباع خطٍّ آخر حيناً آخر. وظلّ الموارنة يؤدّون الطاعة للبابا أكثر من أيّ شعبٍ آخر، ولكنّهم ظلّوا يرفضون أن تُمَسّ عاداتهم وتقاليدهم.

ولمّا زار جان دو لا روك لبنان في العام ١٧٨٨، نقل مشاهداته الحيّة في كتابه **رحلة إلى سوريا وجبل لبنان** وأهدى كتابه إلى الأسقف دو فلوري، مستشار الملك والعضو في الأكاديمية الفرنسية، مخاطباً إيّاه قائلاً: «ستكون شاهداً في هذا الكتاب عن تاريخ كنيسة بطريركية وتاريخ أمّة وفيّة استقرّت منذ قرون عدّة في جبل لبنان، هذه الكنيسة التي تستحقّ التمجيد لأنّها حافظت على الإيمان وتعاليم الرسل دون انحراف».

وتابع: «إنّه تاريخ هذه الأمّة المتمسّكة بتعاليم المسيحية إلى حدّ يسمح لنا بالقول إنّها الصورة الحقيقية للمؤمنين الأوائل الذين أعطوا في عهد الرسل في أنطاكية اسم الولادة للمسيحية... وأنا متأكّد بأنّك ستعجب بهذه الكنيسة التي ستحمل اسم أولى الكنائس أي كنيسة أنطاكية».

في خضمّ هذا الصراع وإزاء التناقض بين هذه الشهادات المختلفة، كان على الموارنة أن يواصلوا طريق الشهادة للمسيح على طريقتهم الذاتية، مستلهمين خطى مارون، متنبّهين إلى عظمة الصليب الملقى على أكتافهم، وإلى فداحة العبء الذي ينبغي لهم أن يتحمّلوه للمحافظة على العلاقة مع الكرسيّ الرسوليّ، والغرب عموماً. فكيف سينتهي هذا الصراع، ولِمَن ستكون الغلبة؟

وفيما كان الموارنة يجابهون مشكلتهم مع روما، اضطرّوا على الصعيد الداخلي إلى أن يتفاعلوا مع مشكلة من نوع آخر، هي الطائفية، وأن يساهموا في تحقيق العيش معاً.

أرض التآخي

قدمت الجماعات الدينية المختلفة إلى لبنان، الواحدة بعد الأخرى، هرباً من الاضطهاد وسعياً وراء الحرّية، فدمغت تاريخ لبنان المعاصر بمعاني اللجوء ودلالاته، من جهة، وبالتطلّع، من جهة أخرى، إلى كيانٍ أرضيّ، جغرافيّ، مجتمعيّ، وسياسيّ، تتحصّن فيه، وتعبّر من خلاله عن ذواتها الخاصة وشخصياتها ضمن التنوّع والتعدد.

«فالموارنة، الذين فرّوا من اضطهاد اليعاقبة لهم في القرن السابع للميلاد، وجدوا في شمالي لبنان ملجأ آمناً. وكذلك الدروز، الذين حسبهم المسلمون السنّيون على شيء من الهرطقة، أتوا لبنان من الجنوب في القرن الحادي عشر للميلاد. وكذلك تسرّبت جموع الشيعة إلى لبنان في أزمنة مختلفة ومن أماكن مختلفة هرباً من ضغط السنّة عليهم. وآخر هجرة في الحقبة الأخيرة كانت هجرة الأرمن وجماعات مسيحية من شمالي العراق، يسمّون الأشوريين (أو الأثوريين) وذلك هرباً من اضطهاد العثمانيين لهم.

«هنا في لبنان يجدون مجالاً رحباً ليعيشوا حياتهم كما يشاؤون أن يعيشوها. وهكذا تصبح الأقلّية الهاربة من السهول في الوطن الجبلي الجديد أكثرية، وتصبح العقائد المخالفة والخارجة على الأرثوذكسية عقائد صحيحة متّبعة معترفاً بها، كما حدث للموارنة والدروز والشيعة. فإنّهم قد اكتسبوا في موطنهم الجديد طابعاً خاصاً بهم مميّزاً لهم حتى يصحّ لنا أن نقول إنّهم أصبحوا ما يشبه القوميات المستقلّة ولا يزالون كذلك إلى عهدها هذا» (حتي صفحة ٩).

تقاطرت هذه الأقلّيات الهاربة من الاضطهاد إلى لبنان الملجأ، لكنّها لم تعِ قيمة ما وجدته

من أمانٍ فيه في الأساس، ولم تستطع لاحقاً صوغ مشروع عابر للجماعات والطوائف يرقى بالأرض والشعب والقيم المشتركة إلى مستوى الوطن.

تنافست وتناحرت في ما بينها. تحالفت وتبادلت الشركاء. عرفت التناقضات كلّها وشخّصت المشكلة، لكنّها لم ترتفع يوماً إلى مصاف المواطنة ولم تتوافق على السبيل الممكن لعقلنة المجتمع وتفكيك بذور التوتّر والانقسام فيه.

ولكن قبل أن تضعف كامل مقوّمات الوطن، في الشكل الذي طبع تاريخ لبنان الحديث وحاضره، عرف لبنان فترة تآخٍ واتّحاد صفوف، وواجه بقوّة التهديد الخارجي الذي أصاب الجميع. وقد استطاع أهله جميعاً أن يحقّقوا في وحدتهم مثالاً رائعاً في العيش معاً وفي السعي وراء الازدهار حتى عهد المماليك.

كانت الحملات العسكرية التي وجّهها الملك ناصر في ١٣٠٢ و١٣٠٦ و١٣٠٧ ضدّ كسروان من أعنف الحملات التي تعرّض لها لبنان، وأشدّها فتكاً وخراباً. كانت كسروان آنذاك تمتدّ جنوباً إلى نهر بيروت، وشرقاً إلى جبلَي صنّين والكنيسة. وكانت تشمل أيضاً منطقة المتن الشمالي والجنوبي، «وكان سكّانها من الموارنة واليعاقبة والدروز والشيعة والنصيرية» (حتي، صفحة ٣٩٨).

وقد حسب المماليكُ الدروزَ والشيعةَ والنصيريةَ غير مسلمين وأنّهم على شيء من الهرطقة، فضايقوهم وأذلّوهم وأرادوا أن يبيدوهم. ويوم هجموا على كسروان، لم يفرّقوا بين الماروني والدرزي والشيعي، فقاتلوهم جميعاً وفتكوا بهم.

«يوم الاثنين ثاني محرّم، سار أقوش باشا الأفرم، نايب دمشق، بعساكر من الشام وغيرها إلى جبال كسروان وكان سكّانها عصاة مارقين من الدين. فأحاطت العساكر الإسلامية تلك الجبال المنيعة وترجّلوا عن خيولهم وصعدوا إليها من كلّ الجهات.

«ووصل نايب دمشق الأفرم إلى جبال كسروان ووطئ العسكر أرضاً لم يكن أهلها يظنّون أنّ أحداً من خلق الله تعالى يصل إليها. فاحتووا على الجبال وخرّبوا القرى وقطعوا كرومها وقلعوها. وقتلوا وأسروا مَن بها من الدروز والكسروانيين وغيرهم من المارقين.

وخلت تلك الجبال منهم» (الأزمنة، صفحة ٢٨٨).

وكان أن خربت كسروان، والذين سلموا من أهلها تشتّتوا في كلّ صقيع. وتقاطر المسلمون إلى غادير وساحل علما وغزير وغيرها، واستقرّ التركمان بخاصة في سواحل كسروان. أما أهل الشيعة فقصدوا جرد حراجل وميروبا وفاريّا.

دافع اللبنانيون من سكّان كسروان بضراوة عن أرضهم متآخين متضامنين، موارنةً ودروزاً وشيعة... وحاربوا حتى الشهادة. ويوم اضطرّ الدروز، وقد حاصرهم العدوّ في مغارة احتموا فيها بالقرب من نابيه، إلى أن يختاروا بين الاستسلام والموت، فضّلوا الاستشهاد. وكان أن «هرب جماعة منهم معهم عشرة أمراء، مع حريمهم وأموالهم وأولادهم، واحتموا هناك في مغارة غربي كسروان، وكانوا أكثر من ثلاثماية شخص، فحاموا عن أنفسهم بالقتال، ولم يقدر الجيش عليهم فأعطوهم الأمان. فأمر نايب دمشق أن يبني على الغار سدّاً من الحجر والجير، ففعلوا ذلك وهدموا على باب الغار تلاً عظيماً من التراب والحجر، وجعلوا عليهم الأمير قطلوبك حارساً عليهم مدّة أربعين يوماً، فهلكوا داخل الردم وهم فيه» (الأزمنة، صفحة ٢٨٧)، «وولّى المماليك آل عسّاف التركمان على منطقة كسروان، فسكنوا زوق العامرة والخراب ومصبح ومكايل على أسماء مقدّميهم، عامر وخربان ومصبح ومكايل» (الأزمنة، صفحة ٢٩٠) ثمّ استقرّوا في غزير.

في سنة ١٥١٦، تسلّم السلطان سليم البلاد، فأقرّ الأمير عسّاف التركماني على كسروان وجبيل، والأمير فخر الدين على بلاد الشوف. سكن الأمير عسّاف غزير وأجرى العدل، وعندما عمر البلاد، قدمت الناس من كلّ جانب. قدم المتاولة من بلاد بعلبك وأخذوا خاطر الأمير وسكنوا في فاريّا وحراجل وبقعاتا. وكذلك سنّة البقاع سكنوا في فيطرون والقليعات وعرمون والجديدة وساحل علما وفتقا. وكذلك النصارى (جاؤوا) من بلاد طرابلس فسكن أهالي المجدل في عرمون. وأهالي يانوح في كفور الفتوح. والشيخ حبيش بن موسى بن عبدالله بن مخايل من يانوح في غزير، وبيت كميد وكذلك الشدياق سركيس بن الخازن في سنة ١٥٤٥ خرج من جاج وجاء إلى بلّونه، وبيت الجميل» (الأزمنة، صفحة ٣٩٢).

عادت هذه الأقلّيات الدينية تعيش جنباً إلى جنب بعدما غاب عن المشهد عدوّها المشترك، فعرفت البلاد الأمان والاستقرار والازدهار. لكنّ الأمر لم يدم طويلاً، لتعود المظالم والانقسامات تظهر في صفوف اللبنانيين.

بدأ الأمير عسّاف حكمه بالعدل. ولكنّه ما عتّم أن انتقم من الذين ناوأوه وساروا في خطّ الأمير فخر الدين، زعيم الحزب القيسي آنذاك. كان مقدّما جاج قيسيَّين، فأراد الأمير عسّاف أن يعزلهما. وكانا سنّيين، فدفع أبناء حمادة، وهم شيعة، لقتلهما. وأراد ابن سيفا الذي انتقل إليه الحكم من بني عسّاف، أن يتخلّص من الجيوب المتبقّية للحزب القيسي في منطقته، فدفع بدوره أبناء حماده إلى قتل مقدّمي جاج، «فأخذوا مكاتب ابن سيفا وساروا لعندهم بطلب ذبيحة ليزوّجوا أخاهم، وكان ذلك في أيّام الحصاد، فقتلوهم أربعتهم وغنموا أموالهم وأرزاقهم وصاروا مشايخ لبلاد جبيل» (الأزمنة، صفحة ٤٥٥). بعد هذه الحادثة أصبح أهل الشيعة أسياد المنطقة، فماذا عملوا وكيف حكموا؟

في سنة ١٦٠٢ حصل هجوم على بشرّي، «فأتى الأمير موسى ابن حرفوش مع جملة أناس من جماعته وكسبوا جبّة بشرّي وأخذوا ساقيتها ونهبوا جميع ما تمكّنوا من نهبه، لأنّ أهلها كان غالبهم في الساحل في حلالة القزّ» (الأزمنة، صفحة ٤٥٦).

لم تحرّك الدولة العثمانية ساكناً. لكن تغيّر الموقف بعدما اعتبرت أنّ مصالحها المالية باتت مهدّدة على يد الشيعة. ففي سنة ١٦٤١ «طرد الأرناؤوط (والي طرابلس) المتاولة من وادي علمات ومن بلاد جبيل، وقتل الشيخ محمد ياغي بن قمر الدين حمادة، وصعب ابن حيدر وبعض جماعة، وولّى على البلاد ابن علم الدين» (الأزمنة، صفحة ٥٢٤).

وفي سنة ١٦٤٢ «قام الأمير علي ابن علم الدين في شهر آب فقبض على الشيخ سرحان ابن حماده في قرية غبالة من فتوح جبيل، فنهب غبالة ومسك أولاد الشيخ سرحان وأولاد أقربائه وقتل منهم خمسة»... وفي سنة ١٦٥٨ «جمع قبلان باشا والي طرابلس، نحو ألفين من رجال الدولة وأولاد عرب وسار بهم إلى البترون والى بلاد جبيل... لكنّ المتاولة كانوا هربوا إلى بلاد كسروان» (الأزمنة، صفحة ٥٤٧).

وفي سنة ١٦٧٣، عيّن حسن باشا والياً على طرابلس، «فأعطى لبيت حمادة مقاطعاتهم وعاملهم خير من أسلافه»... لكنّهم كسروا المال وقتلوا أناساً في عشاش التي على نهر رعشين، وخرّبوا المقاطعات بعد أن نهبوها» (الأزمنة، صفحة ٥٥٩).

وكان من البديهي أن يغيّر الأمير حسن موقفه تجاه الشيعة، فثارت طباعه واتّخذ الإجراءات والعقوبات في حقّهم. ففي سنة ١٦٧٥ «رفع يد الشيخ سرحان عن بلاد جبيل والبترون ونادى بالركوب على بيت حماده... وفي ٢٧ تموز من السنة عينها صنع الباشا وليمة لأهل دولته... وأمر بإحضار الشيخ أحمد وابن حسن ديب وأمر بضربهم فماتوا. ولم تتوقّف المشاكل. ففي سنة ١٦٨٤ قام مشايخ بيت حماده فقتلوا أبا نادر شيخ المزرعة في عكار، وكذلك ابن أخت الباشا في حلبا... وقد تابع الحماديّون تقدّمهم إلى بلاد كسروان فكبسوا عشقوت وقتلوا من أهلها أحد عشر نفساً. فاضطرّ الأمير أحمد ابن معن أن يتوجّه بنفسه إلى غزير ومعه نحو خمسة آلاف نفس... فهرب المتاولة من ولاية طرابلس إلى بعلبك» (الأزمنة، صفحة ٥٧٢).

لماذا جرت كلّ هذه الحوادث ومَن كان وراءها؟ ومَن يتحمّل وزر المظالم التي حلّت بالموارنة حين نُهبت بيوتهم وأُحرقت قراهم وشُرِّدوا وجاعوا، هل الشيعة وحدهم مسؤولون؟ ماذا يقول التاريخ؟ هل يستطيع أن يحدّد المسؤوليات؟ هل يستطيع أن يقول كلمة في العيش معاً؟ وهل العيش المشترك بين الطوائف يبقى أمراً ممكناً؟

كانت الدولة العثمانية تطمع بالمال. وتسهيلاً لجمعه كانت تعيّن على رعاياها حكّاماً قساة، وتدفعهم إلى الظلم. وكثيراً ما كان الحكّام أنفسهم يطمعون بالمال. فكان هذا يرشو ذاك، أو يقتطع من ماله، وتحدث بلبلة واضطرابات. وإذا ساء الأمر، كانت الدولة إمّا تؤدّب أحدهما، وإمّا تعزل الآخر. وفي كلا الأمرين كان الشعب يدفع الثمن. فإذا سبق أن اتّفق رجال الدولة، فإنّ اتّفاقهم يقع على حساب الشعب. وإذا ما اختلفوا، كان الشعب أيضاً يتحمّل النتائج.

يوم اتّفق ابن سيفا مع المتاولة في سنة ١٦٠٢، هجم الشيعة على منطقة بشرّي ونهبوها.

ويوم قام الأمير علي بن علم الدين على الشيخ سرحان حمادة في غبالة سنة ١٦٤٢، «صار ضيم عظيم على الرعايا. بسبب التفتيش على جماعته» (الأزمنة، صفحة ٥٢٥). ويوم اتّفق حسن باشا والي طرابلس مع المتاولة في سنة ١٦٧٣ «أخذهم الطمع وكسروا المال وقتلوا أناساً من عشاش... وخربوا المقاطعات ونهبوها» (الأزمنة، صفحة ٥٥٩). ويوم قتل الباشا بعضاً من بيت حماده «هاجت الحمادية وتوابعهم فوثبوا على نصارى بلاد جبيل فنهبوا وقتلوا وحرقوا نحو ثلاثة عشر نفساً ولقوا النار في أهل حصرايل ونهبوا قرى بلاد البترون في الجرد، وأخذوا ساقية حصرون في الجبّة. فعرض من ذلك للنصارى ضيم عظيم، فتضعضعوا وارتحل أناس منهم إلى المدينة» (الأزمنة، صفحة ٥٦١). يمكننا أن نورد أمثلة كثيرة من النكبات التي حلّت بالموارنة...، لكنّ الخلاصة كانت واضحة وواحدة: كان الحكّام يتنافسون إمّا على المراكز والنفوذ وإمّا على المال. وكان الشعب يجهد نفسه جائعاً متململاً، ليشبع نهم الحكّام.

كان موقف الدولة العثمانية يكتفي بالتخفيف من ظلم الحكّام من دون أن يزيله. فالحكّام كانوا مسؤولين عن كلّ ما جرى للشعب، الذي راحت جماعاته الدينية تقتتل في ما بينها. ولكن هل هذا كافٍ لنقول إن العيش بين هذه الجماعات في لبنان كان مستحيلاً؟ هل الشيعة جميعهم كانوا مسؤولين عمّا جرى؟ ألم يكن بينهم من جاع ونُكِب وأُحرِقت بيوته وشُرِّد؟

تحملنا الوقائع والعِبَر على الاستخلاص أنّ الحاكم كان في وادٍ، والجماعات على اختلافها كانت في وادٍ، على رغم قيام بعضها ضدّ بعضها الآخر، مرّةً بتأليبٍ من الحاكم نفسه، ومرّةً بإغضاءٍ منه.

ما يمكن استخلاصه أيضاً من عِبَر ذلك الزمان، أن عصا الحكّام كانت تعمل في رقاب الشعب، فتمعن في إجهاده وتفريقه وإثارة الفتن في صفوفه. فلو أنّ تلك العصا رُفِعت عنه، ولو أنّ الشعب اختبر العيش في اطمئنان إلى واقعه وغده، لما كان حدث ما حدث، ولكان جاء حكم الشيعة عادلاً.

وقد استطاع الموارنة آنذاك أن يروا ما نراه نحن اليوم، على ما ذكر الدويهي: «ثمّ أن كواخي سعادته تشفّعوا فيهم (الشيعة) وذكّروه أن الشيخ سرحان كان قد تعب في سبيله، وأنّ أولاده قتلهم اليمينية بسببه، فتشفّق عليهم وعفى عنهم ورجع إلى الشوف من غير أن يستقبل في الخلعة التي كان أرسلها الباشا إليه. ثمّ أنّه في السادس عشر من كانون الأول قدم الشيخ سرحان وابنه الشيخ حسن وابن أخيه الشيخ حسين إلى جونيه. اجتمعوا في الشيخ أبو قانصوه، حتى أنّه هو وإخوته أخذوا الشيخ سرحان إلى تقبيل أيادي سعادته، فخلع عليه ورجع مسروراً إلى وطنه» (الأزمنة، صفحة ٥٧٣).

لكن ذلك لم يُنهِ المشكلة ولم يطوِ صفحتها المؤلمة. ففي سنة ١٦٨٦ «وثب المشايخ الحمادية على علي ابن أبو فاضل رعد شيخ الضنية فقتلوه وقتلوا أبا داغر شيخ حردين وغيرهما» (الأزمنة، صفحة ٥٧٤). وكان ذلك أثناء غياب الباشا، فلمّا عاد، أمر بإحراق قرى الحمادية. ثمّ في سنة ١٦١٢ بعد أن تولّى علي باشا ولاية طرابلس، طلب من الخوازنة المؤازرة، فأنجدوه بألف رجل وساروا إلى جبيل. فانهزم المتاولة في طريق العاقورة، وهلك منهم بالثلج خمسون شخصاً. والباقون سكنوا بعلبك.

أُبعِد الشيعة عن مناطق جبيل والبترون والكورة، فانتهت بذلك الحوادث الدامية وتوقّف مسلسل الخراب والدمار. لكنّ شعب هذه المناطق لم يضمر الحقد على أحد، ولم يقطع حبل الحوار مع أحد. عرف أنّ أعداء الماضي إذا عادوا إلى أصالتهم فسيكونون أصدقاء الحاضر والمستقبل، وأنّ الجماعات الدينية في لبنان هي على صورة البيت اللبناني المعقود، فإذا تزعزعت الركيزة تصدّع البناء ووقعت الخسارة على الجميع. فالبيت المعقود تنعقد حجارته حجراً على حجر. لا حجر يُغني عن الآخر، فلا تتماسك القنطرة إلاّ بحنوّ عناصرها، واتّكاء بعضها على البعض الآخر. على غرار هذا البيت، تنعقد أواصر البنيان اللبناني، حيث لا عيش لجماعة إلاّ بالأخرى، ومعها. فإذا تفكّكت، انهار العيش، أمّا إذا تساندت، فإنّ الربح يكون للكلّ وترتفع عمارة الوطن.

من هذه الزاوية نظر الموارنة إلى المستقبل وقالوا إنّ اللبناني هو رجل حوار. فيوم أراد

الوالي أن يقضي على الشيعة، تشفّع بهم الموارنة وشهدوا لهم. ويوم بقيت هنا وهناك أقلّيات شيعية في مناطق جبيل والبترون والكورة، حافظوا عليها ولم يتعرّض لها أحدٌ بسوء، وكان لهذا الواقع مدلولاته الإيجابية الكبرى. إنّه شهادة تاريخية ناطقة بأنّ العيش بين الجماعات الدينية في لبنان هو أمر طبيعي وممكن، في الحدود التي تفهم فيها كلّ جماعة أن لا حياة لها بدون الجماعات الأخرى، ولا مستقبل لها إلاّ معها.

المدرسة المارونية

يوم عاش الموارنة في جبال لبنان العالية منعزلين عن العالم، كانوا يكتفون في سبيل تأمين مستلزماتهم بالشيء الزهيد. كان همّهم أن يسلموا من الضربات، وأن يأكلوا قوتهم بعرق جبينهم، وأن يشملهم الله برحمته ورضاه. لم يشعروا بالحاجة إلى التحصيل العلمي إلاّ بعدما أزيل عنهم الحصار، وتمّ الاتصال بينهم وبين العالم الغربي.

كان كهنتهم في ما مضى وحدهم متعلّمين. وكانت معلوماتهم تقتصر على قراءة الإنجيل وشرحه. ولكن بعدما قدم الصليبيون، اكتشف الموارنة واقع الجهل الذي كانوا عليه وفهموا قيمة العلم وشعروا بالحاجة إلى المدرسة.

وعندما أخذت الرسائل ترد إليهم من روما، وجدوا صعوبة في إيجاد مَن يقرأها لهم، فطلب البطريرك موسى العكّاري من البابا بولس الثالث «مدرسة في جبل لبنان لتأديب أولاد الطائفة في لغة الفرنج، حتى من دون ترجمان ولا وسيط، يصيروا يقرأوا رسائلهم ويفهموا شرائعهم المقدسة ويكون اتحاد تام في القلب والفم بين الكنيستين» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٨١).

وفي سنة ١٥٦٦، كرّر البطريرك مخايل الرزّي الطلب عينه، فناشد البابا بيّوس الرابع أن يرسل «كتباً تحتوي قواعد الديانة المسيحية في لغاتهم. وأن ينعم عليهم بحارةٍ برومية حتى يتأدّب فيها أولادهم، كيما عندما يرجعوا يتلمذوا آل جنسهم» (الشرح المختصر، الجزء الثاني، صفحة ٢٨٧).

في ٥ تموز من سنة ١٥٨٤، أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر المدرسة المارونية

فحقق آمال الجماعة المارونية، وفتح أمام تلاميذها أبواب التقدّم. جاء في براءته الرسولية هذه الكلمات: «لنا الأمل الوطيد بأنّ تلاميذ هذه المدرسة، على مدى الأيام المستقبلة، بعد امتلائهم من عبير التقوى، والديانة الحقيقية، الصادر من شجر سرو صهيون، وتعاليم الكنيسة الرومانية المقدّسة، رأس كل الكنائس، لنا الأمل الوطيد بأن يوزّعوه على أرز لبنان وعلى طائفتهم، عاملين في خدمة الرب ومجدِّدين في بلدانهم الإيمان الضعيف ومساندينه. وهكذا يتحوّل عمل مادي لا يفيد إلاّ القليلين من زائري روما، إلى عمل روحي يكون لفائدة الطائفة كلّها ولخلاصها.

«وبناءً عليه، وعن معرفة تامة، وعملاً بكمال سلطتنا الرسولية،... نبني مدرسة الموارنة ونؤسّسها حتى يتغذّى فيها ويتزيّن بالأخلاق الصالحة، ويتربّى على التقوى والتعليم السليم والفضائل المسيحية الكاملة الواجبة لكلّ مسيحي، شبّان هذه الطائفة...» (ترجمة الأب فيليب السمراني، مجلة المنارة، عدد ٢٥، صفحة ٥٤).

وفد التلاميذ الموارنة إلى روما وبدأت آمال البابا تتحقّق، وبدأت الجماعة المارونية تنتقل من عوالم الجهل إلى منارات المعرفة.

تخرّج في المدرسة المارونية ألمع رجالات الإكليروس. وكان أعظمهم البطريرك إسطفان الدويهي مؤرّخ الطائفة المارونية، الذي «طاف في كلّ الأبرشيات واختار كهنة ذوي علم وتقى، وفحص الكتب البيعية وأصلح ما أوقعه فيها النسّاخ من أغلاط، وردّ القواعد إلى أصلها، وغربل مصاحف المؤرّخين ومصنّفات الآباء القدّيسين، من شرقيين وغربيين، وألّف كتباً عديدة محفوظة في مدرسة رومية» (كتاب مختصر حياة أبينا البطريرك مار إسطفانوس الدويهي الماروني، بطريرك انطاكية، للبطريرك يعقوب عوّاد، سنة ١٧٠٤).

وقد ظلّ بعضهم في أوروبا، وأبرزهم جبرائيل الصهيوني (١٥٧٥–١٦٤٨)، فدرّس السريانية والعربية في كلية سابينزا في روما. ثمّ انتقل إلى باريس بدعوة من الملك لويس الثالث عشر ليرأس دائرة اللغات السامية في الكلّية الملكية. وقد عيّن في الوقت نفسه ترجماناً للملك، ونشر التوراة بلغات متعدّدة.

أما ابراهيم الحاقلاني، وهو من حاقل من أعمال جبيل، فدرّس اللغة السريانية والعربية في كلّية سابينزا في روما أولاً. ثمّ عُيِّن في سنة ١٦٤٦ خلفاً للصهيوني في الكلّية الملكية في باريس.

وكان هناك مرهج ابن نمرون من بان، وقد خلف الحاقلاني كأستاذ وترجمان، ونشر الإنجيل بالسريانية والعربية، ويوسف السمعاني الذي عُيِّن حافظاً للمكتبة الفاتيكانية.

استطاع هؤلاء الرجال أن يكونوا روّاداً في التقارب بين العالمَين الشرقي والغربي. وبفضلهم راح الشرقيون ينفتحون على معالم الغرب، وراح الغربيون ينهلون من ينابيع الشرق. فكانت المدرسة المارونية همزة الوصل بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية.

وأخذت الرهبانيات الأوروبية تفد إلى لبنان. ففي سنة ١٦٢٦ وصل الكبّوشيون. وفي سنة ١٦٣٥ وصل الكرمليون. وفي سنة ١٦٥٦ وصل اليسوعيون. ثمّ كرّت السبحة، حتى أصبحت بيروت تحتضن من الرهبان والراهبات أكثر من أيّ مدينة في العالم بعد روما.

جاء هؤلاء إلى لبنان لخدمة شعبه، فأسّسوا المدارس وأخذوا يزرعون بذور العلم ويهيّئون للبلاد جيلاً جديداً. لم يمضِ وقت طويل، حتى أصبحت المدارس التي تأسّست في لبنان تضاهي مدارس أوروبا.

زاد إقبال الموارنة على العلم، وكان الفضل في ذلك يعود إلى آباء المجمع اللبناني الذين حضّوا في سنة ١٧٣٦ «بأحشاء يسوع المسيح كلاً من المتولين رئاسة الأبرشيات والمدن والقرى والمزارع والأديار جملة وأفراداً أن يتعاونوا ويتضافروا على ترويج هذا العمل الكبير الفائدة... فيعنون أوّلاً بنصب معلّم حيث لا يوجد معلّم، ويدوّنون أسماء الأحداث الذين هم أهل لاقتباس العلم، ويأمرون آباءهم بأن يسوقوهم إلى المدرسة ولو مكرهين. وإن كانوا أيتاماً أو فقراء فلتقدّم لهم الكنيسة أو الدير ضروريات القوت وفي حالة تعذّر الكنيسة أو الدير فيترتّب جزء منها على الكنيسة والدير والجزء الآخر يقوم بدفعه آباء الأولاد» (المجمع اللبناني ٥٢٩–٥٣٠).

كثرت المدارس. وكانت مدرسة إلى جانب كلّ كنيسة مارونية. وبعدما نال اللبنانيون،

ومعظمهم كانوا موارنة، قسطاً كبيراً من الثقافة، طفت إلى السطح نخبة مثقّفة قادت الحركة الفكرية العربية، وكان لها دورٌ كبير في النهضة الثقافية في كلّ الشرق العربي.

مع الوقت، وإلى جانب الإيجابيات الكبرى لهذه الحركة، سُجّل ما كان له تأثيراته في الشعب. نشأت الحركات الرسولية والأخويات وفتحت الإرساليات أبوابها، فاستقطبت الأخيرة، بطبيعة الحال، الطبقة الميسورة، فأقيمت هوّة بين الناس دونما قصد.

ففي الأمس كان الموارنة يعيشون بخوف الله ويقومون بكلّ ما تفرضه عليهم الحياة المسيحية من مسؤوليات. ينهضون من النوم مع الفجر ويتوجّهون إلى أعمالهم ولا يعودون إلى بيوتهم إلاّ عند المساء. إذا لم تسمح لهم أشغالهم سماع القدّاس عند الصباح، كانوا يستعيضون عنه بالإقبال على الكنيسة لصلاة المساء قبل غروب الشمس. يتحلّقون حول «القرّاية» ويتناوبون على قراءة فصول من الكتاب المقدّس، ثمّ يشتركون في زياح العذراء.

وكانوا في أيّام الصوم وفي مناسبات الأعياد الكبيرة، يقضون ساعات عديدة في الكنيسة. ولطالما تطلّبت الأناشيد والقراءات المختارة من العهدَين القديم والجديد وسير القديسين تمضية وقت طويل في رحاب الكنيسة.

كانت هذه الحياة تقرّبهم بعضهم إلى بعض. فيساعد أحدهم الآخر ويحترم أحدهم حقوق الآخر. تختفي المطامع الدنيوية ويعيشون كالأخوة. إذا نجح أحدهم في أمر، أسرعوا جميعهم يهنّئونه، وإذا وقعت به مصيبة هبّوا لنجدته. كانت هذه الحياة القروية على قسوتها، توفّر لكلٍّ واحد منهم أن يكون له ما يحتاج إليه أكثر من أيّ شيء آخر، أي أن تكون له قيمته ويكون محبوباً.

وعندما كانت روما تطلب من الموارنة أن يتخلّوا عن عاداتهم ويعملوا بعادات الكنيسة اللاتينية، كانوا يعتقدون أنّ التخلي قيد شعرة عن عاداتهم هو التنكّر لأقدس شيء عندهم. فكانوا يرفضون، ولا يقبلون بأن تُمَسّ تقاليدهم. أمّا وقد تخرّج في المدارس التي أسّستها الإرساليات مَن تخرّج، وفتحوا قلوبهم وضمائرهم وعقولهم إلى الغرب وعاداته، فقد أصبح لنداء روما مؤيّدون كثر.

وقد سعى هؤلاء إلى خلع الوشاح اللاتيني على الطقس الماروني، فضُربت الوحدة، ودبّت الفوضى في صفوف الموارنة. وإذا بتيّارَين بين الإكليروس الماروني. وإذا بتيّارين في كلّ رعيّة مارونية. وقد اضطرّت روما إلى أن تتدخّل مرّات عديدة لتحلّ المشاكل التي كانت تبرز بين الكهنة الذين تخرّجوا في المدرسة المارونية وبين أساقفتهم. وكان هؤلاء الكهنة يقولون إنّه لا تُسنَد إليهم مسؤوليّات يعملون على أساسها بنهضة الطائفة. وكان الأساقفة يقولون إنّ هؤلاء الكهنة يعملون أعمالاً تتنافى ومصلحة الطائفة.

شكّل هذا التطاحن الذي أوجدته الإرساليات في صفوف الموارنة، ظاهرة خطرة، ولّدت تضعضعاً في الشعب سيؤدّي إلى واقع مرير.

المجمع اللبناني

إن بروز جيلٍ مثقّف في قلب الجماعة المارونية، إلى جانب الشعب البسيط والمحافظ، وظهور الرهبانيات والأخويات كقوّة فاعلة في الرعيّة، هذا كلّه لم يكن دون أيّ تأثير. فقد تجلّى التنافس بين الأخوية وكاهن الرعيّة أوّلاً. ثمّ بين الدير والرعيّة. ولاحقاً بين الكهنة والأساقفة. وأصبح الكثيرون يتحدّثون عن الفتور والانقسامات، ويشكون الحالة التي آلت إليها جماعة المؤمنين. يعرفون أنّ هناك وضعاً غير طبيعي، لكنّهم لا يعرفون السبب، ولا كيفية المعالجة.

وقد عظمت الانقسامات، إلى حدّ أنّ ذلك أدّى في سنة ١٧١٣ إلى إزاحة البطريرك يعقوب عوّاد عن كرسيّه ثمّ أعاده إليه الكرسيّ الرسوليّ.

كثر التململ وزادت الرغبة في الإصلاح. وكان اسم المطران يوسف السمعاني قد لمع في روما، فتوجّهت الأنظار إليه واعتبره كثيرون منقذاً. وراحت الرسائل ترد إلى روما من أعيان الطائفة، من إكليريكيين وعلمانيين، يطلبون من البابا أن يرسل لهم يوسف السمعاني ليعمل على إصلاح الطائفة.

في سنة ١٧٣٤، رفع البطريرك يوسف ضرغام الخازن كتاباً إلى البابا كليمندس الثاني عشر طلب منه فيه أن يوفد يوسف شمعون السمعاني «فيأخذ على نفسه معالجة بعض شوائب طرأت على التهذيب البيعي ويتعهّد ما قد يراه مفتقراً إلى التسديد في الطائفة والإكليروس». فلبّى البابا التماس البطريرك وانتدب السمعاني قاصداً رسولياً في سبيل عقد مجمع إقليمي. وصل السمعاني إلى بيروت في صباح الأحد الواقع فيه ١٧ حزيران

١٧٣٦، وفي يوم السبت الواقع فيه ٣٠ أيلول ١٧٣٦ عُقِد المجمع اللبناني في دير سيّدة اللويزة.

حضر إلى «البطريرك والقاصد الرسولي، ١٢ من أساقفة الطائفة وأسقفان من الأرمن وأسقفان من السريان، ورئيس عام الرهبانية المارونية اللبنانية ومدبّروها الأربعة، ورئيس عام الرهبانية الأنطونية ومدبّروها الأربعة، وثلاثة من الرهبانية الفرنسيسكانية، وثلاثة من الرهبانية اليسوعية، واثنان من الرهبانية الكبّوشية، واثنان من الرهبانية الكرملية، و٢٤ من الرهبان والقسس والخوارنة، و٣٠ من آل الخازن، و١٢ من آل حبيش، و٧ من وجهاء الشعب الماروني وأعيانه» (الشرح المختصر، صفحة ١١٤).

استغرق انعقاد المجمع ثلاثة أيام، بُحِثت خلالها المواضيع التي تهمّ الطائفة، وقسمت أربعة أقسام. الأوّل بحث في قانون الإيمان وفي التعليم المسيحي والتبشير بكلام الله. الثاني تناول الأسرار في طقوسها واحتفالاتها وخادمها. الثالث تطرّق إلى الإكليريكيين وحياتهم وواجباتهم. وبحث الرابع في الكنائس وأرزاقها، إلى دور الرهبان والأخويات والمدارس. وقد وافق البطريرك والمجتمعون على أعمال المجمع ووقّعوا قراراته ورفعوها إلى البابا ليثبّتها ويقرّها بسلطانه.

تطرّق المجمع إلى كلّ المواضيع التي تهمّ الطائفة وأجاب عن كلّ ما كانت تحتاج إليه، وجاءت أبحاثه في ٥٥٥ صفحة من القياس الكبير. كانت مواضيع المجمع قد أُعِدّت في روما وأُخِذت في معظمها من مقرّرات المجمع التريدنتيني. فتُليت هذه الأبحاث على مسمع من البطريرك والأساقفة والكهنة وأعيان الطائفة، لكن ذلك كلّه تمّ بسرعة خاطفة ومن دون مناقشات.

لقد انعقد المجمع وأُنجِزت أعماله ومقرّراته بشكل لم يتسنَّ فيه للبطريرك وآباء المجمع أن يمعنوا النظر فيه مليّاً. وما كادت تنتهي جلساته، حتى بدأ الخلاف بين البطريرك والسمعاني.

كانت سلطة البطريرك تشمل الطائفة بأجمعها، بمن فيها الأساقفة والكهنة والرهبان

والشعب، فكان يعيّن الأساقفة ويعزلهم ويستبدلهم بغيرهم... فحدَ المجمع من صلاحيات البطريرك وأنشأ ثماني أبرشيّات وألزم المطارنة السكنى في أبرشيّاتهم وأعطاهم حصانة، مع سلامة سلطان البطريرك على رسامة الأساقفة بالشرف. أما الأبرشيّات فهي:

- حلب وتوابعها.
- طرابلس، وتمتدّ ولاية مطرانها من طرابلس والزاوية إلى عرقة وبانياس وأرواد واتنيرواد وجبلة واللاذقية حتى حدود حلب.
- جبيل والبترون، وتمتدّ ولاية مطرانها إلى أبرشية جبيل والبترون فالعاقورة فدير الأحمر وجبّة بشرّي.
- بعلبك، وتمتدّ ولايتها إلى أبرشيّة بعلبك والفتوح على حدود بلاد جبيل ونصف مقاطعة غزير وقصبتها غوسطا وغزير.
- دمشق، وتمتدّ ولايتها إلى أبرشيّة دمشق وإلى القسم الثاني من مقاطعة غزير وقصبتها عجلتون، وتشمل أيضاً بسكنتا وزوق الخراب وزبّوغا.
- قبرس، وتشمل كلّ قرى الجزيرة، ولها أيضاً في المتن بكفيّا وبيت شباب ومزارعها ثم باقي قرى المتن إلى جسر بيروت.
- بيروت، وتمتدّ ولايتها من بيروت إلى المتن والجرد والغرب وشحّار المتن إلى جسر مهر القاضي أي الدامور.
- صور وصيدا، وتشمل ولايتها صور وصيدا وتوابعها وشوف البقاع ووادي التيم وما جاورها من نهر الدامور إلى القدس.

ثمّ أعلن المجمع وجوب تخصيص الأديار الآتية في كسروان ببعض الأساقفة على الوجه الآتي:

دير مار شلّيطا بأسقف جبيل والبترون. دير القدّيس سركيس في ريفون بأسقف بعلبك. دير القدّيس أنطونيوس في عين ورقة بأسقف بيروت. دير القدّيس أنطونيوس في بقعاتا بأسقف قبرس. دير مار يوحنّا حراش بأسقف دمشق.

إلى ذلك، فقد سمح المجمع لكاهن الرعيّة بمباركة زيت مسحة المرضى، وربط الرهبان والراهبات بالكرسيّ الرسوليّ. وعندما رفع البطريرك اعتراضه إلى البابا مؤكّداً أن الأديرة المختلطة لا تشكّل خطراً على الحالة الرهبانية، وأنّ هناك حقوقاً اكتسبها عن أسلافه بقوّة الاستعمال، أهمّها ممارسة السلطة الكاملة على الطائفة بأجمعها بمن فيها الأساقفة والكهنة والرهبان والراهبات... تبيّن أنّ هناك خلافاً بين النسختين، النسخة العربية التي ناقشها آباء المجمع في دير اللويزة والتي تؤكّد صلاحيّات البطريرك، والنسخة اللاتينية التي رفعها السمعاني إلى البابا وصادق عليها والتي تحدّ من صلاحيّات البطريرك.

هل نجح المجمع اللبناني وقام بالإصلاح الذي كانت الطائفة تنشده؟

لقد أدّى المجمع اللبناني خدمات عظيمة للطائفة، فأرسى لها دستوراً ووقاها الفوضى والانقسامات، موضحاً الكثير من القضايا المثيرة للجدل.

إلاّ أنّه في المقابل، كان دعامة للتيّار الذي كان يدعو إلى الأخذ بالتقاليد اللاتينية. لم يستأصل المعضلة من أساسها، الأمر الذي سيثير من جديد النقاش والسجال، وسيظهر ذلك بوضوح عند أوّل قضية عالجتها الطائفة بعد المجمع، قضية حنّة عجيمي الملقّبة بهنديّة.

الراهبة هنديّة وأمرها العجيب

لعلّ أبرز المسائل التي واجهتها الطائفة المارونية في القرن الثامن عشر، تمثّلت في قضيّة الراهبة هنديّة. فمن هي؟

ولدت حنّة عجيمي في حلب سنة ١٧٢٠، وقبلت سرّ العماد وأُطلِق عليها اسم هندية. منذ السنة الثالثة من عمرها أخذت الطفلة تختلي بنفسها وتصلّي. ويوم شاهدتها أمّها ساجدة في إحدى زوايا البيت واستوضحتها الأمر، أجابتها هنديّة: «أنا أحبّ الله».

في الثانية عشرة من عمرها، انضمّت إلى أخويّة قلب يسوع التي يشرف عليها اليسوعيون، وكانت بدأت تتقشّف وتقمع جسدها وتضع شوكاً في سريرها وزنّاراً من حديد على جسدها.

نقلت هنديّة أنّ يسوع ظهر لها مرّات عديدة، وأنّها تحدثت معه، وقبّلت يديه، وأنّه ضمّها إلى صدره. وأكّدت أنّها كانت تشهده بعين الجسد، وأنّه قال لها أريد أن تكوني عروساً لي. وقد وضعت خاتماً في إصبعها للدلالة على أنّها تكرّست ليسوع.

كشفت هنديّة لمرشدها الأب أنطوان فانتوري، أنّها منذ الخامسة عشرة من عمرها، سمعت صوتاً يقول لها إنّها ستؤسّس جمعيّة من الرجال والنساء، في كسروان في لبنان. حاول مرشدها أن يبقيها في حلب فرفضت. وفي سنة ١٧٤٨، جاءت هنديّة إلى دير راهبات الزيارة في عينطورة في كسروان، الذي كان يشرف عليه اليسوعيون في ذلك الوقت، تاركةً وراءها في حلب شهرة قدّيسة.

حاولت راهبات الزيارة أن يقنعن هنديّة بالدخول في ديرهنّ فرفضت. ضغطن عليها،

وعُذِّبت حتى تملّكها المرض. وُضِعت في قبو مظلم حتى كادت تُجنّ من شدّة الخوف، لكنّها ظلّت على موقفها. حاول مرشدها اليسوعي في عينطورة أن يقنعها هو أيضاً، فلم يفلح. استُدعي مرشدها القديم الأب فانتوري من حلب وحاول بدوره إقناعها بالدخول في رهبانية الزيارة، فرفضت، وطلبت منه أن ينقلها إلى دير حراش.

أمضت هنديّة سنتين في دير حراش، لتلقى فيه المعاملة عينها التي وجدتها في دير عينطورة، فكادت تختنق من جوّ الكراهيّة والضغط.

في النهاية، اقتنع المطران جرمانوس صقر بأنّ هنديّة تحمل رسالة، وبأنّ الله أنعم عليها بمواهب وإلهامات. فشجّعها ووعدها بأنّه سيكون إلى جانبها. فاشترى دير بكركي ليكون مركزاً لجمعيّة قلب يسوع التي ستؤسّسها هنديّة ويكون هو مرشد الجمعية. وفي ٢٥ آذار سنة ١٧٥٠، اتّشحت هنديّة مع بعض من رفيقاتها بالثوب الرهباني بعدما ثبّت قانونه البطريرك سمعان عوّاد.

تبدّل موقف الآباء اليسوعيين تجاه هنديّة. فشنّوا عليها حملة عنيفة وسعوا إلى حلّ جمعيّتها. وبدأ الخلاف بسبب ذلك بين الموارنة واليسوعيين. وبعدما أمر اليسوعيون بإقصاء الأب فانتوري مرشد هنديّة إلى أوروبا، توسّط البطريرك لدى ملك فرنسا لويس السادس عشر ليبقى الأب فانتوري في لبنان.

تعاظمت الضجّة حول هنديّة. قال اليسوعيون إنّها مشعوذة، أمّا الموارنة فاعتبروها قدّيسة. في خضمّ هذا السجال، طلب البطريرك سمعان عوّاد من الخوري مخايل فاضل أن يزور دير بكركي ويبحث في أمر هنديّة. فقام الخوري مخايل بمهمّته ورفع تقريراً إلى البطريرك جاء فيه «أن إيمان هنديّة حيّ، ورجاءها ثابت، ومحبّتها كاملة وتواضعها عميق، وطاعتها كاملة، وطهارتها سامية، وقناعتها فريدة، ووداعتها مجيدة، وصومها شديد، وتقشّفها مفرط، وصبرها جميل، وأمانتها صادقة، وصلواتها العقلية واللفظية متصلة».

كان الخوري مخايل فاضل يتمتّع بصيت حسن، فكان لتقريره وزن كبير. عندها، أمر البطريرك بتلاوة هذا التقرير في الكنائس. فكان لهذا الحدث وقع عظيم. استشاط

اليسوعيون غضباً، وحملوا بعنف على البطريرك ورفعوا شكواهم إلى روما.

كانت الطائفة المارونية تشكو شيئاً من الفوضى، وقد عرفت انقساماً في صفوفها بعد انتخاب المطران سمعان عوّاد بطريركاً.

فبعد انتخاب المجمع البطريركي المطران عوّاد لهذا المقام الرفيع، ورفضه له، انتُخب المطران الياس محاسب بطريركاً، لكنّ المطران طوبيّا الخازن كان غائباً فاعترض على قانونيّة الانتخاب، وأيّده بعض الأساقفة وانتخبوه بطريركاً عليهم.

وإذا ببطريركَين للطائفة. وكان قسم من الشعب يؤيّد الياس محاسب وقسم آخر يؤيّد طوبيّا الخازن. لم يطل الأمر حتى حكم البابا ببطلان الإنتخابَين، وعيّن بسلطانه بصورة استثنائية، وتحاشياً لمزيد من البلبلة، المطران سمعان عوّاد بطريركاً، هو الذي كان قد تمّ انتخابه سابقاً. وقد استطاع البطريرك بحكمته أن يُعيد اللحمة إلى أبناء الطائفة، لكنّ جرح الانقسام لم يكن قد اندمل بعد، وخوفا من تدخّلات قد تعمل على شقّ الموارنة، أصدر البطريرك منشوراً حرم فيه الموارنة الذين يدخلون كنائس اليسوعيين.

تلقّى اليسوعيون في موقف البطريرك هذا، صفعة تُوجَّه إلى كلّ ما يقومون به من نشاط في الشرق، فاضطربوا وكتبوا إلى البابا بينيديكتوس الرابع عشر في هذا الخصوص. عاتب البابا البطريرك وأوفد الأب دازيداريو كمندوب خاصّ إلى لبنان، ليبحث في النزاع الواقع بين الموارنة واليسوعيين وينظر في أمر هنديّة.

استضاف البطريرك موفد البابا وسهّل له مهمّته. وبعدما زار الموفد البابوي دير بكركي وفحص قضيّة هنديّة، رفع تقريراً إلى البابا جاء فيه أنّ هنديّة «مارست جميع أفعال الفضائل. اتّضاعها نادر المثال. طاعتها عجيبة. لها ميزة خاصة في فضيلة الصبر. تقهر جسدها بالأصوام والأتعاب والأغذية. وهي فريدة في المواظبة على هذه الرياضة المقدّسة. احتشامها لا مثيل له. ممتازة في الوداعة ومحبّتها للقريب. لا تجارى في تعبّدها لسيّدتنا مريم العذراء عليها السلام».

كان لهذه الشهادة وزن، لكنّ اليسوعيين تدخّلوا مجدّداً لدى البابا، فأمر أن يتعمّق بعض

اللاهوتيين في المسألة، فجاء تقريرهم مناقضاً لحكم الأب دازيداريو في شأن هنديّة.

زادت الأزمة تعقيداً، فاضطرّ البابا أن يجمع الكرادلة ليضع حدّاً للازمة الناشئة.

التأم مجمع الكرادلة في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٧٥٥، وكان الموضوع المطروح النظر في أمرٍ بات يشكّل خطراً على الطائفة المارونية، وأثار ضجّة وانقساماً في روما نفسها. وبناءً على رغبة بعض الكرادلة، أصدر البابا أوامره بتعيين مرشد جديد لهنديّة. أطاع البطريرك رغبة البابا، لكنّ هنديّة ظلّت تسترشد سراً بالأب أنطوان فانتوري.

بعد موت البطريرك سمعان عوّاد، انتخب المجمع البطريركي في ٢٧ شباط ١٧٥٦، البطريرك طوبيّا الخازن خلفاً له. لم يُعِر البطريرك الجديد أيّ اهتمام لقضيّة هنديّة، لكنّه لم يستطع أن يخفي أمر هذه المرأة الذي أخذ يتعاظم ويتعاظم جدّاً، وقد أصبح دير بكركي محجّاً للكثيرين.

بعد موت البطريرك طوبيّا الخازن، انتخب المجمع البطريركي في ٩ حزيران ١٧٦٦ البطريرك يوسف اسطفان خلفاً له. وفي سنة ١٧٦٨، منح البابا كليمندس الثالث عشر هنديّة وراهباتها وجميع الذين يزورون دير بكركي غفرانات كثيرة. فعظم أمرها وكثر عدد الزائرين.

وكان أن بدأ البطريرك الجديد مهمّته بتهذيب الكهنة في سبيل نهضة الطائفة، وحوّل في سنة ١٧٨٩ مدرسة عين ورقة إلى إكليريكية، وكانت نيّاته إصلاحية. وبارك هنديّة وشجّعها، ووجد مناوئوه في هذا الأمر سبباً للطعن في الحركة الإصلاحية التي بدأها. فحملوا عليه بعنف، وراحت الرسائل في حقّه ترد مجدّداً إلى روما، وجاء في بعضٍ منها أنّ البطريرك يسجد أمام هنديّة ويطلب بركتها.

أرسلت روما موفداً ليستقصي الأمر، ثمّ أرسلت موفداً ثانياً. فكان أن برّأ كلاهما البطريرك من التهم التي أُلصِقت به. فعمد أعداء البطريرك إلى أساليب أخرى، وانضمّ إلى اليسوعيين بعض الأساقفة وأخذوا جميعاً يعرقلون أعمال البطريرك. عظمت البلبلة. فكانت النتيجة أن «أصدر البابا بيّوس السادس أمراً مؤرّخاً في ٢٥ حزيران ١٧٧٩ يقضي

بإلغاء رهبانيّة هنديّة... وموجباً اللوم الشديد على البطريرك لتغاضيه عنها، وحمايته لها. وأمر بتوزيع الراهبات على أديرة كسروان...» (الدبس، صفحة ٢٩١).

وكان على البطريرك أن يوقّع المرسوم القاضي بحلّ جمعيّة هنديّة، فتهاهل بعض الشيء. فوصلت إثر ذلك إلى روما شكاوى كثيرة، أوجبت استدعاءه. لبّى البطريرك الدعوة، وسافر من طريق يافا، بعدما أُوقف عن التصرّف بصلاحيّاته البطريركية. في يافا مرض البطريرك، فتوقّف عن إكمال طريقه. وفي النهاية وقّع مرسوم طاعته للبابا، فأعيد مكرّماً إلى منصبه. أمّا هنديّة، فقد عيّن لها دير سيدة الحقلة مسكناً، حيث قضت حياتها بالتوبة والورع. وكانت وفاتها فيه سنة ١٨٠٢.

ماتت هنديّة، لكن قضيّتها لم تنته. فظلّ الناس يتحدّثون عنها فيقول بعضهم إنّها قدّيسة، ويقول آخرون إنّها مشعوذة. مات البطريرك يوسف اسطفان في ٢٢ نيسان سنة ١٨٩٣، فانتُخِب بعده المطران مخايل فاضل ثمّ المطران فيليبس الجميل، ثمّ المطران يوسف التيّان، ثمّ المطران يوحنا الحلو... بطاركة، وبقيت قضيّة هنديّة على كلّ شفة ولسان.

ترى هل هي قدّيسة؟ هل هي صاحبة رسالة؟ هل هي مشعوذة، هذه الراهبة التي خضّت الطائفة المارونية مدّة أربعين سنة وكانت شغلها الشاغل؟ لقد حار الناس في أمرها ولا يزالون.

كانت هنديّة ذات شخصيّة قويّة. وإذا كان لها مؤيّدون متصلّبون ومناوئون عنيفون، فلأنّ الطائفة كانت تشكو الإنقسامات في صفوفها.

عاشت هنديّة في أيّامٍ نشأت فيها الرهبانيّات في الطائفة المارونية، وفي زمنٍ كان التطاحن بين الحضارتَين الغربية والشرقية على أوجه، فكان لهذين الحدثَين وقعٌ كبير على الرعيّة. وكانت هنديّة صورة حقيقية لما كانت تعيشه الطائفة المارونية من تمزّق وانقسام، بسببٍ من ممارسات الصليبيين أوّلاً، والإرساليّات ثانياً.

على درب الجلجلة

بعد خراب كسروان على أيدي المماليك، استقرّ الموارنة في شمال لبنان، كما في أعالي بلاد جبيل والبترون، وأقاموا فيها هياكل الله على الأرض.

استوطنوا الوهاد والوديان، وجعلوا الجبال سقوفهم الشاهقة. دخلوا قدس الأقداس، وانصرفوا إلى شؤونهم الخاصّة يتعاملون مع الطبيعة، فلاحةً وزرعا، آخذين من الصخر المفتَّت على أيديهم صلابةً، وعارفين أن يروا في وجه هذه الأرض وجه الله.

أقبل الموارنة على الصلاة، وكانت الرعيّة تجمعهم وتوحّدهم بقيادة البطريرك والأساقفة. وكان البطاركة يخلفون أحدهم الآخر من دون أن يكون للدولة أيّ تدخّل. وكانت الطرق مفتوحة بين الكرسيّ البطريركيّ وروما، يرسل البطريرك كهنة لزيارة الأعتاب الرسولية، ويوفد البابا قصّاداً يتفقّدون شؤون الطائفة.

أمّا المقدّمون فكانوا يديرون شؤون الشعب الزمنية، ويفصلون ما كان يحصل بينهم من منازعات. لا تتدخّل الدولة في تعيينهم، وكانوا يتوارثون المناصب أباً عن جدّ.

عرف الجبل اللبناني أماناً وازدهاراً، إلاّ أنّ حياة الشعب فيه كانت دائماً محفوفة بالأخطار. تدلّ الكنائس الصغيرة ذات الأبواب الضيّقة والقليلة الارتفاع التي لا يزال بعضها قائماً في شمال لبنان حتّى اليوم، على أنّ الموارنة كانوا يتوجّسون من دخول الأعداء الكنائس راكبين الأحصنة ومدنِّسين حرماتها.

كانت هذه الأبواب الضيّقة والقصيرة تقف حاجزاً معنوياً في وجه المعتدين الظالمين، أقلّه لمنع التدنيس، لكنّ العبث بالكنائس ومحتوياتها وإهانة المؤمنين وسوقهم إلى السجون

كان يسجَّل في نواحي إقامة الموارنة. وما تشييد كنيسة مار لابا الأثرية في حصرون، على سبيل المثال، إلاّ شهادة ناطقة على التخوّف من هذه التصرّفات. إذ أقيمت في مكانٍ يوجب الانحناء، بحيث أنّ الدخول إليها كان يشبه حال مَن ينزل عبر درج إلى دهليز يقود المؤمن مسافة متريَن تحت الأرض.

إلاّ أنّ الشدائد لم تُحِد الموارنة عن إيمانهم، بل ازدادوا اقتناعاً بأنّ الدرب إلى المسيح يتطلّب منهم الشهادة على الدوام، وبذل كلّ شيء في سبيل هذا الإيمان. هكذا كان الموارنة يرفعون أصواتهم إلى الله صوتاً واحداً لينجّيهم من الأخطار وليكملوا الشهادة، ويعلنوا اسمه بين الشعوب، آخذين من أعمال الرسل ما ينير خطاهم ويشدّد عزائمهم في الدروب الوعرة. «فعلى أثر إيداع بطرس ويوحنّا السجن، رفع المؤمنون أصواتهم إلى الله بقلب واحد، وطلبوا العون ليتابع الرسل رسالتهم»؛ و«أنظر الآن ربّنا إلى وعيدهم وأتِح لعبيدك أن يعلنوا كلامك برباطة جأش» (أعمال ٤/ ٢٩). على هذا المثال، تتضمّن الليتورجيا المارونية صلوات كثيرة مشابهة، تنمّ كلّها عن روح محبّة وقوّة إيمان.

فكم كانوا ينشدون ما جاء في **نافور يوحنا الرسول**: «خلِّص أيّها الربّ الاله الحقيقي رعيّتك من الضربات المفجعة والقاسية والمميتة، ونجِّها من الشعوب... الذين لا يعرفون اسمك القدّوس ولا يعتقدون بلاهوتك. ودبِّرها بيمينك القادرة على كلّ شيء... نجِّ يا ربّ نفوس عبيدك من كلّ التجارب الصعبة ومن الناس الأشرار العاتين».

وكم كانوا يردّدون مع **نافور القديس مرقس**: «اهدِ وخلِّص برحمتك يا ربّ المضطهدين والمسبيين من رعيتك»، و«اسعف المساكين والمكتئبين وأشبع الجياع واحفظ كلّ من يدعون اسمك القدّوس».

ويناجون إلههم، مستعينين بـ**نافور مار خوسطس**، صارخين: «لا تُعرِض اللهمّ عن ضيق البائسين وصراخ المساكين ومقاساة المتضايقين وعناء التعبين».

هذا كلّه، وسواه، نراه في طقوسهم ورتبهم وصلواتهم. وليس أدلّ على ذلك، ممّا جاء في **القدّاس الماروني**: «ردَّ يا ربّ بصلوات أمّك عن الأرض وجميع سكّانها ضربات الغضب.

لاشِ الأخطار والإضطرابات. امنعِ السيف والسبي والمجاعة والوباء. تحنَّن علينا نحن الخطأة. افتقِدنا نحن المرضى. ساعِدنا نحن المساكين، أنقِذنا نحن المظلومين، وأرِح الموتى المؤمنين الذين انتقلوا من بيننا، وامنحنا آخرة صالحة، لنرفع لك المجد الآن وكلّ أوان والى الأبد».

كلّ هذه الصلوات كانت تعكس مدى تعرّض الموارنة للظلم ومدى تعلّقهم بالله وإيمانهم بقدرته على مواجهة الاضطهاد وتأمين سبل الخلاص. وهي تؤكّد أنّ الموارنة كانوا يتخطّون الشدائد التي كان يُنزلها فيهم أعداء المسيحية؛ وفي هذا السياق أوجدوا الأوقاف لمساعدة المسكين والأرملة واليتيم، وحقّقوا في رعاياهم ما حقّقه المسيحيون الأوّلون من وحدة وألفة في كنيسة أورشليم.

أمّا لماذا بدأت الخلافات في صفوف الموارنة، وما هي الأسباب التي أوجدت بعض الشوائب في حياتهم المسيحية، فمسألة يجب التوقّف عندها، لأنّها تتعلّق بعمل الدنيا. وكجميع بني البشر، عمل الضعفُ البشري في نفوسهم، فبُثّت الفرقة في صفوفهم، وحلّت الصغائر، وكثرت الضغائن، فتفرّقوا جماعاتٍ وشيعاً، وتضعضع إيمانهم. وبدل أن يضعوا نصب أعينهم درب المسيح، غرقوا في فتن أهل الأرض والحياة الفانية. وكاد هذا التيه الدنيوي أن يُكمل فعله في النفوس، لولا ما يمكن اعتباره تدخّلاً من الروح القدس في حياة الموارنة لإعادتهم إلى درب الشهادة القويّة للمسيح. وقد تمثّل ذلك «التدخل» في ما يمكن تسميته بـ«روح قنّوبين». إلاّ أنّ ذلك لم يحدث إلاّ بعد انحطاطٍ عظيم أصاب الموارنة.

من علامات هذا الانحطاط، ما يأتي:

في سنة ١٥١٩، توفّي الياس مقدّم بشرّي تاركاً ولداً صغيراً اسمه يوحنّا. فاستولى على المقدّمية كمال الدين عبد الوهّاب المعروف بابن عجرمة، من أيطو.

كان مقدّم بشرّي يحكم المنطقة وحده، وها إن المنطقة تنقسم بعد وفاته منطقتين، شمالية وجنوبية. حكم المقدّم ابن عجرمة المنطقة الشمالية وسكن أيطو. وصارت المنطقة الجنوبية في عهدة المقدّم يوحنّا الذي أخذ اسم جدّه عبد المنعم، وسكن بشرّي. «ولمّا كبر يوحنّا

واطّلع على أعمال ابن عجرمة، أراد أن ينتقم منه ويستعيد ولاية أجداده. وفي سنة ١٥٣٧، وأثناء عقد اجتماع ضمّ المقدّمين في بلدة بلوزا، هجم المقدّم يوحنّا على المقدّم ابن عجرمة وقتله».

«وأرادت ستّ الملوك، زوجة المقدّم ابن عجرمة أن تثأر لدم زوجها، فاستعانت بالشيخ حمادة، وبنصارى عين زحلتا، فكمنوا للمقدّم يوحنّا وقتلوه. وبعد هذه الأحداث، كان لا بدّ من أن تضع الدولة حدّاً للفوضى والانقسامات. فتدخّل الأمير منصور العسّاف وعيّن رزق الله ابن حسام العنهلاني مقدّماً على جبّة بشرّي. وهكذا مدّت يد هذا الحاكم الأجنبي إلى حكومة جبّة بشرّي والى الموارنة، وأخذ منذ ذلك الحين يقيم عليهم الحكّام منهم، مع مراعاة استقلالهم في كلّ شيء» (دريان، صفحة ١٤٦).

و«في سنة ١٥٧٠، كان مقتل رزق الله وأخيه عاشينا مقدّمَي بشرّي. وكان المقدّم رزق الله قد تولّى المقدّمية من قبل الأمير منصور بن عسّاف. وكان يغار على عمار البلاد وتحصيل المال السلطاني. ولكن صارت الفتنة بينه وبين أخيه عاشينا، بسبب أنّ هذا الأخير كان جاهلاً ينهب ويقتل ولم يعفّ عن سوء. وكان اللوم يعود كلّه على رزق الله حاكم الناحية. وتوتّرت الأمور بينهما. فصعد البطريرك مخايل وصالحهما، وأعاد عاشينا إلى حارته. وإذ لم يكفّ هذا عن طريقته الأولى، نفرت منه قلوب الناس وقدّمت فيهم السعاة إلى نايب طرابلس. فرزق الله ليخلص من شره، دبّر على قتله وبعث عزمه لعنده إلى البرج التحتاني. وكان تآمر مع ناس من الضنّية الذين كمنوا له داخل البرج. فلمّا دخل عاشينا البرج وثبوا عليه وأماتوه. وحين سمع بذلك البطريرك صعد إلى بشرّي وحرم رزق الله بصوت صارخ بسبب أنّه تآمر على هلاك أخيه» (الأزمنة، صفحة ٤٣٦).

بعد مقتل رزق الله تدخّل الأمير منصور من جديد، فولّى مكانه على جبّة بشرّي أخويه داغر وعساف، اللذين قتلا. «فولّى بعدهما رجلاً من غير سلالتهما يقال له أبو سلهب القريعي. فلم يرض الشيخ أبو منصور حبيش على تولية القريعية، وكان كأخ الأمير وله عنده الكلمة النافذة. فتسبّب بعزل أبي سلهب هذا عن ولاية الجبّة وبتسليمها إلى المقدّم

مقلّد ابن الياس. وقد أشرك معه في الحكم الشدياق يوسف أبي رعد المسمى «خاطراً» وهو ابن الشدياق شاهين الحصروني من بيت مشروق» (دريان، صفحة ١٤٧).

وفي سنة ١٥١٦، أصبح العثمانيون الأتراك حكّام البلاد، وأبقوها على التقسيمات الإدارية التي أنشأها المماليك. هكذا ظلّ الموارنة تحت حكم مقدّميهم تابعين لولاية طرابلس. لكنّ المقدّمية لم تعد وراثية كما كانت عليه، بل تُعرَض على مَن يوالي الأتراك ويدفع ثمنها. فكثرت المزاحمة بين زعماء الموارنة على الحكم، وبرز اسم الشيخ أبو رزق البشعلاني، فعيّنه والي طرابلس في سنة ١٦٥٢ مستشارا له، «وفوّض إليه كل أموره وضمن بلاد عكار والزاوية والضنية والجبة التي سلّمها إلى أخيه الشيخ أبو صعب، والكورة إلى الشيخ سعيد ابن علي حمادة. وصار للشيخ أبو رزق سلطة كبيرة تدقّ قدّامه النوبة في طرابلس، ونودي باسمه أنّه شيخ المشايخ...» (الأزمنة، صفحة ٥٣٥). حسده أهل أمّته، وكثرت الشكاوى في حقّه. وكان أن اشتدّت الخصومات في صفوف الموارنة إلى درجة أنّهم أسندوا منطقة بشرّي في سنة ١٦٥٥ إلى مقدّم شيعي، هو الشيخ أحمد عيادة.

قنّوبين: الطريق والهداية

عايش البطاركة بألم ذلك الشقاق الحاصل داخل رعاياهم. لكنّهم تركوا الروح القدس يفعل فعله. وفيما كانوا يرئسون صلوات القرّاية التي تدور على ما عاناه يسوع من آلام في طريقه إلى جبل الجلجلة، كانوا بما حملوه من هموم ومتاعب، يشاركون يسوع اعتقاله في بستان الزيتون وسكوته أمام بيلاطس، وضفر هامته بإكليل من شوك، وحمله الصليب.

ذهابهم إلى قنّوبين، كان في ظاهره وواقعه لجوءاً، وفي دلالاته العميقة تقرّباً من المسيح، وعودةً عن جنوح. كلّ شيء في قنّوبين كان يدعو النفس إلى الله وإلى الزهد. وكانت الصلوات ترتفع مطبوعةً بطابع الألم والتنهّد فينقل الوادي أصداءها، وتردّد الصخور آياتها... درب آلام وجلجلة.

هناك في ذلك الوادي، لا مكان إلاّ لعمل الروح في الإنسان والأرض. مَن يزور وادي قنّوبين اليوم يشعر برهبة خفية، كأنّه يقف أمام الله، فيكتشف جوهر ما طلبه الموارنة واكتفوا به على رغم ما عرفوه من عنّات وزلاّت، وقالوا مع بولس الرسول: «لم نأت العالم ومعنا شيء، ولا نستطيع أن نخرج منه ومعنا شيء. فإذا كان لدينا قوت وكسوة فعلينا أن نقنع بهما» (أولى طيموطاوس ٦/ ٧).

وادي قنّوبين هو وادي الخشوع والزهد والفقر والتأمّل والتفرّغ للعبادة. إنّه المكان الذي تطلبه الروح لإقامتها، والمسيحية لنشر رسالتها. لأجل ذلك يكتفي المؤمنون هناك بمغارة يأوون إليها وببعض الأعشاب يقتاتون بها وبثياب يسترون بها أجسادهم.

هناك ترخص خيرات الدنيا. هناك يصلّي المؤمن ويخشع أمام ربّه.

هناك في وادي قنّوبين، صلّى البطاركة وصاموا وسهروا. هناك عقدوا مجامع. هناك استقبلوا قناصل العالم. هناك استقبلوا الموفدين البابويين. هناك كتب البطريرك الدويهي تاريخ الطائفة المارونية. هناك عقد بطريركٌ آخر اجتماعاً له مع أساقفته بحثوا فيه كيف يختبئ من دوريّات الأتراك. وهناك التقى بطريركٌ آخر أساقفته ليتسلّموا رسالة باللاتينية من الحبر الأعظم، ولينتظروا بعدها سنة أو سنتين ليجدوا من يقرأها لهم فيفهموا مضمونها.

هناك في قنّوبين، حيث تستطيع الحرّية، حرّية الإيمان والمعتقد والتفكير والرأي، أن تجد مبتغاها وملاعبها مع النسور. هناك حيث المعابر الضيّقة والمخيفة التي وقفت حاجزاً في وجه جيوش الأتراك والتي سلكها الموارنة كلّ يوم سعياً وراء لقمة العيش ولقمة الإيمان والحرّية. هناك المنحدرات الحادّة الهائلة. هناك الحفافي الكثيرة الإنحناء والقليلة التراب التي جعلها الموارنة جنائن ليأكلوا خبزهم بعرق جبينهم والتي جعلتهم يقولون بثقة وخوف «أعطِنا خبزنا كفاف يومنا». هناك، حيث ارتضى الموارنة شظف العيش ليحافظوا على حرّيتهم وإيمانهم.

لكنّ وادي قنّوبين الذي كابد المؤمن المشقّات ليعيش فيه، هو الوادي الذي التصقت مشارفه الشاهقة بالسماء، فساعد المؤمن على أن يرفع عقله وقلبه إلى العلى، عارفاً أنّ الله وحده هو الرجاء، وأن بعد الموت القيامة. فكما تألّم الموارنة مع المسيح تمجّدوا معه.

خضع البطاركة في قنّوبين لرئيس الكنيسة خضوعهم للمسيح. فكتب البطريرك سركيس الرزّي في سنة ١٥٥٦ رسالة إلى البابا أكّد له فيها ولاءه التامّ، وأكّد أنّه يتبعه حتّى إلى جهنّم.

لعلّ خضوع البطاركة الموارنة هذا، للبابا، عندما بدا الخضوع له ضرباً من المستحيل، كان شهادة حقّ ومثالاً حيّاً لإيمانهم، فأعاد المسيحيون الغربيون النظر في موقفهم المتعنّت من الموارنة، بعدما وجدوا أنّهم مؤمنون مثلهم بالكرسيّ الرسوليّ وبالكنيسة الكاثوليكية.

كان موقف الموارنة هذا، السبب الرئيسيّ لفتح خطٍّ جديد لمسيحيي الشرق مع روما. فارتبط السريان بالكرسيّ الرسوليّ في سنة ١٥٧٦ وجاؤوا إلى لبنان في سنة ١٧٧٦. وارتبط

الروم الكاثوليك بالكرسيّ الرسوليّ في سنة ١٧٢٤ وجاؤوا إلى لبنان.

عاشت الطائفة المارونية في وادي قنّوبين أصعب حلقة من تاريخها الطويل. فشكّل هذا الوادي مدرسة تعلّم فيها الموارنة أن يتبعوا يسوع على أكمل وجه ويطابقوا حياتهم على حياته. فكان حضورهم في قنّوبين كالإزميل الذي يعمل في تمثال من رخام، في كنيسة تُنبت قدّيسين على مدى الأجيال ولا تملّ.

وادي قنّوبين الذي طبع الموارنة الأقدمين بطابع خاصّ يجب أن يبقى المحجّة لموارنة اليوم لكي يتابعوا المسيرة ويؤدّوا الشهادة.

القسم الرابع

البطريركية المارونية في الديمان وبكركي

من سنة ١٨٢٣ إلى اليوم

محاولات إصلاح

يوم امتدّت يد التفرقة إلى صفوف الموارنة وأخذت تعمل على إقامة الحواجز بين الأخ وأخيه، راحت تظهر إلى العلن مبادرات إصلاحيّة تعمل على توطيد المحبة.

ويوم رفع البطريرك يوسف ضرغام الخازن تقريراً إلى البابا يطلعه فيه على ما وصلت إليه أحوال الطائفة من فوضى، ويعرض عليه عقد مجمع، كان بذلك يحقّق أمنية كلّ ماروني. يومها، اعتُبِرت أعمال مجمع العام ١٧٣٦ الأكثر وفاءً لتطلّعات الطائفة المارونية، بحيث حاولت وضع حدّ للفوضى وتسوية الأمور التي كانت عالقة. لكن سرعان ما تبيّن أنّ الإصلاح المنشود لم يتمّ، وأنّ الطائفة بقيت في مهبّ الأوضاع الصعبة.

شقّ على الشعب الماروني، وفي المقدّمة بطاركته والأساقفة والكهنة، ما وصلت إليه الطائفة من أحوال، وما شعر به من خيبة أمل بعد المجمع اللبناني. فرغب هذا الشعب رغبة صادقة في أن يعود إلى الطائفة بريقها وصفاؤها.

كانت روما من جهتها تحثّ البطاركة والأساقفة على النهوض بالطائفة، وتطلب التقيّد بالمقرّرات. فعمل كلّ بطريرك على السير بخطى الإصلاح، وقد جاءت كلّ المجامع التي التأمت تباعاً في هذا السياق، تنفيذاً لما قرّره المجمع اللبناني.

عقد البطريرك سمعان عوّاد ثلاثة مجامع. التأم الأول في العام ١٧٤٤ في دير بقعاتا في كسروان. أمّا الثاني فعُقِد في بكركي في ١٠ نيسان ١٧٤٧. وانعقد الثالث في قنّوبين في الثامن والعشرين من تشرين الثاني ١٧٥٥.

في ٢٨ شباط ١٧٥٦، عقد البطريرك طوبيّا الخازن مجمعاً في عينطورة في كسروان جاء

فيه: «قد قبلنا وارتضينا بتقسيم الأبرشيات بناءً على أمر الكرسيّ الرسوليّ ومراسيم البابا بندكتوس الرابع عشر الصادرة في ١٤ شباط سنة ١٧٤٢ وفي ٦ آذار ١٧٥٤».

في ١٦ أيلول من العام ١٧٦٨، عُقِد مجمع برئاسة البطريرك يوسف اسطفان في دير مار يوسف الحصن في غوسطا. وفي العام ١٧٧٩ عقد البطريرك يوسف اسطفان مجمعاً في ميفوق، وآخر في العام ١٧٩٠.

في العام ١٨١٨ عقد البطريرك يوحنّا الحلو مجمعاً في دير اللويزة تُليت في الجلسة الأولى منه البراءة وتتضمن الآتي: «افتراق الرهبان عن الراهبات الكائنين في الديورة المضاعفة. تدبير الكرسيّ البطريركيّ. تعيين كراسي ثابتة إلى كلّ مطران في أبرشيته». وانعقد مجمع آخر في ١١ و١٢ و١٣ من نيسان العام ١٨٥٦.

تعاقب البطاركة، وحاولوا جميعهم أن يصلحوا في أحوال الطائفة.

البطريرك يوسف التيّان شعر بأنّه لم يفلح، فاستقال من منصبه وأمضى حياته في الصلاة والخدمة.

البطريرك يوحنّا الحلو لم يوفَّق كثيراً في هذا الإطار.

أمّا البطريرك يوسف حبيش، فاستطاع أن ينفّذ قوانين المجمع اللبناني وكلّ المجامع التي التأمت من بعده. شجّع العمل في الرعيّة وأمر الكهنة بأن يعظوا الشعب، وفصل نهائياً بين الرهبان والراهبات، الأمر الذي علّقت عليه روما أهمية كبيرة، وجعل كرسيّه البطريركيّ شتاءً في بكركي وصيفاً في الديمان، وألزم كلّ أسقف أن يكون في أبرشيته.

ولكن، على الرغم من هذا كلّه، ظلّت الطائفة تشكو الانقسامات في صفوفها، والفتور في إيمان أبنائها. وكان السؤال: ترى، ألا يمكن أن يعود إلى الطائفة بهاؤها الأول؟

تعاقب على الكرسيّ البطريركيّ في الديمان صيفاً وبكركي شتاءً، عشرة بطاركة هم:

- يوسف حبيش من ساحل علما (١٨٢٣–١٨٤٥)

بنى مقرّاً بطريركياً في الديمان في جبّة بشرّي وأقام فيه صيفاً. أوّل بطريرك شرقي يهدي إليه الباب العالي في اسطنبول «النيشان العثماني المرصّع»، فقبله بتحفّظ ووضعه في صندوق

ولم يزيّن به صدره يوماً. حارب الحكم المصري والمظالم التي ارتكبها، وفي عهده أنشئ نظام القائمقاميتين الذي رفضه مطالباً بإبقاء جبل لبنان موحّداً.

- يوسف راجي الخازن من عجلتون (١٨٤٥–١٨٥٤)
- بولس مسعد من عشقوت (١٨٥٤–١٨٩٠)

هو الكاتب والمؤرّخ، تلميذ المدرسة المارونية. في عهده جرت ثورة الفلاحين في كسروان في العام ١٨٥٨ المعروفة بثورة طانيوس شاهين، وحوادث ١٨٦٠ وإقرار نظام المتصرّفية وثورة يوسف بك كرم.

- يوحنا الحاج من دلبتا (١٨٩٠–١٨٩٨)

بنى دير بكركي في حلّته الحاضرة وكان بوشر بناؤه زمن البطريرك حبيش وأقام فيه معظم أيام السنة، وصيفاً في الديمان. في عهده تجدّدت المدرسة المارونية في روما في العام ١٨٩١.

- الياس الحويك من حلتا (١٨٩٩–١٩٣١)

محقّق دولة لبنان الكبير. تلميذ المدرسة المارونية. شيّد المقرّ البطريركيّ في الديمان في حلّته الحاضرة، فأصبح المقرّ البطريركيّ الرسميّ صيفاً وصرح بكركي المقرّ الشتويّ. من يوم انتخابه وضع إستقلال لبنان هدفه الأوّل، فكانت كلمته الأولى بعد تسلّمه عصا الرعاية التي أصبحت مضرب مثل: «سأبذل جهدي وراحتي بل وحياتي في سبيل شعبي وكنيستي». اضطهده جمال باشا السفّاح، حاكم لبنان العثماني خلال الحرب العالمية الأولى وكاد أن ينفيه. ترأس في العام ١٩١٩ أوّل وفد لبناني إلى مؤتمر الصلح في باريس وإليه يعود الفضل في توسيع حدود لبنان الحالية.

- أنطون عريضة من بشري (١٩٣٢–١٩٥٥)
- بولس المعوشي من جزين (١٩٥٥–١٩٧٥)

أوّل بطريرك مارونيّ يصبح كاردينالاً في العام ١٩٦٥. وفي عهده رفِّع الأب شربل مخلوف إلى مرتبة الطوباويين.

• أنطونيوس خريش من عين ابل (١٩٧٥-١٩٨٦)

انتُخب في ٣ شباط ١٩٧٥ قبل أشهر من إندلاع الحرب اللبنانية، وهو ثاني بطريرك مارونيّ يصبح كاردينالاً. شهدت حبريّته ويلات الحرب اللبنانية وما رافقها من مآسٍ طالت الشعب المسيحي، كما رُفِّع خلالها الطوباوي شربل مخلوف في العام ١٩٧٧ إلى مرتبة القدّيسين وأُعلنت الراهبة رفقا الريّس طوباوية في العام ١٩٨٥. قدّم استقالته في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٥، فبادر الكرسيّ الرسوليّ إلى تعيين راعي أبرشية صيدا ودير القمر المارونية المطران ابراهيم الحلو مدبّراً رسوليّاً للكنيسة المارونية، ما دفع معظم المطارنة لرفع كتاب إلى حاضرة الفاتيكان يعلنون فيه عدم تحبيذهم فكرة تعيين بطريرك، فكان لهم ما أرادوا.

• نصر الله صفير من ريفون (١٩٨٦-٢٠١١)

محقّق إستقلال لبنان الثاني، وهو ثالث بطريرك مارونيّ يصبح كاردينالاً. تسلّم عصا الرعاية المارونية والحرب في أوج استعارها والضربات تتوالى على شعبه، فاستطاع قيادة طائفته ووطنه في أقسى الظروف. في التسعينات من القرن المنصرم، بقي صوته الأعلى والأصلب، مطالباً بحرّية لبنان وسيادته واستقلاله. في عهده أُعلنت الطوباويّة رفقا قدّيسة في العام ٢٠٠١، والأب نعمة الله الحرديني طوباوياً في العام ١٩٩٨ ومن ثمّ قدّيساً في العام ٢٠٠٤، والأب يعقوب الكبوشي طوباويّاً في العام ٢٠٠٨، والأخ إسطفان نعمه طوباويّاً في العام ٢٠١٠. وفي عهده، في أيّار ١٩٩٧، زار لبنان قداسة الحبر الأعظم البابا يوحنّا بولس الثاني. وفي أواخر العام ٢٠١٠ قدّم استقالته إلى حاضرة الفاتيكان بسبب تقدّمه في السن، ولا يزال يقيم في دير سيّدة بكركي شتاء، في الديمان صيفاً.

• بشارة الراعي من حملايا (٢٠١١ -

انتخبه مجلس الأساقفة في ١٥ آذار ٢٠١١، فأطلق شعاره «شركة ومحبة». عيّنه البابا بينيديكتوس السادس عشر كردينالاً وهو الكاردينال المارونيّ الرابع، والأوّل المارونيّ والشرقيّ في العصور الحديثة الذي يشارك في انتخاب بابا جديد عام ٢٠١٣، عندما شارك

في انتخاب البابا فرنسيس. في عهده زار البابا بينيديكتوس السادس عشر لبنان ما بين ١٤ و١٦ أيلول ٢٠١٢، وهو لا يزال يقود مسيرة طائفته إلى برّ الخلاص، على رغم صراعات قادتها وتنافر زعمائها وتشتّت رعاياها.

رغب جميع هؤلاء البطاركة في الإصلاح وعملوا من أجله، وكان هاجسهم الأوّل استقلال لبنان، وتعبيد مساراته. لكنّ وضع لبنان كان يدعو إلى القلق.

الطريق إلى وطن

ينساب تاريخ لبنان منذ القدم بين المتعرّجات المتناقضة والأهواء المتناحرة. يغنّيه سليمان في **نشيد الأناشيد** كمشتهى للعيش، ويجبره ملوك آخرون على فتح أبوابه «لتأكل النار أرزه».

عزّز الفينيقيون موقع لبنان على خريطة الطموحات، فتفاعلوا شمالاً مع البابليين، وجنوباً مع الفراعنة، وامتدّوا بحراً حاملين إلى العالم الأبجدية والأرجوان.

لم يطلب الفينيقيون سلطة، ولم يحلموا بأمبراطورية، بل استهواهم الإبحار والاكتشاف والتبادل والترقّي. وعلى رغم سلميّة طموحاتهم، طمع الغزاة بمدنهم، من المصريين والحثّيين، إلى الأشوريين والكلدانيين والفرس والرومان، يهدمونها بغزواتهم لتنتفض وتتألّق مجدّداً على الدروب البحرية والبرّية.

قصد المسيح صور وصيدا مبشّراً، فتأسّست فيهما الجماعة المسيحية الأولى، ومنهما توسّعت. تبنّى الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير (٣٠٦ -٣٣٧) الدين الجديد، فانتشرت المسيحية.

على وقع الفتوحات العربية في العام ٦٣٥، امتدّت الديانة الإسلامية من الجزيرة العربية إلى سوريا وفينيقيا وفلسطين ومصر. وشكّلت الفترات بين المدّ البيزنطي وجزره، ثمّ من الفتح العربي الإسلامي إلى الحملات الصليبية في العام ١٠٩٧، والحملات المملوكية المضادة من ١٣٠٢ إلى ١٣٠٧، مراحل مهمّة في تكوين التنوّع الديني والحضاري في لبنان.

في فترات لاحقة، ثبّت انتصار العثمانيين على المماليك في معركة مرج دابق في العام

١٥١٦، معادلة جديدة في نواحي جبل لبنان. وفيها اعتمد العثمانيون سياسة الإمساك مركزياً بسلطتهم المترامية الأطراف، حافظ جبل لبنان على استقلاله الذاتي، يترسّخ حيناً، ويتآكل أحياناً أخرى.

بعدما ضعفت شوكة الموارنة في شمال لبنان وفقدوا المكانة التي كانت لهم فيه، انفتحت أمامهم نافذة أمل في كسروان، فأخذوا ينتقلون إليها، حيث تبلورت زعامتهم من جديد. فحلّ المشايخ محلّ المقدّمين، وبرزت عائلات مارونية، منها الخازن وحبيش والبيطار والدحداح وكرم وعوّاد وضاهر ومبارك...

أسند العثمانيون الحكم في لبنان، كالمماليك من قبلهم، إلى الأمراء المعنيين الدروز أوّلاً، ثمّ إلى الأمراء الشهابيين وهم من السنّة. فاستعان هؤلاء وأولئك بالموارنة في حكمهم، واختاروا منهم مستشارين ومدبّرين.

كان الموارنة يتحلّون بحسن التدبير والمشورة والحكمة والشجاعة والعدل وبعد النظر. عملوا في كلّ الحقول، وكان بينهم من أُسنِدت إليهم مقاطعات. فأُسنِدت راشيا إلى عائلة مبارك في العام ١٧٧٢. وأُسنِد جبل لبنان في العام ١٧٧٣ إلى الشيخ سعد الخوري، ولحفد إلى الشيخ رامح الخازن، ومنطقة الفتوح إلى عائلة الدحداح. وكان شيخٌ مارونيّ على رأس كلّ قرية مارونية. فعرف لبنان فترة من العمران والأمان والطمأنينة.

إلاّ أن سياسة الدولة العثمانية في فرض الضرائب وترسيخ سلطة المتعاونين معهم، ضربت العمران الناشئ وكانت سبباً للخراب، ولا سيّما عندما اعتمدوا سياسة تأليب الواحد ضدّ الآخر، زارعين الفتنة في كلّ بلدة وفي كلّ مزرعة. عندها، كثرت المظالم والتعديات. عمّت الفوضى ووجدت الإقطاعية طريقاً لها في صفوف الموارنة.

إزاء المحن التي أوجدها العثمانيون، برزت مبادرات دينية وإنسانية ومجتمعية، كان لها دورها في بلورة الاتجاه نحو التوحّد. فتحت البطريركية المارونية أبوابها في وجوه المحتاجين والمساكين، من جهة، وأخذت، من جهة ثانية، تدعو إلى وحدة الصفّ والى توفير الحرّية والاستقلال.

في العام ١٥٩٠، ظهر على مسرح السياسة الأمير الدرزيّ فخر الدين المعنيّ الثاني، الذي تسلّم الحكم على إقطاعه في الشوف. فاختار له معاونين ذوي مؤهّلات من مختلف الطوائف الدينية في لبنان وخاصةً من الموارنة الذين كانت لهم علاقاتهم مع الأوروبيين.

مكّنت سياسة الأمير المعنيّ اللبنانيين من أن يُظهِروا قوّة كبيرة، استطاع الأمير بفضلها أن يوحّد إقطاعات لبنان، ويبني نواة الفكرة الاستقلالية التي راحت تتبلور على يده، وكادت في أحيان أن تتحقّق بالتخلّص من نير العثمانيين. لكنّ بطش هؤلاء ودهاءهم كانا في المرصاد للفكرة الاستقلالية وللداعي إليها.

قوّى الأمير فخر الدين المعنيّ الكبير (١٥٩٠ – ١٦٣٥) إمارته اللبنانية، فعزّز وحدتها الداخلية وتوسّع إلى عمق بلاد الشام. انتبه العثمانيون إلى أحلامه فحاربوه ونفوه إلى إيطاليا. دعم الأوروبيون عودته إلى جبل لبنان، فرجع ومعه حلم النهضة والحداثة والانفتاح. عارضه العثمانيون مجدّداً فكسروه عسكرياً وانتهى مخنوقاً.

مشى الأمير بشير الشهابيّ الثاني الكبير (١٧٨٨-١٨٤٠) على خطى الأمير فخر الدين وأعاد اللحمة بين الطوائف، فقويت دعائم الوطن وبسط سلطانه. وبعد أن وطّد سلطته، أخذ يسعى إلى استقلال لبنان، وبهذه الروح أيّد محمّد علي باشا في حربه ضد السلطنة العثمانية في العام ١٨٣١.

بدا ابراهيم باشا ابن محمد باشا متسامحاً في بداية حكمه، لكنّه ما لبث أن رفع الضرائب ثلاثة أضعاف ما كانت عليه سابقاً. واحتكر الصناعة والتجارة وفرض الخدمة العسكرية وبدأ الظلم... فثار اللبنانيون.

أحيا الأمير بشير الحلم اللبناني بالاستقلال، لكنّه وقع في فخاخ المصالح الخارجية ودهاليز الصراعات الداخلية. انتفض اللبنانيون على حكمه من خلال إنشاء عاميّات رفضت الضرائب والتجنّد في حروب الآخرين. تراجعت في عهده سطوة العائلات الإقطاعية وتقدّمت جهود النهضويين في الإدارة والتربية والأدب وتجارة الحرير.

في العام ١٨٤٠، عقد الثائرون دروزاً ومسيحيين وشيعةً وسنّةً مؤتمراً في انطلياس

وأقسموا اليمين عند المذبح في كنيسة مار الياس على أن يظلّوا يداً واحدة. وتعاهدوا على أن يجابهوا ويحاربوا فيكون لهم استقلالهم أو أن يموتوا. في هذا المؤتمر (عاميّة انطلياس) انتخب فرنسيس الخازن قائداً وزعيماً. وقد ضايق الثائرون الجيش المصري.

أرادت أوروبا أن تحافظ على سلامة السلطنة العثمانية، فأتت حملة انكليزية – نمساوية – عثمانية إلى سواحل لبنان. فاستسلم الأمير بشير، ونُفي في العام ١٨٤٠ إلى مالطا.

قويت شوكة الدولة العثمانية بعد عزل الأمير بشير، وراح الولاة العثمانيون يوغرون الصدور، ويؤلّبون الناس بعضهم ضد البعض الآخر، ويزرعون الفتن بين الطوائف.

حاولت الدولة العثمانية تعيين والٍ عثماني على جبل لبنان هو عمر باشا النمساوي، ففشلت. فقسمت البلاد إلى قائمقاميتين، قائمقامية مارونية وقائمقامية درزية، تفصل بينهما طريق بيروت–دمشق (اتفاق ٧ كانون الأول ١٨٤٢). تسبّب هذا التقسيم في توسيع رقعة الخلاف بين الطوائف، وظلّ هذا الخلاف يتزايد حتى مذبحة العام ١٨٦٠.

كانت دول أوروبا تتدخّل أيضاً في شؤون لبنان، وكانت كلّ دولة منها تساند طائفة من الطوائف. بعد تلك المذبحة الرهيبة، تحرّكت أوروبا وعقدت مؤتمراً في باريس دعت إليه فرنسا، وضمّ النمسا وروسيا وبريطانيا وتركيا، وتقرّر فيه التدخّل لوقف القتال بالقوّة العسكرية. اقترحت فرنسا إلغاء التقسيم وإعادة البلاد إلى وحدتها وجعلها ولاية مستقلّة يحكمها مارونيّ. لكن في العام ١٨٦١ تمّ الإتفاق على نظام جديد، وقّعته كلٌّ من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا. بموجبه أعيد لبنان ولاية متصرّفيّة مستقلّة، يحكمها متصرّف مسيحي يعيّنه الباب العالي، وتُوافق على تعيينه الدول التي وقّعت الميثاق. ووُضع لها نظام جديد عُرِف بالبروتوكول.

هكذا انتهت الإمارة الشهابية على تفسّخ طائفيّ. وأفرز نظام القائمقاميتين حربَين بين الموارنة والدروز (١٨٤٥ و١٨٦٠)، وثورة اجتماعية (١٨٥٨) عُرِفت بثورة الفلاّحين في كسروان.

أحدثت هذه التطورات الدامية اهتزازاً عميقاً في بنية جبل لبنان، فخسر مزيداً من

تماسكه وحرّيته. تحوّل إلى متصرفيّة يتولاّها مسيحيّ كاثوليكيّ، يعيّنه الباب العالي. وفقدت هذه المتصرفيّة منافذها البحرية والبرية، أي بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع.

عارض يوسف بك كرم نظام المتصرّفيّة فانتهى منفيّاً. وعرفت تلك المرحلة التاريخيّة موجات متصاعدة من هجرة اللبنانيين إلى الأميركيتين والبرازيل وفرنسا ومصر. إلاّ أنّ اللبنانيين استفادوا من هامش الحرّية في المتصرفيّة، فتأسّست الإرساليّات الأجنبيّة وشُيِّدت المؤسّسات الوطنيّة والمدارس والجامعات، وأصبحت بيروت مطبعة العالم العربي ومركزاً لنهضة الصحافة.

اندلعت الحرب العالميّة الأولى في ٥ تشرين الثاني ١٩١٤، ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا. جاء جمال باشا إلى لبنان كحاكم عسكريّ، فكان حاكماً عنيفاً ظالماً، فرض نظام السخرة واضطهد المعارضين، فسجنهم ونفاهم وضيّق على الكثيرين. وعلّق المشانق للوطنيين اللبنانيين ومعارضي التتريك في آب ١٩١٥ وأيار ١٩١٦.

اجتاحت البلاد أسراب من الجراد أكلت الأخضر واليابس. عمَّ الجوع الجبل المعزول برّاً وبحراً في شتاء ١٩١٦ وكثرت الأمراض. خربت قرى بكاملها، ومات ما لا يقلّ عن مئة وخمسين ألف شخص. إلاّ أنّ لبنان استطاع أن يخرج من محن الحرب والمرض والجوع، ليعود واحةً رحبة، ينشدها الأرمن والأشوريون المضطهدون من الأتراك.

وضعت الحرب أوزارها، فانتهت الويلات وبدأ مشروع السلام. اندثرت السلطنة العثمانية، لكن ليشتدّ على أنقاضها الجدل بين القوميين اللبنانيين والقوميين العرب في شأن حدود لبنان وهويّته.

أقرّ الحلفاء المنتصرون الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا في مؤتمر سان ريمو في ٢٨ نيسان ١٩٢٠. ضمَّ المندوب الفرنسيّ الجنرال هنري غورو إلى لبنان مدنه الساحلية والبقاع في ٣١ آب، وأعلن قيام **دولة لبنان الكبير** في الأوّل من شهر أيلول من السنة نفسها، لتتخذ هذه الدولة وجه **الجمهورية اللبنانية** في ٢٣ أيار ١٩٢٦.

في ذلك التاريخ تحقّق حلم الموارنة بإقامة الدولة. وقد تمّ ذلك بعد دعم شعبيّ وتحرّك

الجاليات المارونيّة في الخارج، ولا سيّما في فرنسا ومصر والولايات المتحدة والبرازيل، ومفاوضاتٍ ترأّس أهمّها البطريرك الياس الحويّك، بتفويضٍ من مجلس الإدارة، المؤلّف من ممثّلين عن الطوائف اللبنانيّة المختلفة.

كان الموارنة يعتبرون فرنسا «الأمّ الحنون». ففي العام ١٦٤٩ وضع لويس الرابع عشر الطائفة المارونيّة تحت حمايته، فخرج الموارنة من الكهوف وهتفوا لفرنسا. وفي العام ١٩٢٠ أعلن الجنرال غورو دولة لبنان الكبير، فعمّ الجبل اللبناني فرح عظيم، ونزل الموارنة إلى الساحل وهتفوا لفرنسا أيضاً.

كان الموارنة يمثّلون اتّجاهاً وكان هناك اتّجاه آخر ينشد الوحدة مع حركة الملك فيصل التحرّرية. اختلف اللبنانيون على الانتماءات، لكنّهم اتّفقوا على الاستقلال فتخطّوا نزعاتهم وحقّقوا الإستقلال التام في العام ١٩٤٣، هذا الحلم الذي طلبوه قبل كلّ شيء وسعوا إليه جيلاً بعد جيل، وقد ضُمِنت فيه حقوق الطوائف كلّها.

عارض اللبنانيون صلاحيّات الانتداب الفرنسي، وانقسموا. وقفت الكتلة الوطنيّة بزعامة اميل إده في وجه الانفصال الكامل عن فرنسا، فيما أصرّت الكتلة الدستوريّة بزعامة بشارة الخوري على الاستقلال التام. جمع **الميثاق الوطني** القواسم المشتركة بينهما.

انتفض اللبنانيّون على الانتداب، فنالوا استقلالهم في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣. وتمّ إجلاء آخر جنديّ فرنسيّ عن أرض لبنان في ٣١ كانون الأول ١٩٤٦، ليعيش الوطن حتى تاريخه على خطّ الزلازل.

على خطّ الزلازل

لم تخرج البلاد يوماً عن خطّ الزلازل، ولم تنجُ منه، منذ أن ضمنت الدول العربية في **بروتوكول الاسكندرية** الموقّع في ٧ تشرين الأول ١٩٤٤ استقلال لبنان الذي أقرّه **ميثاق الجامعة العربية** في آذار ١٩٤٥، وانتزع لبنان شرعيّته الدوليّة بتوقيعه **ميثاق الأمم المتّحدة** في ٢٦ حزيران ١٩٤٥.

وإذا كانت الجماعات المنتظمة في بنية الدولة قد عرفت في بداية المسيرة أن تؤطّر جهودها وحراكها ضمن المؤسّسات، فإنّ قيام دولة إسرائيل بقوّة الاغتصاب على أرض فلسطين وتدفّق اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان، سرعان ما انعكسا سلباً على مشروع الدولة الوليدة، فهبّت الرياح الإقليميّة والدوليّة، وتضاربت المصالح والأهواء والأطماع، فعرفت كيف تتسلّل إلى الطوائف، وتؤجّج النعرات.

لم يعرف اللبنانيّون أن يحافظوا على قيمة الاستقلال الذي أنجزوه في العام ١٩٤٣. وفي وقتٍ كان الموارنة ينشدون أن ترى كلّ الطوائف والمذاهب في جسم الدولة الإطارَ الذي ينظّم شؤونها ومصالحها، ها هم يصدمون من تداخل عوامل كثيرة، داخليّة وخارجيّة، بعضها اجتماعيّ-اقتصاديّ وبعضها سياسيّ محليّ وإقليميّ ودوليّ، في تأجيج الصراعات بين اللبنانيين.

لم تتمكّن السلطات القائمة من تقديم الحلول الاجتماعيّة والسياسيّة الداخليّة، ولا النأي بلبنان عن الصراعات الإقليميّة القائمة، فوقعت البلاد في فخّ الأزمة المستشرية. فشهد لبنان على التوالي، منذ ١٩٥٨، حوادث وأزمات وحروباً، أغرقته وجماعاته في

مسلسل التهجير والعنف والمآسي الدمويّة، المستمرّ فصولاً وأشكالاً متعدّدة.

أدّت المواجهات المسلّحة بين الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين إلى توقيع **اتفاق القاهرة** العام ١٩٦٩، الذي شرّع حرّية العمل الفدائيّ الفلسطينيّ في جنوب لبنان، في ظلّ معارضة مسيحية واسعة. اشتدّت المواجهات في العام ١٩٧٣ ومعها أزمة سياسيّة داخليّة اتّخذت طابعاً طائفيّاً، سرعان ما تحوّلت إلى حرب دامية في نيسان من العام ١٩٧٥، بعدما وجد كلّ طرف من الأطراف أنّ اللجوء إلى الدولة الناظمة لن يعطيه الأمان ولن يوفّر له الحقوق.

شكّل إصلاح النظام السياسي انقساماً أيضاً. صحيح أنّ «صلاحيّات رئيس الجمهوريّة الدستوريّة كانت واسعة، لكنّ الصحيح أيضاً أنّها، في مجال الممارسة، لم تكن كذلك، لأنّها كانت مقيّدة بتوقيع رئيس مجلس الوزراء والوزير المختصّ. وبالتالي، فإنّه كان من الأنسب للقيادات المارونيّة تكريس هذا الواقع في نصوص دستوريّة، تأكيداً لمبدأ مشاركة المسلمين المتوازنة في السلطة؛ وهذا ما فعلوه في اتفاق الطائف، وإنّما بتأخير خمس عشرة سنة».

كان ثمّة موقفان في ذلك الزمن، «واحد معارض لأيّ تعديلٍ للدستور يهدف إلى إضعاف صلاحيّات رئيس الجمهوريّة، وآخر أكثر تجاوباً مع طروحات التغيير والتأقلم مع معطيات الواقع. وخلق تشابك المسائل المطروحة، في السبعينات، إشكاليّة قدرة التيّارات السياسيّة المارونيّة على إحداث التغيير المطلوب الذي يمكن أن يستجيب لقائمة المطالب الواسعة والمتراوحة بين مشاريع الإصلاح السياسيّ ودعم المنظّمات الفلسطينيّة، مروراً بالمطالبة بتغيير النظام. كما أدّى إلى تغييب معنى لبنان ومعنى تجربته الحضاريّة القائمة على نموذج العيش المشترك وعلى قبول الآخر شريكاً مختلفاً كامل الشراكة، وعلى التواصل مع الآخر الذي يغدو جزءاً من تعريف الذات»[1].

خاف الموارنة على الوطن، ولا سيّما عندما تحوّل وجود المنظّمات الفلسطينيّة، إلى مسألةٍ داخليّة في السياسة اللبنانيّة. وبدل أن ينصت الجميع إلى صوت البطريرك الداعي إلى وأد

١. المجمع البطريركي الماروني، النصوص والتوصيات، بكركي، ٢٠٠٦، صفحة ٧١٢.

الفتنة، وتغليب صوت الحكمة والعقل والمحبّة، والعودة إلى رحاب الدولة وتعزيز سلطة الجيش الوطنيّ، غرق الكلّ في ليل الحرب وظلمته الدامسة.

صارت البلاد مساحة للموت، فسقطت مناطق وأُحرقت قرى وهُجِّر أهلها. وإذا كانت تلك الحوادث والحروب قد أدّت إلى دخول الجيش السوريّ لبنان في كانون الثاني من العام ١٩٧٦ تحت شعار منع التقسيم بالقوّة، وبحجّة إبعاد يد الوجود الفلسطينيّ عن القرار اللبناني، وبذريعة وقف الاقتتال بين اللبنانيين، إلاّ أنّ الجمهورية استمرّت في الاحتراق. وبدل أن يساهم وجود الجيش السوريّ في إشاعة الطمأنينة والوفاق بين اللبنانيين، أدّى إلى تفاقم الصراع، فتحوّل إلى قوّة احتلال في رأي الكثيرين من اللبنانيين.

وفي حين أنّ الحرب الطويلة، و«المتغيّرة في أهدافها وأطرافها، استُغِلّت أشدّ الاستغلال من قِبل دولٍ وجماعاتٍ وأفراد، فهي شهدت أيضاً مقاومةً فاعلةً وشريفة، قام بها شباب كثر، ضحّوا بحياتهم، دفاعاً عن اقتناعاتهم، وعن سيادة لبنان وحريّته وكرامته. فقد جمعت حرب السنتين، في ١٩٧٥-١٩٧٦، بعض القيادات المارونيّة، الحزبيّة وغير الحزبيّة، في صفٍّ واحد، في وجه الخطر العسكريّ الداهم، في وقتٍ طالبت الكنيسة وقيادات مارونيّة أخرى بالعودة إلى الثوابت الوطنيّة، رافضين الاحتكام إلى السلاح والاستقواء بالخارج لحلّ المشكلات الداخليّة، لأنّه يضرب صيغة العيش المشترك القائمة على ثقافة الانفتاح والتوسّط والاعتدال، ولأنّه، وفي مختلف الأحوال، يضرب قيم الديموقراطيّة وحقوق الإنسان»[2].

اغتيل رؤساء للجمهورية وللحكومة ووزراء ونوّاب وقادة أمنيّون والكثيرون من أهل الرأي والفكر منذ العام ١٩٧٧ حتّى يومنا هذا، ونُفِي وسُجِن آخرون، وحدثت مجازر ووقعت حروب طاحنة ضدّ الجيش السوريّ وضدّ الاحتلال الإسرائيليّ. وفشلت محاولات انتخاب رئيس للجمهورية في ختام عهد الرئيس أمين الجميّل، فأصدر الرئيس مرسوماً ألّف فيه حكومة عسكرية برئاسة قائد الجيش آنذاك العماد ميشال عون في ٢٢

٢. المجمع البطريركي الماروني: النصوص والتوصيات، بكركي، ٢٠٠٦، صفحة ٧١٣.

أيلول ١٩٨٨. اعتذر الضباط المسلمون عن عدم الاشتراك فيها، لينقسم لبنان إلى شطرين.

حاولت الجامعة العربية التوسّط لحلّ الأزمة اللبنانية، لكنّها فشلت. ونشبت معارك طاحنة بين الجيش و«القوات اللبنانية» في شباط ١٩٨٩، وتطوّرت في ٢١ آذار إلى إعلان «حرب تحرير لبنان من الاحتلال السوري».

انعقدت قمّة عربيّة في الدار البيضاء في ٢٣ أيلول، أوكلت إلى العاهلين السعوديّ والمغربيّ والرئيس الجزائريّ إنهاء الحرب اللبنانيّة. اجتمع النوّاب اللبنانيّون في مدينة الطائف السعوديّة في ١ تشرين الأوّل، وبعد اثنين وعشرين يوماً من المداولات انتهوا إلى الاتّفاق على «وثيقة الوفاق الوطني».

لكنّ هذا الاتّفاق الذي قلّص صلاحيّات الرئيس المارونيّ لم يلقَ التنفيذ الفعليّ من جوانبه كافةً، فظلّ لبنان حتّى هذه اللحظة، عالقاً في الفخّ الوجوديّ الخطير. فقد تمكّنت «سلطة الوصاية السوريّة من تحوير مضمون اتّفاق الطائف فضربت العقد الإجتماعيّ في الصميم... ووضعت خطّة استهداف مبرمجة اتّخذت أشكالاً متنوّعة: استهداف سياسيّ عبر اعتماد قوانين انتخاب لا تراعي التمثيل الصحيح، واستهداف أمنيّ طاول عدداً من التنظيمات والشخصيّات السياسيّة والشباب المسيحيّ في لبنان والخارج، واستهداف ديموغرافيّ تمثّل بإقرار مرسوم التجنيس، العام ١٩٩٤، الذي منح الجنسيّة دفعةً واحدة لما يزيد على ثلاثمائة ألف شخص، معظمهم من غير المسيحيّين ومن غير مستحقّيها ومن حاملي جنسيّات أخرى، واستهداف إعلاميّ بغية تخوين جماعيّ للمسيحيين وتشويه صورتهم والنيل من دورهم الرائد في لبنان»[3].

دفع هذا الوضع المأسويّ «الكنيسة المارونيّة إلى تركيز جهودها على وقف دوّامة العنف، التي كانت تشتدّ يوماً بعد يوم حتى باتت تهدّد المصير الوطنيّ برمّته. فعملت من هذا المنطلق على تشجيع الساعين إلى إيجاد الحلول لإنهاء الحرب، وساهمت في بلورة الأسس والمفاهيم التي ارتكز عليها اتّفاق الطائف. ونظرت الكنيسة إلى هذا الاتّفاق على

٣. المجمع البطريركي الماروني النصوص والتوصيات، بكركي ٢٠٠٦، صفحة ٧١٤.

أنّه مدخل لطيّ صفحة الصراعات الماضية بين مَن كان يطالب، باسم العدالة، بتحسين شروط مشاركته في الدولة، وبين مَن كان يسعى، باسم الحريّة، إلى حماية الكيان وتثبيت نهائيّته. ورأت الكنيسة كذلك أنّ هذا الاتّفاق يثبّت أولويّة العيش المشترك على كلّ ما عداه، ويجعل منها أساساً للشرعيّة»[٤].

أقرّ مجلس النوّاب **وثيقة الطائف** في ٥ تشرين الثاني، فدبّت الفوضى وترسّخ الانشقاق بين اللبنانيين وتجدّدت الاشتباكات بين الجيش و«القوات اللبنانية»، فانقسمت المنطقة حيث يسيطر الجانبان إلى قسمين، ودارت بينهما حرب مدمّرة.

عانت الكنيسة الكاثوليكيّة في لبنان كثيراً من انقسام أبنائها، وبخاصّة في سنيّ الحرب الأخيرة، بل أدّى هذا الانقسام إلى تمزيقها من الداخل. في العام ١٩٩٣، كتب الذين أعدّوا الخطوط العريضة لسينودوس الأساقفة من أجل لبنان: «إنّ كنيسة لبنان... جُرحت في صميم جسدها كسائر المؤسّسات في لبنان. ولكنّها امتُحنت بنوع خاصّ امتحاناً ذريعاً في ضميرها. فقد شاهدت بنوع خاصّ أبناءها يُقتلون ويَقتلون ويتقاتلون. وهي لا تزال تعاني من نزاعاتهم المتوقّدة دائماً، وتؤلمها بطريقة موجعة الهوّة العميقة التي حفرتها هذه السنوات المضطربة بين عدد من أتباعها وبين هؤلاء والسلطة الكنسيّة»[٥].

هاجم الجيش السوريّ ووحدات من الجيش اللبنانيّ بقيادة العماد أميل لحود قصر بعبدا بغطاء من الطيران الحربيّ السوريّ في ١٢ و١٣ تشرين الأول ١٩٩٠. فانتقل العماد عون إلى السفارة الفرنسيّة، ودعا من هناك الوحدات العسكريّة التابعة له للالتحاق بقيادة لحود. ثمّ غادر إلى منفاه في باريس.

أرسى عهد الرئيس الياس الهراوي قواعد ما عُرِف بجمهوريّة الطائف. فاتّخذت حكومة الرئيس عمر كرامي قراراً بحلّ الميليشيات في ٢٠ آذار ١٩٩١، وأُقِرّت **معاهدة الأخوّة والتعاون والتنسيق مع سوريا** في ١٥ أيّار. وأقرّ مجلس النوّاب قانوناً جديداً للانتخابات

---

٤. المجمع البطريركي الماروني النصوص والتوصيات، بكركي ٢٠٠٦، صفحة ٧١٥.

٥. الإرشاد الرسولي «رجاء جديد للبنان»، عدد ١٠.

النيابية في ١٦ تموز، فعارضه المسيحيّون بشدّة وقاطعوا انتخابات العام ١٩٩٢. وفي صباح الأحد ٢٧ شباط ١٩٩٤، انفجرت عبوة ناسفة في كنيسة سيّدة النجاة في زوق مكايل. اتّهمت السلطة «القوّات اللبنانية» بالتفجير واعتقلت قائدها في ٢١ نيسان.

مدّد مجلس النوّاب ولاية الرئيس الهراوي ثلاث سنوات في خريف العام ١٩٩٥ في ظلّ تنامي الدين العام وتهميش فاضح للدور المسيحيّ. وشنّت إسرائيل عمليّة «عناقيد الغضب» في ١١ نيسان ١٩٩٦، فوقعت مجزرة قانا حيث استُشهد ما يزيد على مئة لبناني كانوا التجأوا إلى مركز للأمم المتّحدة.

بارقة أمل وحيدة سطعت في الأجواء في تلك المرحلة، لتشكّل علامة رجاء. فقد زار قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني لبنان في ١٠ أيار ١٩٩٧. استقبله اللبنانيّون عموماً بحماسة، واحتشد المسيحيّون للقائه وفي نفوسهم الخوف على المصير. وقّع البابا أثناء زيارته الراعويّة «الإرشاد الرسولي» في وثيقة تاريخيّة توصّل إليها السينودوس من أجل لبنان، وأعلن الوطن الجريح رسالةً ومثالاً للعيش المشترك، وشدّد على تناغم المسيحيين مع محيطهم العربيّ، ودعا الشبيبة اللبنانية إلى عيش الرجاء، وحثّ الكنيسة الوطنيّة على خدمة المجتمع.

بكركي والاستقلال الثاني

في صباح ٢٤ أيار ٢٠٠٠، انسحب آخر جنديّ إسرائيليّ من الجنوب باستثناء مزارع شبعا المحتلّة منذ حرب حزيران ١٩٦٧ والملتبسة ملكيّتها بين لبنان وسوريا. وعاد الجنوبيّون إلى أرضهم المحرّرة بعد احتلال دام ٢٢ عاماً، فتنفّس لبنان الصعداء.

بعد تحرير الجنوب والبقاع الغربيّ، وبعد أن «مرّت سنوات من الجهاد، بالكلمة والموقف والحقّ والإيمان، لعبت فيها الكنيسة المارونيّة دورًا رئيسيًّا على مستوى الوطن»[٦]، وضع النداء الشهّير الذي أطلقته الكنيسة في ٢٠ أيلول ٢٠٠٠ «الأسس لإنهاء سلطة الوصاية السوريّة واستعادة السيادة والاستقلال والقرار الحرّ. سنوات مرّت، وُصف فيها لبنان بالبلد المحتضر، وخلص بعدها وطنًا للحياة. فبعد أن كان ساحة لتسلّط الآخرين، صار ساحة شهادة أبنائه جميعًا لحرّيتهم، وزخمًا لأكبر انتفاضة شعبيّة في العصر الحديث. لقد تمكّنت الكنيسة بمشاركة معظم الشعب اللبنانيّ بأن تحفر تاريخ لبنان الحديث بإبرة الحق والإيمان، فوق صخرة الظلم والليل الطويل، فتمكّنت من إنقاذ الوطن واستعادة الدولة»[٧].

دعا نداء مجلس المطارنة الموارنة التاريخيّ في رئاسة البطريرك مار نصر الله بطرس صفير إلى إعادة النظر في انتشار الجيش السوري في لبنان «تمهيدًا لانسحابه نهائيًا عملاً باتّفاق الطائف وتنفيذاً للقرار الدولي ٥٢٠». فكان ذلك النداء بمثابة تحوّل جوهريّ في طبيعة

٦. المجمع البطريركي الماروني: النصوص والتوصيات، بكركي، ٢٠٠٦، صفحة ٧١٦.
٧. المجمع البطريركي الماروني: النصوص والتوصيات، بكركي، ٢٠٠٦، صفحة ٧١٦.

الأزمة اللبنانيّة وفي المسارات التي أخذتها. وممّا جاء فيه: «أمّا وقد بلغ الوضع في لبنان هذا الحدّ من التأزّم، فأصبح من الواجب الجهرُ بالحقيقة، دون مواربة أو تحفّظ، على ما هي راسخة في النفوس. ونرى الناس يتسارّون، فماً إلى أذن، ويخشون البوح بها، خوف الاعتقال وما يجرّه عليهم من وبال».

تحدّث النداء عن حقيقة الانتخابات النيابيّة الأخيرة «التي... فاز نوّاب لا يمثّلون من كان يُفترض أن يمثّلوهم من المواطنين،... فضلًا عن الأموال الطائلة التي بُذلت لشراء الضمائر، وإثارة النعرات الطائفيّة، وحجب وسائل الإعلام عن بعض المرشّحين، وتشريع أبوابها بوجه سواهم ليل نهار. وما القول عن الضغوط التي مورست لدى تأليف اللوائح فأُجبر بعض رؤسائها على أخذ هذا أو ذاك ممّن لا تجمعه به أو بأعضاء لائحته أيةُ صلة أو اتجاه سياسيّ، أو نزعة وطنيّة، فيما مُنِع غيره من الترشيح ولو منفرداً؟ وما القول خاصة عن استدعاء الأجهزة اللبنانيّة، ولا سيّما السوريّة، المخاتير ورؤساء البلديّات في بعض المناطق، والطلب إليهم تارةً بالوعود، وتارةً بالتهديد، إجبار الناخبين على الاقتراع لمصلحة هذه أو تلك من اللوائح؟ وعندما أتى يوم الاقتراع كانت النتائج قد أصبحت معروفة. هذا ما أخذ يرويه رواةٌ صادقون من مرشّحين، بينهم مَن نجحوا، وبينهم مَن سقطوا، بعد أن انحلّت عقدة لسانهم».

ولفت النداء إلى «فقدان لبنان سيادته على أرضه، في ظلّ هيمنة تشمل جميع المؤسسات، والإدارات، والدوائر، والمرافق. ولهذا اختلّت الإدارة، وضاعت المسؤولية، وارتبك القضاء، وبات الناس يعيشون في جوّ من الخوف، والذلّ، والنفاق، يعلنون فيه الولاء، ويضمرون البغضاء. ومن تجرّأ على الجهر بدخائله كانت عيون الاستخبارات له بالمرصاد، وكثيرون هم اللبنانيّون القابعون منذ سنوات طويلة في السجون الإسرائيليّة والسوريّة، وقد أُعطوا أرقاما بدلاً من أسمائهم».

وأضاف: «لقد خرجت إسرائيل من جنوب لبنان، وتركت وراءها مشاكل للبنانيين لا يزالون يعانون منها، وقد خفّف بعضَ الشيء من وطأتها ما أظهره من حكمة مَن حرّروا

الجنوب بما بذلوه من دماء ذكيّة في سبيل التحرير، بدافع من حميّة وطنيّة صحيحة. وقد مهّدوا السبيل للدولة لتبسط سلطتها على جميع أراضيها عملاً بالقرار ٤٢٥...».

دعا النداء علناً إلى خروج الجيش السوري، إذ قال: «وبعد أن خرجت إسرائيل، أفلم يحن الوقت للجيش السوريّ ليعيد النظر في انتشاره تمهيدًا لانسحابه نهائيًا، عملًا باتّفاق الطائف؟ وهل من الضرورة أن يبقى مرابطًا في جوار القصر الجمهوريّ، رمز الكرامة الوطنية، ووزارة الدفاع، وفي ما سوى ذلك من أماكن حسّاسة يشعر اللبنانيون لوجوده فيها بحرج كبير، لكي لا نقول بانتقاص من سيادتهم وكرامتهم الوطنيّة؟...

«وحرصاً منّا على توثيق أحسن علاقات الأخوّة بين لبنان وسوريا، وفي مطلع عهد فيها نريده لها زاهراً، نرى أنّه قد آن الأوان لإعادة النظر في طريقة التعاطي بين البلدين بحيث يقوى أحدهما بالآخر، فيتكاملان تكاملاً صحيحاً، مفيداً لكليهما، وأن يعاد انتشار الجيش السوريّ في لبنان تمهيداً لانسحابه نهائيّاً عملاً بالقرار ٥٢٠، وباتّفاق الطائف، وإبقاءً على ما بينهما من روابط تاريخيّة وجغرافيّة، وبين شعبيهما من وشائج قربى ونسب وصداقة ومصالح مشتركة. وفي اعتقادنا أنّ هذا هو السبيل الوحيد للحيلولة دون تفكّك لبنان وزواله. وهو إذا كان متعافياً كان عوناً لسوريا، وأمّا إذا ظلّ عليلاً كان عالةً عليها. ونحن نريد له ما نريده لسوريا من عزّة وكرامة وازدهار وسلام».

اتّخذ البطريرك صفير خطوة تاريخية أخرى، إذ زار منطقة الشوف في ٣ و٤ آب ٢٠٠١ لتأكيد المصالحة بين الدروز والموارنة. وشكّلت الزيارة إشارة الانطلاق العمليّة في مشروع استعادة السيادة، الأمر الذي أعطى دفعاً معنويّاً كبيراً للمسيحيين. وفي دلالة على عمق الإرباك الذي خلّفه الحدث، ولا سيّما أنّ البطريرك كرّر في الجبل أنّ «لنا الحقّ كلبنانيين في السيادة والاستقلال وزمن المراهقة قد ولّى»، اعتقلت السلطة اللبنانيّة عشرات الناشطين في ٧ آب من مختلف الأحزاب المسيحيّة، فدعت المعارضة إلى مواجهة «الدولة الأمنية».

أقرّ مجلس الأمن الدوليّ القرار ١٥٥٩ في أيلول ٢٠٠٤ الذي ينصّ على نزع سلاح الميليشيات اللبنانيّة وغير اللبنانيّة وانسحاب القوات الأجنبيّة من لبنان وبسط الحكومة

اللبنانيّة سيطرتها على كامل أراضيها وإجراء انتخابات رئاسيّة حرّة ونزيهة وفق القواعد الدستوريّة القائمة من دون أيّ تدخّل أجنبيّ، وقد شارف عهد الرئيس أميل لحود على الانتهاء. على رغم صدور هذا القرار، مدّد مجلس النوّاب ولاية الرئيس تحت ضغط سوريّ، فتصاعد التوتّر السياسيّ بين الموالاة والمعارضة.

في ١٤ شباط ٢٠٠٥، اغتيل رئيس الحكومة رفيق الحريري في عملية تفجير ضخمة في منطقة الفنادق في بيروت، وسقط معه عشرات الشهداء ومئات الجرحى. حمّلت المعارضة اللبنانيّة «السلطتين اللبنانيّة والسوريّة» مسؤولية الاغتيال وجدّدت مطالبتها سوريا بسحب جيشها من لبنان.

أحدث الاغتيال زلزالاً في لبنان ومحيطه. وشهدت ساحة الشهداء اعتصامات يوميّة لآلاف الشباب من طوائف مختلفة، وقامت التظاهرات الداعية إلى إنهاء «النظام الأمنيّ اللبنانيّ-السوريّ».

استقالت حكومة الرئيس عمر كرامي تحت الضغط الشعبيّ واجتمعت المعارضة وأعلنت «انتفاضة الاستقلال» في ١٨ شباط ٢٠٠٥، فشكّلت «لحظة تاريخيّة، فتحت الباب للخلاص الوطنيّ بتوحّد غالبيّة الشعب اللبنانيّ على نحوٍ غير مسبوق. إنّ خروج الجيش السوريّ من بعد ثلاثين سنة من سلطة الوصاية، كان تتويجاً لنضال الشعب اللبنانيّ المقيم والمنتشر، وتوحّده، وبمثابة الحلم الذي تحوّل إلى حقيقة»[٨].

بعد هذه التطوّرات، شهد شهر آذار تطوّرات مصيريّة في تاريخ لبنان الحديث، فأعلن الرئيس السوريّ بشّار الأسد سحب الجيش السوريّ من لبنان على مرحلتين، إلى البقاع أوّلاً، ثمّ إلى داخل الحدود السوريّة.

في ٨ آذار تظاهر، بدعوة من «حزب الله» و«حركة أمل»، في ساحة رياض الصلح أكثر من نصف مليون لبناني «وفاءً لسوريا» واحتجاجاً على «التدخل الأميركيّ والفرنسيّ في الشؤون اللبنانيّة الداخليّة». وفي ١٤ آذار، تظاهر في ساحة الشهداء أكثر من مليون لبنانيّ

٨. المجمع البطريركي الماروني: النصوص والتوصيات، بكركي، ٢٠٠٦، صفحة ٧١٦.

رفعوا شعارات معادية لسوريا وعهد الرئيس لحّود وأجهزته الأمنيّة معلنين قيام «ثورة الأرز».

تزامن هذا الانقسام السياسيّ العميق مع خروق أمنيّة واسعة استمرّت إلى اليوم. فبعد محاولة اغتيال النائب مروان حمادة، توالت عمليّات الاغتيال فشملت الصحافيّ سمير قصير والأمين العام السابق للحزب الشيوعيّ اللبناني جورج حاوي والنائب جبران تويني، المدير العام لجريدة «النهار».

وجرت محاولات اغتيال عدّة. واستهدفت سلسلة تفجيرات المناطق المسيحيّة في بيروت والمتن الشمالي وكسروان.

انسحب آخر جنديّ سوريّ من لبنان في ٢٦ نيسان، وعاد العماد ميشال عون إلى لبنان في ٧ أيار، وبدأت التحقيقات الدوليّة في اغتيال الحريري في ٢٦ أيار، وخرج الدكتور سمير جعجع من السجن في ٢٦ تموز.

أولت الكنيسة المارونيّة أهميّة قصوى للتمسّك بمبادئ الحوار وحلّ الخلافات في إطار المؤسّسات الدستورية، أمام هول التحديات التي واجهها الوطن المصلوب. فمنذ توقيع **وثيقة الوفاق الوطني**، رفض الموارنة الاحتكام إلى أيّ شكل من أشكال العنف والصدامات المسلّحة. فكان اعتمادهم على الجيش وقوى الأمن الداخليّ للمحافظة على أمن المواطنين والاستقرار، ونشدوا الدولة مرجعاً حاضناً للجميع.

ترسّخت الدعوات إلى مدّ أواصر الحوار بين الجماعات اللبنانيّة. وانعقد مؤتمر للحوار الوطني أقرّ إنهاء الوجود الفلسطينيّ المسلّح خارج المخيّمات. وتألّفت المحكمة الدوليّة في جريمة اغتيال الحريري. وأقيمت علاقات ديبلوماسيّة بين لبنان وسوريا. وتمّ التوافق على «تحديد» الحدود بينهما. لكنّ حدثاً أمنيّاً خطيراً وقع بين لبنان وإسرائيل، أعاد خلط الأوراق. ففيما كان مؤتمر الحوار الوطني يناقش الاستراتيجيا الدفاعيّة للبنان بما فيها مستقبل سلاح «حزب الله»، نفّذ الحزب عملية وراء الخطّ الأزرق أدّت إلى أسر جنديين إسرائيليين ومقتل ثمانية آخرين في ١٢ تموز ٢٠٠٦. ردّت إسرائيل بشنّ حرب شاملة لم

يشهد لبنان لها مثيلاً. فدمّرت بناه التحتيّة وبلداته في الجنوب والضاحية الجنوبية، وفي سواها من المناطق. وسقط من المواطنين أكثر من ألف شهيد. ردّ «حزب الله» بقصف شمال إسرائيل بالصواريخ وصولاً إلى حيفا وهدّد بقصف تلّ أبيب، وكبّد الجيش الإسرائيلي خسائر بشرية.

انفتح لبنان مجدّداً بعد هذه الحرب على مرحلة تاريخيّة جديدة قوامها اهتمامٌ دوليّ باستمراره دولة مستقلة ذات سيادة. وأمل اللبنانيون بتخطّي واقع اقتصاديّ مرير وانقسام سياسيّ حادّ. لكنّ المآسي كانت تتتالى. نشأ خلاف في مجلس الوزراء اللبنانيّ حول إبرام الاتّفاق على إنشاء المحكمة الدوليّة الخاصة بلبنان، الأمر الذي أدى إلى استقالة وزراء «حزب الله» و«حركة أمل» من الحكومة. وصُدم اللبنانيّون باغتيال الوزير بيار الجميّل لينضمّ إلى قافلة شهداء «ثورة الأرز».

فجر الأحد ٢٠ أيار ٢٠٠٧ اندلعت اشتباكات عنيفة بين الجيش اللبنانيّ وفصائل إرهابيّة تنتمي إلى «فتح الإسلام» في مخيّم نهر البارد شمال لبنان. وفي اليوم الخامس بعد المئة، انتصر الجيش اللبنانيّ بكلفة باهظة بعد سقوط ١٦٨ شهيداً ومئات من الجرحى.

إلاّ أنّ الفرحة التي عمّت لبنان لم تدم طويلاً. سقط النائب وليد عيدو بتفجير سيّارته. واستشهد بعده النائب أنطوان غانم في انفجار عنيف بواسطة سيّارة مفخّخة. كما سقط العميد الركن فرنسوا الحاج، مدير العمليّات في الجيش، في انفجار ناتج من سيّارة مفخّخة أيضاً. وانتهت ولاية الرئيس لحّود الممدّدة بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ٢٠٠٧ من غير أن يسلّم السلطة إلى رئيس جديد. وقعت البلاد في الفراغ والشلل واستمرّ مسلسل الاغتيالات.

في السابع من أيار ٢٠٠٨، وقع حدثٌ ميداني اعتُبر الأكثر خطورة وعنفاً منذ انتهاء الحرب عام ١٩٩٠. فعلى إثر صدور قرارَين من مجلس الوزراء يتعلّقان بشبكة الاتصالات التابعة لسلاح الإشارة الخاص بـ«حزب الله» وإقالة قائد جهاز أمن مطار بيروت الدوليّ، انتشر المسلّحون بكثافة في بيروت وبعض مناطق جبل لبنان. سقط خلال المواجهات ٧١ شخصاً. وسُجّل دمار في الممتلكات. ونشأت حالات توتّر وصدامات مسلّحة بين أنصار

فريق الرابع عشر من آذار وفريق الثامن من آذار، خاصةً في الشمال والبقاع .

سحبت الحكومة اللبنانيّة القرارَين الصادرين عنها. وبدأت سلسلة من الاتّصالات المحليّة والإقليميّة والدوليّة أثمرت عن توقيع **اتفاق الدوحة** في قطر في ٢١ أيّار ٢٠٠٨ بعد أزمة استمرّت ١٨ شهراً. وتُوِّج ذلك بانتخاب العماد ميشال سليمان رئيساً للجمهوريّة.

تألّفت حكومة الوحدة الوطنيّة. تعهّد الأطراف بمقتضى هذا الاتّفاق عدم الاستقالة أو إعاقة عمل الحكومة، والتوافق على قانون انتخابيّ، وحظر اللجوء إلى استخدام السلاح أو العنف أو الاحتكام إليه إذا طرأت أيّ خلافات وتحت أيّ ظرف كان. وحصر الاتّفاق السلطة الأمنيّة والعسكريّة بيد الدولة. فشكّل ذلك ضماناً لاستمرار صيغة العيش المشترك والسلم الأهليّ. لكن هذا الاتّفاق تمّ تجاوزه لاحقاً بعدم التقيّد به.

استكمل الرئيس سليمان حلقات الحوار الوطني في قصر بعبدا. وفي ١٥ تشرين الأوّل أرسيت علاقات ديبلوماسيّة بين لبنان وسوريا للمرّة الأولى في تاريخ البلدَين. وفي ١٦ آذار ٢٠١٠، رفرف العلم اللبنانيّ فوق السفارة اللبنانيّة في دمشق، بعد أن رفعه القائم بأعمال السفارة إيذاناً ببدء العمل فيها.

بعد الانتخابات النيابيّة اللبنانيّة، كلّف رئيس الجمهوريّة النائب سعد الحريري تأليف الحكومة. وقد تحقّق ذلك بعد نحو خمسة أشهر من الفراغ الحكوميّ. وفي الوقت الذي كان فيه الحريري يهمّ بلقاء الرئيس الأميركي باراك أوباما في البيت الأبيض في واشنطن في ١٢ كانون الثاني ٢٠١١، سقطت حكومته مع تقديم ١٢ وزيراً استقالتهم على خلفيّة الخلاف حول المحكمة الدوليّة. وجرى تكليف الرئيس نجيب ميقاتي رئاسة الحكومة.

في ٣٠ حزيران، سلّم وفد من المحكمة الدوليّة السلطات القضائيّة اللبنانيّة القرار الاتّهامي. تضمّن القرار مذكّرات توقيف في حقّ ٤ أشخاص لبنانيين ينتمون إلى «حزب الله» الذي أعلن انّه لا يمكن توقيف المتهمين ولو بعد ٣٠٠ سنة، واصفاً المحكمة بأنها أميركيّة–إسرائيليّة. وأضيف إلى المتّهمين الأربعة لاحقاً، لبنانيّ خامس من الحزب عينه.

على صعيد آخر، تقدّمت السنون بالبطريرك صفير، من دون أن تنال من عزيمته

وصلابته وحكمته وبعد نظره. بقي على خطّ الآباء المؤسّسين، لكنّه رأى أن يستقيل في ٢٦ شباط من العام ٢٠١١. التأم المجمع البطريركيّ في ١٥ آذار وانتخب المطران بشارة الراعي البطريرك السابع والسبعين على كرسيّ أنطاكيا وسائر المشرق للموارنة. ونُصِّب رسمياً في احتفال أقيم في بكركي في ٢٥ آذار في ظلّ شعار «شركة ومحبّة». وكان لذلك كلّه صدى عميق في الوجدان المسيحيّ والوطنيّ العامّ، لما يمثّله شخص البطريرك الجديد من قيم ومبادرات وطاقات حيّة.

وفي بادرة انتظرها الموارنة خصوصاً والمسيحيّون عموماً، عُقِد في ١٩ نيسان أوّل لقاء تاريخيّ رباعيّ في الصرح البطريركيّ ضمّ إلى البطريركَين الراعي وصفير والمطارنة، الرئيس أمين الجميّل، العماد ميشال عون، الوزير سليمان فرنجية، والدكتور سمير جعجع، تخلّلته مصافحة بين الأخيرَين. تلاه لقاء موسّع في حضور ٣٧ شخصية مسيحيّة في ٢ حزيران، تناول التزام مبدأ الشراكة، والمحافظة على خصوصيّة لبنان، وتكريس حقّ الاختلاف وتشكيل لجنة متابعة. أما الاجتماع الثالث فعُقِد في ٢٣ أيلول وبحث في قانون الانتخاب، وعُقِد الرابع في ١٦ كانون الأول للأمر عينه. لكنّ هذه اللقاءات لم تُفضِ إلى أيّ نتيجة ملموسة. فبقي الخلاف عميقاً بين القادة الموارنة ومؤيّديهم.

تحييد لبنان

حمل الموارنة طويلاً همّ تحييد لبنان عن الصراعات الإقليميّة والدوليّة، وقد عانوا على مرّ الأزمنة من تداعيات هذه الصراعات على واقعهم وعلى الوطن الذي ارتضوه أرض حريّة وحوار ورسالة.

تطبّع الموارنة على قيم الحرّية وسلكوا طرق الانفتاح والتواصل. وعلى رغم كلّ التحديات التي واجهوها، تمسّكوا بعقدهم الوطني القائم على العيش معاً في ظلّ دولة ديموقراطيّة. أطلقوا مبادرات قيّمة في زمن يشهد مخاضاً حضاريّاً في المنطقة ومتغيّرات في النظامَين الإقليمي والعالمي.

أدرك الموارنة مبكرين خطورة التحدّيات الوجوديّة والإيمانيّة والثقافيّة والحضاريّة في المنطقة. ولطالما اختبروا حقيقة المصالح الدوليّة وأولويّاتها، ولا سيّما بعدما أوقعهم التعويل على الخارج مراراً في خيبات كارثيّة.

وقفوا إلى جانب توق الشعوب إلى الحرّية والديموقراطيّة. تهيّبوا التضارب بين خصوصيّة الأقلّيات وتمثيل الأكثريّات. لكنّهم رفضوا كلّ أشكال التطرّف من أيّ جهة أتى. أصدرت الكنيسة **شرعة العمل السياسي** في العام ٢٠٠٩، بوحي من تعاليمها ومن خصوصيّة لبنان. ودعت فيها إلى «العمل على تحييد لبنان من الانجراف في سياسة المحاور الإقليميّة والدوليّة، وعن التمحور في أحلاف خارجيّة تخوض صراع مصالح ونفوذ على أرض لبنان وعلى حسابه»[٩]. فاستشرفت مجدّداً تداعيات ما عانته في تاريخها الطويل وما

٩. شرعة العمل السياسي في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصيّة لبنان، صفحة ٤٨.

سيعانيه لبنان وجماعاته من مآسٍ وتعطيل وشلل.

في العام ٢٠١٢، عاد الهاجس الأمنيّ للبروز بقوّة. تزامن ذلك مع تصاعد التوتّر على طول الحدود المشتركة بين لبنان وسوريا، وانعكاس تداعيات الأزمة السوريّة على الداخل، وتبادل الاتّهامات حول القتال في سوريا ودعم هذا الفريق أو ذاك.

في ١١ حزيران ٢٠١٢، صدر **إعلان بعبدا** عن جلسة للحوار الوطنيّ في قصر الرئاسة. اتّخذ الإعلان طابع الوثيقة الوطنيّة بعد موافقة جميع المتحاورين عليه. وتمّ إبلاغه إلى جامعة الدول العربيّة والأمم المتّحدة. من أهمّ بنود الإعلان: «إلتزام نهج الحوار والتهدئة الأمنيّة والسياسيّة والإعلاميّة والسعي للتوافق على ثوابت وقواسم مشتركة، وإلتزام العمل على تثبيت دعائم الاستقرار وصون السلم الأهلي والحؤول دون اللجوء إلى العنف والانزلاق بالبلاد إلى الفتنة، وتعميق البحث حول السبل السياسية الكفيلة بتحقيق هذا الهدف».

وأكد الإعلان «دعم الجيش على الصعيدَين المعنويّ والماديّ بصفته المؤسّسة الضامنة للسلم الأهليّ والمجسّدة للوحدة الوطنيّة، وتكريس الجهد اللازم لتمكينه وسائر القوى الأمنيّة الشرعيّة من التعامل مع الحالات الأمنيّة الطارئة وفقاً لخطّة انتشار تسمح بفرض سلطة الدولة والأمن والاستقرار». وشدّد «على نهائيّة الوطن اللبنانيّ وصيغة العيش المشترك وبضرورة التمسّك بالمبادئ الواردة في مقدّمة الدستور بصفتها مبادئ تأسيسيّة ثابتة، إلى التمسّك باتّفاق الطائف ومواصلة تنفيذ كامل بنوده».

أقرّ الإعلان «تحييد لبنان عن سياسة المحاور والصراعات الإقليميّة والدوليّة وتجنيبه الانعكاسات السلبيّة للتوتّرات والأزمات الإقليميّة، والحرص تالياً على ضبط الأوضاع على طول الحدود اللبنانيّة السوريّة وعدم السماح بإقامة منطقة عازلة في لبنان وباستعمال لبنان مقرّاً أو ممرّاً أو منطلقاً لتهريب السلاح والمسلّحين، مع إبقاء الحقّ في التضامن الإنسانيّ والتعبير السياسيّ والإعلاميّ مكفولاً تحت سقف الدستور والقانون والتزام القرارات الدوليّة بما في ذلك القرار ١٧٠١». فكان هذا الإقرار من بين أهمّ البنود المتّفق عليها.

لكنّ الإعلان بقي حبراً على ورق، ما جعل لبنان عرضةً لأزمات متتالية وخطرة.

بارقة أمل متجدّدة شهدها الرابع عشر من أيلول ٢٠١٢ عندما قام قداسة البابا بينيديكتوس السادس عشر بزيارة تاريخيّة للبنان حاملاً الإرشاد الرسولي لمسيحيّي الشرق الأوسط بعنوان «شركة وشهادة». لكنّ مفاعيل الزيارة لم تدم طويلاً. فسرعان ما شهد لبنان اغتيال رئيس فرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي العميد وسام الحسن في انفجار هائل.

عُقِدت في ذلك العام القمم الروحيّة بهدف تبريد الأجواء والدعوة إلى الحوار والتفاهم بعيداً عن العنف. لكنّ ذلك لم ينفع. كما لم ينفع رفض المطارنة الموارنة «قانون الستّين» الذي لا يؤمّن، في رأيهم، التمثيل الصحيح.

في تلك الفترة قدّم قداسة البابا استقالته. فانتُخِب الكاردينال الأرجنتينيّ خورخي ماريا برغوليو بابا جديداً، فاختار اسم فرنسيس. وهو أوّل بابا من الاميركيتين، واليسوعيّ الأول الذي يتولّى سدّة البابويّة.

لم يمرّ وقت طويل على انتخاب البابا الجديد حتى أحدث وجوده تحوّلات عميقة في الوجدان المسيحيّ. أُطلِق عليه اسم بابا الفقراء. دعا إلى الإصلاح الجذريّ في الكنيسة ووجّه انتقادات قاسية ومباشرة إلى رجالها، قبل مباشرة الإصلاح في العالم.

شهد الصرح البطريركيّ في بكركي العام ٢٠١٣ لقاء للقيادات المسيحيّة بدعوة من البطريرك الراعي للبحث في قانون الانتخاب. وتمّت تسمية النائب تمّام سلام لتأليف الحكومة. ورغم ذلك، أقرّ مجلس النوّاب قانون تمديد ولايته مدّة سنة و٥ أشهر تنتهي في ٢٠ تشرين الثاني ٢٠١٤. كما أعلن «حزب الله» جهاراً، المشاركة في القتال ضدّ «الجماعات التكفيريّة» إلى جانب الجيش السوريّ. وأكّد أنّ **إعلان بعبدا** «ولد ميتاً ولم يبق منه إلاّ الحبر على الورق».

واندلعت اشتباكات في بلدة عبرا شرق صيدا إثر تعرّض وحدة للجيش إلى اعتداء سافر. وتوسّعت المواجهات لاحقاً وأدّت إلى إنهاء ظاهرة الشيخ أحمد الأسير، مما كلّف مؤسسة الجيش سقوط شهداء وجرحى، وإحداث دمار كبير في ممتلكات المواطنين.

توالى انفجار السيّارات المفخّخة في الضاحية والبقاع وطرابلس، وتكرّرت الانتهاكات الإسرائيليّة للحدود اللبنانيّة جوّاً وبرّاً. وشهد لبنان ظاهرة الانتحاريين الذين يفجّرون أنفسهم مستهدفين حواجز أمنيّة تابعة للمؤسّسات والقوى العسكريّة الرسميّة ومناطق عدّة في الضاحية الجنوبيّة لبيروت والبقاع. واغتيل الوزير السابق محمّد شطح في تفجير سيارة مفخخة، في استمرار لانسداد الأفقَين الأمنيّ والسياسيّ.

العيش المشترك، الميثاق الوطني والصيغة

رفضت الكنيسة المارونيّة التفرّج على ما يهدّد مستقبل لبنان. ففي مناسبة عيد القدّيس مارون في ٤ شباط ٢٠١٤، أعاد البطريرك الراعي في **المذكّرة الوطنية** التي أعلنها من بكركي، تأكيد الكنيسة الثوابت التي تؤمن بها. أثار الهواجس التي تراود الشعب وترسم أسس المستقبل وتحدّد الأولويّات التي يتمسّك بها اللبنانيون. ولفت إلى أنّ المذكّرة تركّز على ثلاث دعائم هي: العيش المشترك، الميثاق الوطنيّ، والصيغة.

وصفت المذكّرة «العيش المشترك بلبّ التجربة اللبنانية، على الرغم من بعض التصرّفات التي تحدو بالبعض أحياناً إلى الشكّ بهذه التجربة... وصلب العيش المشترك هو الإنتماء إلى مشروع حضاريّ التقى فيه الإسلام والمسيحية». وأشارت إلى أنّ هذا «المشروع الحضاري أُرسي على ثوابت ثلاث: الحرية، والمساواة في المشاركة، وحفظ التعدديّة، وهي ثوابت في أساس تكوين الدولة اللبنانيّة».

وقالت المذكّرة إنّ **الميثاق الوطني** لم يكن يوماً مجرّد تسويات، أو تفاهمات عابرة، يُقبَل بها اليوم ويُراجَع في شأنها غداً، أو يتمّ التراجع عنها في أوقات تضارب المصالح والخيارات. ولفتت إلى أنّ الصيغة أتت «لتعكس التجربة التاريخيّة التي أثبتت أنّ لبنان لا يقوم إلاّ بجناحَيه المسلم والمسيحي. والصيغة لم تقم يوماً على مقاييس العدد»، و«إنّ ما أنجزه اللبنانيّون معاً، في زمن التأسيس، من ميثاقيّة وخبرة دستوريّة وسياسيّة، خليق بأن نفخر به، وبأن نستعيده في هذا الزمن الدقيق الذي يعيشه لبنان والمنطقة».

وأكدّت أنّ «ما ينقذ التجربة اللبنانيّة، هو مضيّ اللبنانيين قدماً في استكمال إنجاز بناء

الدولة وعلى اللبنانيين أن يعوا أنّ أيّ مشروع وطنيّ لا يمكن أن يتجذّر في الواقع، إلاّ إذا أنتج دولة عادلة وقادرة ومنتجة، في كيان مستقرّ يخدم الإنسان». وحذّرت «جميع اللبنانيين، ولا سيّما المسؤولين السياسيين، من استمرار التفرّد والتعنّت والطمع في السلطة، فذلك سيأخذ لبنان نحو الهاوية».

جاهر البطريرك الراعي في المذكّرة بأنّ «من النتائج الخطيرة لتكبيل المؤسّسات الدستوريّة تحويل الاستحقاقات الدستوريّة بمهلها أزمات وجوديّة، بدلاً من أن تكون فرصاً للديموقراطية من أجل تداول سلس للسلطة. وخير مثال على ذلك: عدم التوصّل إلى اتّفاق على قانون انتخابيّ عادل، وعدم إجراء الانتخابات في موعدها، ما أوصل إلى تمديد للمجلس النيابيّ، وعدم التمكّن من تشكيل حكومات في مهل معقولة، والتخوّف من إحداث فراغ في رئاسة الجمهورية». وتطرّق إلى «إقحام لبنان في قضايا الجوار من دون التبصّر في ما يعود به ذلك على الوطن وتركيبته».

كما شدّد على حياد لبنان الايجابيّ، المرتكز على قوّته الدفاعيّة، بدعم الجيش وسائر القوى الأمنية، والملتزم قضايا الأسرة العربيّة، وبخاصة القضيّة الفلسطينيّة، وتلك المتعلّقة بالعدالة، والعيش معاً، والتنوّع في الوحدة، وحقوق المواطنة، وبناء السلام.

وأضافت المذكّرة: «كي يتمكّن لبنان المحايد من تأدية رسالته، يجب أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ولخدمة محيطه. وإلى أن يستطيع استكمال مسيرة هذا الحياد، يجب العمل على تحييده عن الصراعات بين المحاور الإقليميّة والدوليّة، كما نصّ عليه **إعلان بعبدا**، الذي يُعتبر خطوة مهمّة على هذا المسار، وعدم السماح باستعماله مقرّاً أو ممرّاً أو منطلقاً لأيّ عمل من شأنه أن يورّطه في هذه الصراعات أو في أزمات تتنافى وخصوصيّته، والتوصّل إلى الاستراتيجيّة الدفاعيّة الوطنيّة المنشودة، التي تمكّن لبنان من استرجاع أراضيه وحماية حدوده».

في أواخر نيسان ٢٠١٤، شهد لبنان والعالم ضوءاً في غياهب العتمة، من خلال احتفال إعلان قداسة البابوَين الطوباويين يوحنّا الثالث والعشرين ويوحنّا بولس الثاني، في حاضرة

الفاتيكان في رئاسة الحبر الأعظم البابا فرنسيس.

في ٢٤ أيار ٢٠١٤، انتهت ولاية الرئيس ميشال سليمان، ومعها دخل لبنان للمرّة الثالثة في فراغ رئاسيّ. وعلى الرغم من الحثّ الشديد والمواقف شبه اليوميّة للبطريرك الراعي الداعية إلى إجراء الانتخابات الرئاسيّة في موعدها، قبل الشغور وبعده، قُرع الجرس لعقد أوّل جلسة انتخاب في مجلس النوّاب في ٢٣ نيسان، فلم يُنتخَب رئيس ولم يتأمّن النصاب لاحقاً إلى تاريخه.

ابتداءً من حزيران ٢٠١٤، عادت يد الشرّ وامتدّت إلى لبنان لتزرع الموت والدمار. فطغى المشهد الأمنيّ، بالتزامن مع تفجّر الوضع في العراق. فقد وصل لبنان مجدّداً إلى درجة فائقة الدقّة والخطورة. فالبلاد من دون رئيس. والانتخابات النيابيّة على الأبواب من دون أفق، ومرشّحة لتمديد جديد. الوضع الأمنيّ مرعب. والمرحلة خطرة لا يستطيع أحد التكهّن بتداعياتها.

تخوّف الكثيرون من نشوء كيانات مستقلّة، طائفيّة وإتنيّة في المنطقة. وشهدت منطقتا الموصل وسهل نينوى موجات تهجيريّة واسعة للمسيحيين. كما شهدت السلسلة الشرقيّة من جبال لبنان في شهر آب معارك شرسة بين الجيش اللبناني وإرهابيين قدموا من سوريا.

في خدمة لبنان

كان البطريرك المارونيّ أيّاً كان اسمه، حاضراً فاعلاً، يؤيّد كلّ مسعى للخير، من أيّ شخص أو من أيّة فئة صدر. ويقف في وجه كلّ ظلم، غير ناظر إلى مَن كان وراءه.

تخطّى البطريرك في مهمّته الأفق الضيّق الذي ترسمه له الظروف والمعطيات العابرة. عمل عمل الرسل أنفسهم في نشر الدعوة المسيحيّة، وفي النظر إلى معنى لبنان، كأرضٍ للتلاقي والتنوّع والحرّية. وقد عرف اللبنانيّون أنّه يعمل لهم جميعاً لا للموارنة وحدهم.

ففي سنة ١٨٥٨، عندما وقعت الثورة في كسروان بقيادة طانيوس شاهين، عرف البطريرك بولس مسعد أن يكون مع الشعب من دون أن يكون ضدّ حكّامه. وعرف أن يكون له موقفه حتى لا تأتي مصالح الدول الأوروبيّة على حساب لبنان. أيّد يوسف بك كرم في ثورته على الأتراك. لكنّه كان حكيماً. فحاول التوفيق بينه وبين الوالي التركيّ عندما وجد أنّ ذلك يصبّ في صالح لبنان. وطلب من السلطان عبد العزيز أن يعفي المسلمين في لبنان من الخدمة العسكريّة الإجباريّة أسوةً بالمسيحيين.

مشى البطريرك يوحنّا الحاج على خطى سلفه. فوقف حياته في خدمة الشعب وكان يردّد: «إذا كانت عظامي تنفع الطائفة فخذوها واجعلوها محرقة في سبيل خيرها». كان يعتبر أنّ خدمة طائفته بالطريقة الصحيحة هي خدمة لجميع اللبنانيين.

بنى البطريرك الياس الحويّك كرسيّ الديمان واشترى أراضي في درعون والحازمية وسبرين وجبيل وسلعاتا. وكان يعرف أن يقول كلمته ضدّ الظلم، غير عابئ بالنتائج. وقف في وجه جمال باشا. ووقف في وجه القنصل الفرنسيّ عندما كان الوقوف في وجهيهما

يؤول لخدمة الشعب. أطعم الجياع في العام ١٩١٦ وقال: «اعطوا الجميع، فالبطريركية أمّ حنون تعتبر الجميع أولادها، ولا فرق بين مسلم ومسيحي، فالكرسيّ البطريركيّ هو للجميع».

سعى وراء الاستقلال. في سنة ١٩١٩ انتدبته الحكومة اللبنانيّة وجميع الطوائف اللبنانية إلى مؤتمر فرساي ليطلب الاستقلال، وهو القائل: «أنا بطرك الموارنة ولي طايفة واحدة هي لبنان».

عرف البطريرك أنطون عريضة الذي رهن صليبه يوم كان مطراناً لطرابلس لإطعام الفقراء، أنّ العمران هو ضمان للاستقلال، فأنشأ معمل الترابة في شكّا وشركة الكهرباء (قاديشا) في طرابلس. وأيّد الميثاق الوطنيّ. واعتبره دعامة قويّة لبناء الوطن. ودعا إلى مؤتمر بكركي الذي أقرّ تأييد استقلال لبنان وسيادته التامّة، والتعاون مع الدول المجاورة، وحفظ العلائق الودّية مع الدول الحليفة التي اعترفت باستقلال لبنان وسيادته.

باشر البطريرك بولس المعوشي مهمّته بقوله: «سنتابع رسالة بكركي في خدمة الله والوطن»، وعمل بوحي هذه الكلمات كلّ حياته، داعياً الموارنة واللبنانيين إلى العمل بضميرهم لما هو مصلحة لبنان.

وعى البطريرك أنطونيوس خريش ما حلّ بلبنان من محنة هي من أقسى المحن التي عرفها في تاريخه. وتلمّس ما وصل إليه اللبنانيّون من انقسامات، وما أصاب الموارنة من تفكّك بسبب بعدهم عن أصالتهم. عرف أن يختار الطريق الصعب والشاقّ الذي سار عليه البطاركة الأقدمون. وقد آلمه أن ينتقد هذا الخيار مَن أراد من أبنائه أن يختار طريقاً مغايراً، لكنّه ارتاح إلى ما اعتبره سائر اللبنانيين وجميع الدول التي تعنى بشؤون لبنان طريقاً سليماً.

بقي البطريرك صفير صوتاً صارخاً في بريّة لبنان. وهكذا يفعل البطريرك الراعي الآن. في الوقت الذي تألّبت مصالح الدول الكبرى والدول الإقليميّة والطوائف اللبنانيّة في الداخل، لتكون جزءاً من السعير الذي أشعل لبنان بناره الملتهمة. أعلن البطريرك أن

خلاص اللبنانيين بأيديهم وحدهم، لا بأيدي الآخرين. فإذا أرادوا الخروج من المأزق الذي يتخبّطون فيه، والذي لا يبدو في الأفق الدوليّ والإقليميّ أيّ بصيص أمل في الخروج منه، فعليهم أن يعودوا إلى أصالتهم ويحفظوا معنى التقائهم في إطار الدولة الجامعة، بما يقتضيه ذلك من إيلاء وطنهم الأهميّة الأولى، وإعطائه بدل أن يأخذوا منه.

لكنّ صوت البطريرك بقي يتردّد وحيداً في غابة لبنان التي استسلمت للحريق. واجه المأساة اللبنانية الجماعيّة بحكمة فريدة، وبصلابة في المواقف مستلّة من صخور لبنان، ومن الإيمان بكون الموارنة أصحاب رسالة في هذا الشرق. لم يأبه للمصاعب والمشقّات والأهوال. بل تعرّض للمحن. لكنّه لم يلن. فصحّ فيه القول **مجد لبنان أُعطي له**.

هل لا يزال الموارنة موارنة؟

يوم عاش الموارنة في جبال لبنان العالية منعزلين عن العالم، ما بين الجيلين التاسع والحادي عشر، كان بطاركتهم «يحسبون من السعادة أن يعيشوا مع رعاياهم آمنين ومحافظين على إيمانهم القويم» (الدبس، صفحة ١١٠).

ويوم توغّلت جيوش المماليك في القرن الرابع عشر إلى معاقل الموارنة في جبال لبنان الشمالية، فقتلت وأحرقت وشرّدت، عضّ الموارنة على جراحهم وصبروا. فتنقّلوا من كهف إلى كهف وعاشوا في المغاور والأودية ليحافظوا على إيمانهم.

ويوم ضيّق العثمانيون على الموارنة ولم يوفّروا طريقة لإذلالهم، ظلّت هذه الجماعة على إيمانها الكبير مصلّيةً: «ردّ، يا ربّ، بصلوات أمّك، عن الأرض وجميع سكّانها ضربات الغضب، لاشِ الأخطار والإضطرابات، امنعِ السيف والسبي والمجاعة والوباء» (القداس الماروني).

بدأ تاريخ الموارنة بالمحن، واقترنت كامل حقبات تاريخهم الطويل بالمحن. لكنّهم عرفوا أنّ الله كان معهم كلّ حين. رافقهم في شدائدهم وثبّت خطاهم «وفداهم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة» (الخروج ٦/٦).

عاش الموارنة مع الله، فإذا قرأتَ تفاصيل العهد الذي قطعه الله مع شعبه على يد الآباء، وكيف رافق الله شعبه، وكيف أحبّ الشعب إلهه، فكأنكَ تقرأ في كتاب تاريخ الموارنة.

تعلّقوا بالله ورجعوا إليه في كلّ أمر. إذا نجحوا، عزَوا الفضل في نجاحهم إليه. وإذا حيّوا أحداً، قالوا له: الله معك. وإذا أقدموا على عمل، طلبوا إلى الله أن يساعدهم فيه. وإذا وُجدوا في شدّة، صلّوا إلى الله كي ينجّيهم منها.

عاشوا بخوف الله، يشكرونه على عطاياه ويخدمونه بمحبة. يساعدون بعضهم بعضاً. ويربّون أولادهم على التقوى. ويحسبون من السعادة أن يشاهدوا أحدهم يصعد للمرة الأولى إلى القرّاية فيشترك مع المؤمنين في قراءة الصلوات وإنشاد الأناشيد. «يحترمون أساقفتهم احتراماً لا حدّ له. ويطيعونهم طاعة عمياء في ما يأمرونهم به. يقبّلون يد رئيس الأساقفة والأسقف وقدم السيد البطريرك ويجلّونهم كآباء لهم ورؤساء» (دانديني، صفحة ٦٧).

دارت كلّ معاهداتهم مع الشعوب على أساس المحافظة على إيمانهم. أمّا علاقتهم مع روما فتمحورت حول المحافظة على خصوصيّتهم، كي تبقى شعلة الأصالة ساطعة في قلوبهم. ويوم قدم الأب دانديني سنة ١٥٩٦ موفداً من البابا لتفقّد شؤون الموارنة، فوجئ بالنِّعم التي تستوطنهم، فجاء وصفه للموارنة مطابقاً لما يقوله كتاب أعمال الرسل عن المسيحيين الأوّلين. قال دانديني: «الموارنة هم رجال ثقة، سليمو النية، صادقو الطويّة، تشفّ ظواهرهم عن بواطنهم... الموارنة يحترمون رجال الدين كثيراً. وعندما يلتقون بأحدهم يلثمون يده بكلّ احترام ملتمسين منه البركة... وإذا قصد أحد السفر أو ركوب الخيل، فيذهب أوّلاً إلى الكاهن ويطلب منه البركة... لا يوجد في هذه البلاد ما يوجب الريبة في سلوك النساء. فلا مومسات ولا من ذوات هنات. فلا يسمع فيها ما يندى له الجبين. ولا ما يخجل من ذكره. إنّها لنعمة خاصة يفاخر بها الشعب اللبناني».

هكذا عاش الموارنة. وهكذا شهدوا ليسوع المسيح. وهكذا تغلّبوا على كلّ الصعاب. وهيهات يهابون العذاب والجوع والمجاز وصولاً إلى المشانق.

لكنّهم بعد أن تركوا الجبال والأودية والمغاور ويمّموا شطر السواحل والمدن، امتحنتهم تجارب من نوع آخر فتراجعت فضائلهم. وكأنّ الإيمان الذي واجه الأخطار، وتجاوزها، لم يستطع أن يواجه تحدّيات الأزمنة الحديثة، ويتجاوزها.

سرعان ما تبيّن أنّ الماروني لم يبتعد عن حياته المسيحيّة بسبب انتقاله إلى المدينة فحسب، بل بسبب توقّفه عن متابعة التعليم. ولكن هل يُصدَّق هذا بعد أن أصبح لبنان بلد المدارس والنور؟

لم تشهد الطائفة المارونيّة في كلّ تاريخها الطويل توافر المدارس التي تشهدها اليوم. فهي متوافرة في كلّ قرية من قرى لبنان، وفي كلّ مزرعة، وفي كلّ حيّ من أحياء مدنه. هناك عشرات الجامعات والكليات. وبات يؤمّ هذه المدارس مئات الألوف من التلامذة الموارنة. وقد ضاقت الجامعات على الطلبة الموارنة. فتوجّه عدد كبير منهم إلى جامعات العالم. وقد رأينا أنّ التعليم الديني مؤمّن لجميع المسيحيين في المدارس اللبنانيّة، الخاصّة منها والرسميّة. فكيف يمكن أن يكون وراء ابتعاد الموارنة عن إيمانهم، توقّفهم عن متابعة التعليم؟ هل توفّر التعليم في أجيال الجهل للموارنة، أكثر مما توفّر لهم اليوم في أيام النور؟

في أيّام الجهل كان الكاهن وحده متعلّماً. كان يقرأ الكتاب المقدّس ويشرحه. وكان الشعب ينظر إليه كما ينظر إلى المعلّم. فيُقبِل إلى الكنيسة ويصغي إلى تعليمه وتوجيهاته، فيفهم الديانة المسيحية ويعيشها. ووجد الكاهن نفسه أحياناً غير أهل لمتابعة وظيفته التعليميّة. هكذا توفّر التعليم المسيحيّ للتلاميذ في المدارس، على أيدي رجال العلم، ولم يتوفّر للشعب في الرعيّة، بخلاف ما كان يجري في الأجيال الماضية، وبخلاف ما قام به الرسل، وبخلاف ما قام به يسوع نفسه.

المشكلة الجوهريّة هي في انحسار حضور الرعيّة في الحياة المارونيّة. فالرعيّة هي كلّ شيء. والرعيّة هي قبل كلّ شيء. فإذا كان هناك رعيّة وجامعة، فالرعيّة قبل الجامعة. وهي أقوى وأشمل. الجامعة هي في الرعيّة، لا الرعيّة في الجامعة. الرعيّة هي الكنيسة. الرعيّة هي أنّ يسوع المسيح يحيا في شعبه. هي أنّ يسوع المسيح يعلّم ويعمل أعمال الله. الرعيّة خلقها الله على قالب الإنسان، وفيها كان المسيحيّون يتابعون التعليم.

بعد أن توقّف التعليم في الرعيّة، بهت إيمان المؤمنين وغلبت على ممارساتهم قوّة العادة. وزاد الأمر سوءاً بعدما اقتصر التعليم في المدارس على الصغار وحدهم. عندما كان الشعب يتابع التعليم، كان يعيش حياته المسيحيّة الصحيحة، وكان الأولاد يتبعون والديهم. أمّا عندما انقلبت المقاييس وأصبح التعليم يعني الصغار وحدهم، كان ما يتعلّمه الصغار يتبخّر أمام تصلّب والديهم. بعد أن توقّف الشعب عن متابعة التعليم، خفت الإيمان

وتأخّرت الكنيسة.

مع انتقال المارونيّ من الجبل إلى المدينة، انتقل من حياة هادئة قرويّة محافظة يخاف أهلها الله ولا يعرفون إلاّ الصلاة والعمل. فبات في مدينة صاخبة، مركّبة، معقّدة، متداخلة، يعمل مع أناس لا تربطه بهم أيّة صلة. وصادف انتقاله إلى المدينة مع ثورة في عالم الإعلام والتواصل، حملت إليه أحياناً، فضلاً عن تقنيات الحداثة وإيجابياتها، ما يندى له الجبين، إلى جانب العقائد والأفكار الجديدة التي تناقض الدين. هذا كلّه جعله في وضع صعب، وجعل إيمانه في امتحان وخطر.

هذا الإنتقال السريع من عالم إلى آخر، أبعد الموارنة عن حياة الألفة التي تعوّدوها. وأبعدهم عن تعاليم الإنجيل. فكان الفرق كبيراً بين موارنة الأمس وموارنة اليوم.

الشكوى من قلّة الوافدين إلى الكنيسة يوم الأحد في كنائس الموارنة في لبنان وخارجه، لها مدلولها. فالعائلات التي كانت تقوم عند الفجر، وتسير مسافة ساعة وأكثر أحياناً تحت المطر لكي تسمع القدّاس يوم الأحد، تقابلها العائلات التي تبقى مستلقية في الفراش اليوم حتى منتصف النهار، بعد أن تكون قد بقيت إلى ساعة متأخّرة في الليل في سهرات راقصة أو في حفلات دنيوية.

هل يراوح عدد الذين يسمعون القدّاس اليوم بين الثلاثين والأربعين في المئة كما يقول بعضهم؟ وهل أنّ هذا العدد آخذ في التدنّي كما يقول بعضهم الآخر؟ إذا صحّ هذا الزعم، هل التراجع في ممارسة الواجبات الدينيّة لا يعني حتماً التخلّي عن الإيمان؟ كثيراً ما نسمع هذه الكلمات: صحيح أنّي لا أحضر القدّاس ولا أصلّي ولا أمارس واجباتي الدينية، لكنّ إيماني كبير. فهل هذا ممكن؟ ما هو الإيمان؟

ذات يوم سأل يسوع تلاميذه: «مَن هو ابن الانسان على حدّ قول الناس. فقالوا: بعضهم يقول: هو يوحنّا المعمدان، وبعضهم يقول هو إيليا، وغيرهم يقول هو إرميا أو أحد الأنبياء». فقال لهم: مَن أنا على حدّكم أنتم. فأجاب سمعان بطرس: أنت المسيح ابن الله الحيّ (متى ١٦/ ١٣-١٦).

«أنت المسيح ابن الله الحيّ»، هذا هو فعل الإيمان المسيحيّ. وقبل أن يبوح بطرس بهذه الكلمات، كان قد اطّلع على تعاليم يسوع وأعماله. عرف أنّ تعاليم البشر لا تنفع إذ إنّها تشدّ بنا إلى تحت وتجعلنا أنانيين وتقتل كلّ عاطفة إنسانيّة عندنا. بينما تدعونا تعاليم يسوع إلى الإرتفاع والى تخطّي الحواجز التي تفصلنا عن الآخرين، وتجعلنا جميعاً «قلباً واحداً ونفساً واحدة».

عرف أنّ الإنسان ضيّق الآفاق ومحدود القدرة. وأنّه في النهاية لا يستطيع أن يتّكل إلاّ على يسوع لكي ينجو من متاعب الدنيا ويجد الخلاص. فاختار الطريق الذي خطّه يسوع. آمن بيسوع وتبعه. كان أنانياً يطلب ما هو لنفسه على حساب الآخرين. فانضمّ إلى جماعة المؤمنين وأخذ يشاركهم في خدمة الله والبشر. عمل بمحبّة، على ما يعلّم الإنجيل. فجاءت أعماله على مستوى طموحاته، وتدلّ على قوّة إيمانه، على ما يقول القدّيس يعقوب: «ماذا ينفع الإنسان، يا أخوتي، أن يدّعي الإيمان من غير أعمال؟ أبوسع الإيمان أن يخلّصه؟ فلو كان فيكم أخ عريان أو أخت عريانة ليس لهما قوت يومهما، وقال لهما أحدكم اذهبا فاستدفئا وأشبعا، ولم تعطوهما شيئاً مما يحتاج إليه الجسد، فماذا ينفع قولكما؟ وكذلك الإيمان، فإن لم يقترن بالأعمال صار ميتاً في حدّ ذاته» (يعقوب ٢/ ١٤-١٧).

على أيّ أعمال يتكلّم القدّيس يعقوب؟ إنّها الأعمال التي تبني ملكوت الله وتجعل الإنسان يسير على خطى المسيح. ففي فجر الخليقة خلق الله الإنسان على صورته وكمثاله، وسلّطه على جميع مخلوقات الأرض. وجعله في جنّة عدن وطلب منه أن يفلحها ويحرسها. لكنّ الإنسان رفض أن يعمل بمشيئة الله وفضّل أن يعمل بمشيئة نفسه. فسقط. ودخلت الخطيئة إلى العالم بسبب هذه المعصية. ابتعد الناس عن الله وابتعدوا بعضهم من بعض. وأصبحوا عرضةً للمرض والألم والموت.

لم يبقَ الأمر طويلاً على هذه الحالة. فقد جاء إلينا يسوع المسيح ليتمّم مشيئة الله ويبني ما قد تهدّم، ويجمع الناس من جديد. بسط يديه على الصليب وذاق الموت وبشّر بالقيامة. عندما نؤمن بيسوع المسيح ونتبعه، ننضمّ إلى جماعة المؤمنين ونحقّق إرادة الله.

إنّ وحدة البشر هي بناء ملكوت الله. فالإيمان إذاً أن نبني وحدة الشعب ونحقّقها. فكيف يدّعي الإيمان مَن كان يهدم ومَن يطلب نفسه ولا يأبه لحاجات القريب؟ يستغلّ الضعيف ويحتقر الفقير ويأكل خبز الأرملة واليتيم ولا يسمع صراخ المريض. وكيف يدّعي الإيمان مَن كان يزرع بذور التفرقة ويقيم حاجزاً بينه وبين الآخرين؟

إذا كان الإيمان بيسوع المسيح هو الزهد في النفس والسير على خطاه في عبادة الله وجعل الكثيرين واحداً، فكيف يدّعي الإيمان مَن لا يصلّي إلى الله ولا يشترك في ذبيحته ولا يعمل على توحيد القلوب ورصّ الصفوف؟

إلى جانب ذلك، انتشرت جمعيّات كثيرة تقوم بنشاطات واسعة ضدّ الإيمان في أحياء مارونيّة صرفة من مدننا اللبنانيّة. تسخو بالمال وبالمساعدات الاجتماعيّة وتجد مَن يسمع لها وينقاد إليها. وقد ظهرت النتائج. فالموارنة الذين وصفهم البابا لاون «بالورد بين الشوك»، يقابلهم اليوم التسابق الذي نشهده عند بعض الموارنة في الانتماء إلى الإتجاهات الفكريّة المضادّة للدين. والموارنة الذين قال عنهم الأب دانديني «أما معاملاتهم وعقودهم فلا تحتاج لتسجيلها ومصادقة الحكّام عليها. فلا يداخل أحد منهم سوء ظنّ بقريبه»، يقابلهم اليوم الذين فُقدت الرحمة من قلوبهم فطمعوا وسرقوا وظلموا وكانت لهم ثروة على حساب الضعيف والفقير والمحتاج. والنساء اللواتي قال عنهنّ الأب دانديني: «أمّا النساء الموارنة فيتّصفن بالآداب والرصانة والتقوى. إنّ الفتاة المارونية مثال الحشمة. وليس فيها ما ينكر فيها. لا في هيئتها الطبيعية ولا في ملابسها. ولا في آدابها ورصانتها. وما نستحسنه نحن في المرأة اللبنانية تفتخر فيه المرأة الأوروبية»، تقابلهنّ اليوم العائلات المتفكّكة والانحرافات المتفشّية والخيانات الزوجيّة المتعدّدة.

بعد هذا، ألاّ يحقّ لنا أن نتساءل هل لا يزال الموارنة موارنة؟

جاء في **شرعة العمل السياسي في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصية لبنان** أنّه «ينبغي أن يتّصف تعاطي الشؤون الزمنيّة باستلهام الضمير المسيحيّ، والجمع بين موجبات العمل

السياسيّ والمبادئ الأخلاقيّة، ووحدة الحياة بالتناغم بين الروحي والإنساني»[١٠].

ودعت الشرعة إلى «روح الخدمة المتجرّدة والسخيّة، المتصدّية للإغراءات والمناورات الخسيسة والكذب واختلاس أموال الدولة واستعمال أساليب غير شرعيّة وغير أخلاقيّة للوصول إلى السلطة والاحتفاظ بها والتوسّع فيها بأيّ ثمن... والتحلّي بالقيم الإنجيليّة والإنسانيّة ولا سيّما منها بساطة العيش، والتفاني في سبيل الخير العام، والحب التفضيليّ للفقراء وروح الغيرة والتضحية...»، وكلّها قيم مارونيّة عاشها أهلنا منذ فجر المسيحيّة.

إنّ ما نشهده عند بعض الموارنة من مطامع ومظالم وتعدّيات وأنانيّة وتغليب المصلحة الشخصيّة على المصلحة العامّة والوطنيّة حتى، يدلّ على أنّ الإيمان الذي يتمسّكون به هو إيمان تقليديّ لا ينفذ إلى جوهر الحياة، ولا يمتّ بأيّة صلة إلى الزهد في النفس الذي دعا إليه يسوع. انّه إيمان يجعلنا ننظر إلى ديننا نظرة دنيويّة لا روحيّة، وإلى البطريرك والأسقف والكاهن، نظرتنا إلى زعماء دنيويين نقدّرهم بقدر ما تقوى زعامتهم، لا كرسل للمسيح ومعلّمي إيمان.

ولكن مهما يكن من أمر، فإنّ الطائفة المارونيّة كانت ولا تزال تُنبت قدّيسين على مدى الأجيال. فقبل القرن الثاني عشر، عرف الموارنة القدّيسَين مار مارون ويوحنّا مارون. وكذلك القدّيسة أكويلينا الجبيليّة ولها مقام في جبيل، والقدّيسة مارينا ولها مقام في مغارة في وادي قنّوبين.

الأخوة المسابكيون، هم أوّل من رفعت الكنيسة المارونيّة دعواهم إلى الكرسيّ الرسوليّ من أجل إعلان قداستهم. استُشهدوا في الشام في العام ١٨٦٠ خلال المذابح ضدّ المسيحيين، وأعلنهم البابا بيّوس الحادي عشر طوباويين في العام ١٩٢٦.

وفي العام ١٩٢٦ رُفعت دعوى تقديس كلٍّ من شربل ورفقا ونعمةالله. وبعد ظهورات مار شربل في العام ١٩٥٠، أعيد تحريك الملفّ، فأعلن البابا بولس السادس قداسته في ٩ تشرين الثاني ١٩٧٧.

١٠. شرعة العمل السياسي في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصية لبنان، صفحة ٤٤.

أمّا القدّيسة رفقا، فقد أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني قداستها في ١٠ حزيران ٢٠٠١، ثمّ أعلن قداسة نعمةالله الحرديني في ١٦ أيار ٢٠٠٤. أمّا البابا بينيديكتوس السادس عشر، فأعلن في ٢٢ حزيران ٢٠٠٨ طوباويّة الأب يعقوب الكبّوشي، وأعلن طوباويّة الأخ اسطفان نعمة في ٢٧ حزيران ٢٠١٠.

وهناك دعاوى تقديس وتطويب مقدّمة إلى الفاتيكان حالياً، وتضمّ دعوى تقديس الطوباويّ الأخ اسطفان نعمة، ودعوى تطويب البطريرك اسطفان الدويهي، ودعوى تطويب الراهب المريمي طانيوس طربية، ودعوى تطويب البطريرك الياس الحويّك.

ما هذه إلاّ صورة للكثيرين من أبناء الشعب المارونيّ الذين يتبعون يسوع بصمت ويعملون أعماله ويزهدون في نفوسهم من أجله ومن أجل بشارته. «فابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليخدم ويبذل نفسه فداء عن كثيرين» (مرقس ١٠/ ٤٥).

الموارنة لم يتنكّروا لرسالتهم. وإذا كانوا قد أخطأوا الوسائل التي توصلهم إلى تحقيقها، فإنّهم سيعيدون النظر فيها ويقولون ماذا يريدون.

القسم الخامس

ماذا يريد الموازنة؟

ماذا يريد الموارنة؟

بعد مجزرة العام ١٨٦٠ وقد أُحرِقت فيها أكثر من ٦٠ قرية مسيحيّة وقُتِل أكثر من ١٢ ألف مسيحيّ ودُمِّرت كنائس، انتقلت الفتنة إلى دمشق فقُتِل فيها ١٠ آلاف مسيحيّ. تحرّك الضمير العالميّ، ودعت فرنسا إلى مؤتمر ضمّ بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا، اتُّخِذت فيه التدابير لوقف المذابح.

لكن كان لا بدّ من إيجاد حلّ نهائي لهذه المشكلات المزمنة التي كانت أوروبا قد تدخّلت فيها مرّات عدّة.

بدأت الاتصالات بين الشرق والغرب في القرن الحادي عشر. ومنذ ذلك الحين لا يسمع الغرب إلاّ بالمجازر والاضطهادات التي حلّت بالموارنة. الموارنة هم مسيحيّون وهم قلّة في الشرق، بينما أغلبية الشعوب في المنطقة هم مسلمون. طُرِح الافتراض الآتي: إذا كان الحوار يتعذّر بين المسيحيين والمسلمين، فلماذا لا يصار إلى الفصل بين هذين الطرفَين فتنتهي المشكلة المزمنة والمستعصية؟

لكنّ مشكلة الموارنة لم تكن مع المسلمين وحدهم. فمنذ أن قدم الصليبيون إلى الشرق وقدمت الإرساليّات بعدهم إلى لبنان، بدأت المشكلات بين الموارنة وأهل الغرب. الموارنة هم كاثوليك. والإرساليّات هي إرساليّات كاثوليكية. ومع ذلك فقد كان بين الإرساليّات والموارنة جفاء كبير.

اعتبر بعض مسيحيّي الغرب أنّ الموارنة خارجون على تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة وأصحاب عادات بدائيّة وتقاليد لا تنمّ عن روح الحضارة في شيء. فحاولوا إعادتهم

إلى الطريق الصحيح وتجميل ليتورجيّتهم بوشاح جديد. وقد دامت هذه الأمور أجيالاً عديدة، عانى الموارنة منها ما عانوا.

ولم تكن مشكلة الموارنة مع مسيحيّي الغرب وحدهم، بل مع المسيحيين الشرقيين أيضاً. فمنذ القرن الرابع، عندما أعلن المسيحيون في الشرق رفضهم مقرّرات المجمع الخلقيدونيّ، وقف الموارنة في وجوههم وأيّدوا المجمع، وكانوا أقلّية. كان الشرق مسيحيّاً في ذلك الوقت. فأدّت المشكلات بين الموارنة، وهم أقلّية، والمسيحيين الشرقيين، إلى مجازر وتعدّيات واضطهادات دامت أجيالاً عدّة.

كانت المشكلات بين الموارنة والمسلمين. وكانت قبل ذلك بينهم وبين مسيحيّي الغرب. وقبل ذلك أيضاً كانت بينهم وبين مسيحيّي الشرق. فهل المارونيّة ذاتها هي المشكلة؟

الواقع يشير إلى أنّ الموارنة كانوا عرضة للمضايقات والاضطهادات حتى قبل أن يعتنقوا الديانة المسيحيّة. كانوا عرضة لشتّى أنواع الضغوط قبل أن يصبحوا موارنة.

فيوم اعتنق الشرق الديانة المسيحيّة في القرن الرابع، اعتصم الشعب في جبال لبنان العالية ورفض الديانة المسيحيّة. في ذلك الوقت بالذات كان هذا الشعب الذي أصبح مارونياً في ما بعد، وحده في ذلك الوقت بالذات، كان يفكّر غير ما كان يفكّر فيه الآخرون، ويطلب غير ما كان يطلبه الآخرون، ويعيش عيشة لا يألفها الآخرون.

إنّ مشكلة الموارنة هي أبعد من أن تكون مشكلة مع المسلمين، ومع المسيحيين الغربيين، ومع المسيحيين الشرقيين، ومع الدين في ذاته. فقد كانت هناك حقبات من الزمن، كان الموارنة فيها على اتّفاق تامّ مع المسلمين، ومع مسيحيي الغرب، ومع مسيحيي الشرق، ومع الذين لا يدينون بأيّ دين.

إنّ مشكلة الموارنة هي أبعد من أن تكون مشكلة دينية. إن مشكلة الموارنة هي في نزعتهم إلى الحرّية والى الانفتاح. وهذه النزعة قويّة عند الموارنة بحيث أنّهم يتخلّون عن كلّ شيء ولا يتخلّون عن حرّيتهم وانفتاحهم. ولعلّ الجبل العالي والبحر الفسيح هما اللذان طبعا الموارنة بهذا الطابع. فإذا توافرت الحرية وتوافر الانفتاح للموارنة، سعدوا ووجدوا حقيقة

ذاتهم، وإذا انتُزِعا منهم فقدوا صوابهم.

كان الجبل اللبناني عاملاً حيوياً في حياة اللبنانيين، وشكّل في موقعه الطبيعيّ سدّاً منيعاً حال دون اتّصالهم بالبلدان الشرقية الداخلية. فاتّجهوا إلى الغرب أكثر مما اتّجهوا إلى الشرق. فركب الفينيقيّون، سكّان لبنان الأقدمون، السفن واتّجهوا إلى أفريقيا وأوروبا. وكانوا أوّل من وصلوا إلى أميركا. سار الموارنة، سكّان لبنان المعاصرون، في الخطّ عينه. فاتّجهوا إلى الغرب وتعاملوا معه، وانفتحوا على الشرق وساهموا في النهضة الفكريّة وفي إطلاق حركات التحرّر ونشر مفاهيم الحرّية والاستقلال.

وكانت علاقات ودّ تجمع ما بين اللبنانيين وجبلهم. فأحبّوه وأخذوا عنه، لصعوبة طرقه، وعلوّ قممه وعمق أوديته، قوّة الإرادة وبعد الآفاق وحبّ الاستقلال والحرّية. غالوا في تمسّكهم بحرّيتهم، واستماتوا في سبيل المحافظة عليها. فارتضوا العزلة والعيش المضنك. وكانوا يفضّلون أن يأكلوا لقمتهم مغموسةً بالدم مع الحرّية والاستقلال، على أن تكون لهم خيرات طائلة وتُنتزَع منهم حرّيتهم.

كانت نزعتهم إلى الحرّية والاستقلال قويّة إلى حدّ جعل لكلّ بلدة خصائصها وعاداتها. وكانت كلّ منطقة تتميّز عن منطقة أخرى وتحتفظ بآرائها ومميّزاتها. وقد أصبحت هذه المناطق في وقت من الأوقات ممالك، لكلٍّ منها هيكليّتها وملكها وجنودها.

هذا الجبل اللبناني جعل أهله كالصخر أقوياء الإرادة، عنيدين في الرأي. وكان البحر قد وسّع آفاقهم. فانفتحوا على كلّ إنسان وعلى كلّ فكر. كانوا مضيافين، أسخياء وأصحاب همّة، يفتحون بيوتهم في وجه التائه والمعوز. وكانوا ينجدون مَن كان بحاجة إلى نجدتهم.

هذه هي صفات اللبنانيين. اذا توافرت لهم الحرّية، برزت مواهبهم. وإذا انتُزِعت منهم، حاولوا استرجاعها بالقوّة، معلنين الحرب على الظالم مهما كانت وطأته كبيرة.

هذه الحرّية هي التي أتاحت أمام اللبنانيين سبل تأدية خدمات جليلة للعالم منذ العصور القديمة. اكتشفوا الحروف الهجائيّة. وكانوا روّاداً في الفلسفة والتشريع والتجارة. وكانوا أوّل من آمنوا بالإله الواحد الذي وصل إليه العبرانيّون من طريق الوحي.

لكنّهم عرفوا حقبات استطاع الشرّ أن يُضعف فيها حرّيتهم، فسقطوا، وكادت تتلاشى كلّ مواهبهم. فتمادوا في الضلال. وظهر ضلالهم بنوع خاص في ديانتهم. فانتقلوا من عبادة الإله الواحد الحقيقيّ إلى عبادة الآلهة. وفي هذا المضمار لم يقف الفينيقيّون، سكّان لبنان الأقدمون، عند حدّ. وتأصّلت عبادتهم هذه حتى كاد يصبح استئصالها منهم ضرباً من المستحيل. فقدّموا الذبائح البشرية لآلهتهم، وصلّوا لاسترضائها، وطلبوا شفاعتها لينتصروا على أعدائهم. وقد «أعطت عبادتهم تمدّنهم سمة ماديّة وشهوانيّة وأهبطتهم في وهدة فساد وحشيّ» (تاريخ لبنان للأب مرتينوس، صفحة ٥٦٣).

ولم تستطع الديانة المسيحيّة أن تستأصل هذه الديانة الوثنيّة منهم إلاّ بعد جهد طويل. كان ابتعادهم عن وثنيّتهم وقبولهم يسوع المسيح بمثابة موت وقيامة. وقد استلزم هذا الإصلاح جهداً كبيراً قام به تلاميذ القدّيس مارون.

سار الموارنة في الطريق عينه، فعاشوا ديانتهم المسيحيّة بطريقة مثاليّة لأجيال عديدة. لكنّهم عرفوا الضعف بدورهم، وسقطوا. عملت الإرساليّات عملها في صفوفهم، فانقادوا لتعاليم الغرب. وفرض الغرب عليهم تقاليده وعاداته، فتفكّكت وحدتهم.

كان الموارنة يعيشون في رعايا، وشكّلت كلّ رعيّة وحدة طبيعيّة، تجمع أهلها وتصهرهم كالبوتقة وتجعلهم واحداً. ساروا طويلاً على مثل هذه الدرب. عاشوا الخوف والعوز وعرفوا الاستشهاد.

تشاركوا، فتجلّى في إيمانهم وفي اتّحادهم ما حقّقه المسيحيون الأوّلون في كنيسة أورشليم، كنيسة تُنبِت قدّيسين على مدى الأجيال، ولا تملّ.

ويوم لحقوا بطاركتهم من كهف إلى آخر، تعرّف العالم إلى كفرحي ويانوح وميفوق ولحفد وهابيل وقنّوبين وبكركي. ويوم تباعدوا، تفكّكت الرعيّة ومعها لبنان.

تاريخ الطائفة المارونيّة هو تاريخ جبال لبنان وأوديته. ففيما كان الشعب المسيحيّ في أوروبا، وفي سائر أنحاء الأرض، يجتمع حول أسقفه في قلب المدينة، حيث شيّد كاتدرائيّته، والى جانبها، كرسيّه، كان الشعب المارونيّ يلتحق ببطريركه من كهف إلى كهف، ومن سفح

جبل إلى سفح جبل.

وإذا حفظ التاريخ المارونيّ أسماء للكرسيّ البطريركيّ الذي انتقل إليه البطاركة تبعاً للظروف الآمنة، فإنه حفظ أيضاً أسماء إهدن وبشرّي والحدث وحصرون والعاقورة... وهذه كلّها رعايا مارونيّة في أعالي الجبال.

هذا يعني أنّه إذا كان البطريرك المارونيّ، هو الذي يكتب تاريخ طائفته، فإنّ وقائع هذا التاريخ كانت تدور في الرعايا. والرعايا المارونيّة لطالما كانت واحات إيمان ورجاء ومحبة.

وكان قد أقيم أسقف على إهدن، وآخر على بشرّي، وثالث على العاقورة. أمّا البطاركة فعرفتهم الرعايا جيّداً وتناقلت فضائلهم ومآثرهم من جيل إلى جيل، إلى درجة أنّكَ إذا زرتَ إهدن اليوم، شعرتَ كأنّكَ تعايش البطريرك يوحنّا مخلوف الذي لُقِّب بالقدّيس لتقواه الخارقة، والبطريرك جرجس عميره الذي قال عنه وعن أمثاله أحد سيّاح الفرنج: «عصيّهم من خشب أمّا هم فمن ذهب»، والبطريرك اسطفان الدويهي الذي بدأ حياته الكهنوتيّة بتعليم الأولاد في أحد بيوت إهدن قبل أن يتسلّم قيادة الطائفة ويرعاها برصانة وغيرة ومحبّة، فتعتريكَ الرهبة وتعرف أنّكَ وطئتَ أرضاً مقدسة.

وإذا طلبتَ من إهدنيّ أن يساعدكَ في أمر، أيّاً كان هذا الإهدنيّ، وأيّاً كان هذا الأمر، هبّ إلى نجدتكَ هازئاً بالعقبات، كأنّ الأمر هو أمره، فتتعجّب لهذه النخوة.

وتمرّ أمامكَ تلقائيّاً صورة الإهدنيين يوم حملوا السلاح ووقفوا في وجه جيوش المماليك في سنة ١٢٨٣. ويوم هجموا على اليعاقبة الذين تعشّشوا في الجبّة فطردوهم منها سنة ١٤٨٨. ويوم عاهدوا سيّدة الحصن أنّهم يدافعون عن دين آبائهم حتى الموت بعد هجوم أهل الضنّية عليهم سنة ١٤٨٩. ويوم هبّوا عن بكرة أبيهم ضدّ تعدّيات بيت حمادة سنة ١٧٥٩، فأبعدوهم عن الجبّة. ويوم وقف يوسف بك كرم ضدّ العثمانيين يطالب بالحرّية والكرامة. وفي غمرة هذه الصور، تعرف أنّ إهدن هي أكبر من البطريرك يوحنّا مخلوف، وأكبر من البطريرك جرجس عميره، وأكبر من البطريرك اسطفان الدويهي، وأكبر من يوسف بك كرم. إنّها رعيّة مارونيّة أصيلة. وهذه النخوة التي تجدها عند الأهدنيين، هي

نتيجة حياة رعائيّة صحيحة.

وإذا زرتَ بشرّي، تذكّرتَ حكم المقدّمين. وتذكّرتَ ما قاله البطريرك اسطفان الدويهي، ومفاده أنّ البطريرك يوحنّا الجاجي، في عهد المماليك، وبالتحديد في سنة ١٤٤٠ «أخلى دير ميفوق وانتقل إلى جبّة بشرّي تحت حماية المقدّم يعقوب البشرّاني».

وتمرّ أمامكَ سلسلة البطاركة، فتعدّ منهم أربعةً وعشرين بطريركاً عاشوا في وادي قنّوبين، وكانوا تحت حماية مدينة المقدّمين. فتشعر أنّكَ أنتَ أيضاً بأمان، وتعرف أنّ القوّة التي وفّرت الحماية للبطاركة، هي ذاتها التي قادت جبران خليل جبران، ابن بشرّي، إلى أن يحمل الروح المشرقيّة إلى العالم، وهي هي التي حملت البطريرك أنطون عريضة، وهو أيضاً ابن بشرّي، عندما كان لا يزال مطراناً لأبرشيّة طرابلس، على أن يرهن صليبه الذهبي، خلال الحرب العالميّة الأولى، ليُطعم الجائعين.

وتعرف أخيراً أنّ هذه القوة التي تشدّ بكَ إلى بشرّي، وتنقلكَ من غربتكَ لتدفعكَ نحو الآخرين والعمل معهم على أساس سليم، هي القوّة الرعائيّة التي تقتل كلّ عداوة وتجعل الكثيرين واحداً.

وإذا زرتَ العاقورة، يدلّونكَ أين ولد البطريرك يوسف حليب والى أيّ بيت لجأ هذا الأسقف أو ذاك هرباً من الاضطهاد. فتعرف أنّ العاقورة هي قاعدة مارونيّة أصيلة. وتمرّ أمام مخيّلتكَ الحوادث المأسوية التي تعاقبت على هذه البلدة عبر الأجيال ودفعت ثمنها غالياً، فأُحرقت سبع مرّات في نضالها في سبيل الدين والوطن، فانتشرت عائلاتها بسبب ذلك في أكثر قرى لبنان. لكنّها كانت في كلّ مرة تعود وتظهر في الحياة اللبنانيّة من جديد بقوّة أكبر للدفاع عن كرامة الوطن وحرّيته، هازئةً بالعواصف كالربيع بعد الشتاء، مؤكّدةً أنّها أقوى من الصخور التي تحيط بها من كلّ جانب، وأنّها لا تزال اليوم كما في الماضي أمينة على شهادتها للمسيح، حريصة على أن تكون محرقة في سبيل بقاء لبنان.

وإذا زرتَ تنّورين، شعرتَ برهبة. لكأنّكَ تدخل هيكلاً للرب. ذلك أنّ تنّورين ضاقت على سكّانها فجعلوا لهم قرى عديدة (عشر قرى). ثمّ ضاقت هذه القرى عليهم من جديد،

فانتشروا في معظم قرى لبنان. لكن تنّورين بقيت البلدة الأمّ. بحيث أنّ سكّان هذه القرى العشر ظلّوا مثل رفاقهم الذين توزّعوا على معظم قرى لبنان، يُقبِلون على بلدتهم الأمّ في كلّ المناسبات. وإذا سألتَ أحدهم حيثما وُجد في أيٍّ من هذه القرى بعد ما مرّ على وجودها أكثر من مئة سنة: من أين أنتَ؟ أجاب بشيء من العنفوان: أنا من تنّورين. فتعرف قوّة الرعيّة المارونيّة، وتعرف بالتالي تعلّق المارونيّ برعيّته.

وإذا زرتَ حصرون، شعرتَ بوجود البطريرك يعقوب عوّاد والبطريرك سمعان عوّاد، وبوجود السماعنة، وعشرات الأساقفة والكهنة الذين عملوا إلى جانب البطاركة في حقل العلم والترجمة والتربية... في خدمة الطائفة.

وإذا زرتَ الحدث، شعرتَ بالبطاركة يعقوب ويوسف وسمعان أبناء حسام، فتنحني بإجلال أمام ذكر مَن عاشوا في مغارة سبع سنوات حتى لا يتخلّوا عن ديانتهم.

يمكننا أن نقول الشيء عينه في حدشيت وإهمج وجاج ومشمش ودير القمر وجزّين. وعن كلّ قرية مارونية. فالرعايا المارونية الأصيلة بقيت متّحدة، وبقيت تفاخر بعاداتها المارونيّة، وبقيت تدلّ باعتزاز على البيوت التي حظيت بزيارة البطريرك أو الأسقف.

لكنّ هذه العادات والتقاليد بدت وضيعة أمام مدنيّة أوروبا، فضُربت، وأُهمِلت الرعيّة. وفي سنة ١٧٣٦، ألغى المجمع اللبناني أسقفيّة إهدن وبشرّي والعاقورة، وأوقف الخطّ الذي سارت عليه الطائفة منذ القديم، وأوجد آخر جديداً، هو الخطّ الذي سارت عليه الكنيسة في الغرب.

أيّ خطّ أصحّ؟

هل الخطّ القديم الذي يفتقر إلى كلّ شيء، ويغلب على حياة شعبه الجهل والفوضى؟ إلى درجة أنّكَ إذا سألتَ أحدهم كم هو عدد أبناء رعيّته، قال لا أعرف. وإذا سألتَه متى تأسّست رعيّته وكيف عاش أبناؤها في الماضي ومتى بدأ الفتور في صفوفهم، أجاب: ما نفع هذا السؤال.

أم الخطّ الجديد الذي تظهر فيه الطائفة منظّمة بمؤسّساتها وجمعيّاتها ومشاريعها؟

مهما يكن من فرق بين الفوضى والتنظيم، وبين الجهل والمعرفة، فإنّ الرعيّة المارونيّة في الأجيال السابقة كانت تثير إعجاب الناس، بينما لا تثير الرعيّة اليوم في الغالب إلاّ الإنتقاد. وهل يصعب التنظيم والمعرفة في ظلّ عودة مرجوّة إلى الرعيّة الحقّ؟

إنّ ما يثير إعجاب الناس هو المحبّة. وقد وجد الناس المحبّة عند أولئك الموارنة الذين كانوا يستغلّون الأرض ويتحمّلون قسوة الطبيعة، ثمّ يعودون إلى الله فيقولون: «أعطِنا خبزنا كفاف يومنا. اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا... ولا تُدخِلنا في التجارب لكن نجّنا من الشرّير».

وجد الناس المحبّة في الرعيّة. والمارونيّ هو ابن الرعيّة. والرعيّة صهرت الشعب وأزالت الحواجز بين صفوف الموارنة وجعلتهم واحداً.

ليس الأمر أن نسير على خطى الغرب ولا أن ننظّم حياتنا بنظم الغرب. بل أن نعيد الشعب المارونيّ إلى أصالته. فبقدر ما يعود الشعب إلى رعيّته، تزول أسباب التفرقة، ويصبح الجميع واحداً، متساوين بالإيمان والرجاء والمحبّة، وتزول الإمتيازات، فيتساوى الجميع في الواجبات وفي الشهادة للمسيح ويتحقّق الإصلاح.

الرعيّة هي صنع الله. وقد جعلها الله على قالب الإنسان. وما الخروج على روحيّة الرعية وجوهرها، إلاّ طريقٌ للتخلّي عن الخطّ الذي رسمه الله، ولاتّباع خطّ البشر.

هكذا وصل الموارنة إلى ما وصلوا إليه. كثرت الشرور في صفوفهم. فكان منهم الغنيّ الذي يتعدّى على حقوق الفقير، والمتسلّط الذي يأكل حقّ الأرملة والمسكين واليتيم، والدائن الذي يستغلّ ظروف مدينه، فيأخذ ماله أربعة أضعاف. فكانت الثروات التي تتكدّس بين فئة قليلة، بينما يشكو القسم الأكبر من الناس العوز والحرمان.

تعاظمت الشوائب في حياتهم المسيحيّة، وعملت شؤون الدنيا في نفوسهم، فضعفوا وتفرّقوا. بات مجدهم فانياً عندما تضعضع إيمانهم، فحلّت الانحرافات والضغائن، وغرقوا في القشور وتقاتلوا.

كان الموارنة أصحاب رسالة فأصبحوا مثل سائر الناس.

إنّ التشكّي العام من الانصراف عن الدين وعن ممارسات الواجبات الدينيّة، ومن فقدان القيم التي كان يتغنّى بها الموارنة سابقاً، ومن الإنحطاط في الأخلاق، ومن الشرور... هذا كلّه يدلّ على أنّ الموارنة وصلوا إلى ما كان وصل إليه الفينيقيون، سكّان لبنان الأقدمون في القرن الرابع، عندما تركوا عبادة الإله الواحد، وعبدوا الشمس والقمر وغيرهما من الآلهة.

تمادى سكّان لبنان الأقدمون في الضلال. وحدها الديانة المسيحية بما عندها من قوى، استطاعت إعادتهم إلى الخطّ الصحيح. ترى، هل من قوّة تستطيع أن تعيد الموارنة إلى ما كانوا عليه سابقاً؟ ترى، هل يمكن أن يتحقّق الإصلاح. وما هي الطريق إليه؟

يقول بعضهم إن الظروف لم تعد مؤاتية للموارنة اليوم. فالوقت لا يعمل لحسابهم. والأخطار تحيط بهم من كلّ جهة. وما تحمّله أعداؤهم مدّة أجيال عديدة، ينصبّ عليهم اليوم ناراً وكبريتاً. إلى حدّ أن الناس أخذوا يسألون إذا كان الموارنة سيبقون موارنةً بعد اليوم. وما هو مستقبل الموارنة؟ وهل يمكنهم أن يلعبوا الدور الذي لعبوه سابقاً؟ هل وصل الموارنة إلى طريق مسدود؟

يوم ترك بعض المسيحيين المعترك معتبرين أنّ الحياة المسيحيّة لم تعد أمراً ممكناً في العالم، وخرجوا إلى الصحراء طالبين الخلاص، بقي مارون وتمسّك بالرعيّة متّخذاً إيّاها خشبة خلاص.

وفي أثناء المجمع الخلقيدوني، رفض المسيحيون في الشرق مقرّرات المجمع ونصّبوا نفوسهم حكّام الشرق. بقي الموارنة في الشرق وأيّدوا المجمع. ساروا في عكس السير ودفعوا ثمن ذلك شهادة الدم.

سنة ٦٨٧، عندما استفحل الشرّ ووجد الموارنة أنّهم أمام تحدّيات تفوق قدرتهم وأنّهم معرّضون للفناء، وقفوا في وجه كلّ التحديات ولم يستسلموا. نصّبوا بطريركاً عليهم ليوحّد كلمتهم ويقيهم الأخطار.

في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر، كان الموارنة في حصار ضربه عليهم العدوّ. فعاشوا في عزلة خانقة وارتضوا حياة التقشّف والعوز ولم يقبلوا أن يغيّروا حرفاً واحداً من

قانون إيمانهم. ظلّوا أصحاب موقف.

وفي القرن الرابع عشر، اجتاحت جبال لبنان جيوش المماليك الذين لاحقوا الموارنة في عقر دارهم فقتلوا وشرّدوا وأحرقوا... لكن الموارنة لم يغيّروا موقفهم فهربوا من كهف إلى كهف، وفي النهاية التجأوا إلى وادي قنّوبين، هذه الوادي التي لا يصل إليه إلاّ النسور، على حدّ قول أحد سيّاح الفرنج.

في القرون اللاحقة حاول المسيحيّون في الغرب، الصليبيّون أوّلاً، ثمّ أصحاب الإرساليّات في ما بعد، أن يدجّنوا الموارنة وأن يضطرّوهم إلى التخلّي عن تقاليدهم والعمل بتقاليد الكنيسة اللاتينيّة. لكنّ الموارنة، مع محبّتهم للكنيسة وطاعتهم للبابا التي لا يقبلون أن يضاهيهم أحد بها، وقفوا في وجه الصليبيين والإرساليّات ورفضوا أن تُمَسّ تقاليدهم.

ضيّق عليهم العثمانيون وظلموهم وفرضوا عليهم حصاراً تموينياً فجاعوا وعُذّبوا وعُلّقت مشانقهم... لكنّهم ظلّوا كما كانوا ولم يغيّروا موقفهم. فانتزعوا استقلالاً ذاتياً واحتفظوا به، عندما لم يكن باستطاعة الشعوب أن يكون لها استقلال.

ولم يغيّر الموارنة موقفهم تجاه الفرنسيين أنفسهم الذين ساعدوهم في أيّام المحن وكانوا حلفاءهم... فوقف الموارنة في وجههم، واستطاعوا بالإتّفاق مع سائر اللبنانيين أن ينال وطنهم لبنان الإستقلال التامّ سنة ١٩٤٣.

صمدوا وقاوموا وسطّروا بطولاتٍ خلال المحن التي واجهتهم منذ أيّام الاستقلال حتّى تاريخه. وهي من أصعب ما عايشوه على امتداد تاريخهم الطويل. سقط عشرات الألوف من شبابهم شهداء. وهُدِّمت أعداد كبيرة من منازلهم وقراهم. وشُرِّد مئات الألوف من أهاليهم. وفُكِّكت صفوفهم... هذه المحن على قسوتها، لم تُنهِ دور الموارنة، ولم تنل من عزيمتهم ولم تعطّل طموحاتهم، ولم تجعلهم أمام حائط مسدود. بل زادتهم إيماناً برسالتهم، واقتناعاً بحاجة العالم إلى استمرارها.

هذه الرسالة حملتهم، بما عندهم من انفتاح على الغرب، من دون التنكّر إلى الشرق وتراثه، على أن يجعلوا وطنهم في مستوى يحسدهم عليه العالم. هذه الرسالة التي استرخصوا

كلّ تضحية في سبيلها، هي الرسالة التي سلّمها يسوع لتلاميذه. فالموارنة هم أوّلاً وأخيراً شهود ليسوع بين الناس.

قد يتخلّى الموارنة عن رئاسة الجمهورية في لبنان، وعن كلّ مراكز القرار، إذا كان الإحتفاظ بها يعني الإحتفاظ بنفوذ أو جاه أو محاصصة أو مغانم. لكنّهم سيحتفظون بالرئاسة وغيرها، إذا كان التخلّي عنها يعني التخلّي عن حرّيتهم ووجودهم الحرّ الكريم.

يوم قامت الشبهات حول إيمان البطريرك مخايل الرزّي سنة ١٥٧٧ أعلن البطريرك «أنا مارونيّ ابن مارونيّ». وأضاف: «هذا قراري عليه أحيا وعليه أموت» (الشرح المختصر، صفحة ٢٩٢).

ويوم ارتضى الموارنة في شمال لبنان أن يحكمهم شيعيّ سنة ١٦٥٥، اشترطوا عليه أن يحافظ على ثلاثة مبادئ هي: «الدين والعرض والدم» (دريان، صفحة ١٧١).

لا يريد الموارنة أن يحكموا الآخرين. ولا يريدون في المقابل أن يحكمهم الآخرون.

إنّ ما يريده الموارنة، هو أن يتساوى اللبنانيون. فلا يكون هناك مواطنون من درجة أولى ومواطنون من درجة ثانية. فلا يشكو مواطنون من خوف، وغيرهم من غبن. بل أن تتوافر الحقوق للجميع، وأن تتوافر الحرّية للجميع.

إنّ الخروج من المأزق الذي يتخبّط فيه اللبنانيون، يكمن في العودة إلى أصالتهم وحفظ المحبّة بعضهم تجاه البعض الآخر. فعندما يرتضي اللبنانيّون أن يحبّوا وطنهم، وأن يعطوه لا أن يأخذوا منه، يجدون السلام والإزدهار، ويضعون الحجر الأول في بناء الوطن الذي يحلمون به.

العطاء هو تضحية، لكنّه الأساس الذي يُبنى عليه الوطن. إنّه عمل على مستوى الإنسان. إنّه العمل الذي يقرّب الإنسان إلى الإنسان والى الله.

لا يقتصر عمل الموارنة على شهادة يؤدّونها في لبنان والشرق وحسب. بل في العالم أجمع.

لقد فهموا أنّ الديانة المسيحية لا يحتكرها وطن، ولا تُوقِفها حدود. وما قام به الموارنة في لبنان، يقومون به في بلدان الانتشار. ويأتي نجاحهم هناك، في خانة التضحية وبذل النفس.

هذه هي الرسالة التي يحملها الموارنة بفخر واعتزاز.

لكنّها رسالة صعبة وتقضي بأن يعود الموارنة إلى ما كانوا عليه سابقاً، وهذا ليس بالأمر السهل. إنّ انتقالهم مما هم عليه اليوم من تفكّك وتقاتل، إلى ما كانوا عليه من وحدة ومحبّة، هو بمثابة انتقال من الموت إلى الحياة. ويجب أن يكون مشروع الإصلاح بالنسبة إليهم بمستوى ما قامت به الديانة المسيحيّة تجاه الفينيقيين، في القرن الرابع.

ما هي أسس هذا المشروع؟ وكيف يمكن أن يتحقّق؟ هل هو مجمعٌ كبير على مستوى المجمع اللبنانيّ؟ هل هو مؤتمرٌ وطنيّ يُدعى إليه الموارنة بزعمائهم وقادتهم؟

إذا كان الإنصراف عن الرعيّة هو وراء تفكّك الموارنة وفقدانهم القيم الأخلاقيّة وحياة التضامن والألفة، فإنّ العودة إلى الرعيّة هي باب الأمل.

إنّ ما يحتاج إليه الموارنة قبل أيّ شيء آخر، هو أن يتمسّكوا بدعائم الرعيّة الأساسية: التعليم والحياة المشتركة وكسر الخبز والصلاة. في العودة إلى هذه الدعائم، الرجاء في أنّهم رجعوا إلى ما كانوا عليه سابقاً ليصيروا واحداً.

لا يعني ذلك أن يتركوا مدنهم ومكاتبهم ومصانعهم وينتقلوا إلى يانوح وميفوق ووادي قنّوبين... فتسكن عائلات عديدة من عائلاتهم تحت سقف واحد، ويعمل رجالهم في الأرض وتخبز نساؤهم على الصاج والتنّور، فيتخلّون عن كلّ مدنية ويتبعون يسوع بحسب طريقة التلاميذ في الأجيال الأولى.

إنّ اتّباع يسوع لا يكون بالإنتقال الماديّ من مكان إلى آخر. ولا من وظيفة إلى وظيفة. ولا يكون بالإبتعاد من البيت والبيئة والوطن. بل بالإنتقال الروحيّ من حالة إلى حالة. من التعلّق بالذات إلى التعلّق بالله. ومن حبّ المال وجمعه بطريقة غير مشروعة، إلى اعتباره وسيلة، أو إلى استخدامه بطريقة تعود بالخير على الجميع.

إنّ ما يحتاج إليه الموارنة، هو أن يسترجعوا الروح الذي كان يرفرف فوقهم عندما كانوا يعيشون في يانوح وميفوق ووادي قنّوبين... يعيشون في خوف الله، ولا يطلبون من حطام هذه الدنيا إلا القوت والكسوة. يعملون بجدّ ونشاط فينتزعون لقمتهم مغموسةً

بالعرق والدم. تسطع فضائلهم فيتضامنون ويتّحدون. إذا حلّت بأحدٍ منهم مصيبة، هبّوا إلى نجدته. وإذا نزلت صاعقة على بيت أحدهم، تنادوا في ما يسمّونه «العونة» وبنوا الحائط المهدوم. ترخص أمور الدنيا في نظرهم، فلا يختلفون على مال ولا على متاع. فينصرفون الى أمور الله. يجتمعون في الكنيسة كلّ مساء يصلّون ويستمعون إلى قراءات من الكتاب المقدّس ومن سير القدّيسين. يتساوون بالإيمان والرجاء والمحبّة. لا يتميّز أحدهم عن الآخر، بل يتميّزون جميعهم عن العالم. يصبحون شعباً واحداً، متضامناً، يطلب أن يأتي ملكوت الله وتكتمل مشيئته على الأرض.

هكذا كانت رسالة الموارنة عبر الأجيال. وهكذا يجب أن تبقى. إنّ ما يريده الموارنة هو أن يكونوا شهوداً للمسيح.

إنّ الإصلاح هو عمل يساهم فيه كلّ مؤمن وفي كلّ رعيّة. وعندما يتحقّق التعليم في كلّ رعية وعلى صعيد الشعب، تزول الفروق من صفوف الموارنة، ويخطون الخطوة الأولى في طريق الإصلاح، في طريق العودة إلى أصالتهم الأولى.

وقد وجد الموارنة الطريق من خلال طرح فكرة عقد مجمع بطريركيّ مارونيّ، للعلاّمة الخوري يواكيم مبارك، عرضها، في العام ١٩٨٥، على أعضاء الرابطة الكهنوتيّة الذين رحّبوا بها وعيّنوا لجنة خاصة تعمل على دراستها وتنفيذها.

بدأ المعنيّون عملهم بمباركة البطريرك خريش. ورفعوا حصيلة دراسة المشاورة إلى البطريرك صفير ومجلس المطارنة، الذين قرّروا في حزيران ١٩٨٧ تأليف لجنة مجمعيّة. وفي حزيران ١٩٨٨، قدّمت اللجنة حصيلة عملها وقد جاءت في عشرة مجلّدات وفي ١١٥٢ صفحة.

بين العام ٢٠٠٣ والعام ٢٠٠٦، انكبّت كوكبة من المطارنة والكهنة والرهبان والراهبات مع علمانيين كثر على وضع نصوص **المجمع البطريركي الماروني**، فبلغ نهاياته ونُشِرت ملفّاته الثلاثة في ثلاثة وعشرين نصّاً، بحث في مختلف شؤون الكنيسة المارونيّة في لبنان والمهاجر.

وتطرّقت النصوص، كما التوصيات، إلى هويّة الكنيسة المارونيّة وهيكلياتها، من البطريركيّة والأبرشيّة والرعيّة. ثمّ تناولت الأشخاص، أي البطريرك والأساقفة، والكهنة والشمامسة، والحياة الرهبانيّة والعلمانيّة، والعائلة والشبيبة.

ثمّ انتقل البحث إلى الطقس المارونيّ، والعمل الراعويّ، والتعليم المسيحيّ، وتنشئة الراشدين. وانتهى البحث إلى التربية، بما فيها التعليم التقنيّ، والتعليم العالي، والثقافة، والسياسة، والشأنان الاجتماعيّ والاقتصاديّ، والإعلام، والأرض.

وصف الكثيرون أعمال هذا المجمع بالحدث الأبرز في حياة الكنيسة المارونيّة منذ أكثر من قرنين ونصف قرن. فالمجمع السابق الشهّير الذي عُقِد في العام ١٧٣٦ في دير سيّدة اللويزة شكّل حدثاً استثنائياً. وقد احتاج نظراً لأهمّيته الكبرى، إلى سبعة مجامع لتحضيره وعشرة مجامع لتطبيقه، كان آخرها مجمع بكركي عام ١٨٥٦.

ونظراً للارتباط التاريخي ما بين الموارنة ولبنان، جاء النصّ المجمعيّ ميثاقيّاً صافياً، لم تأسره الحوادث الآنيّة المتعاقبة منذ سنوات ولم تطبعه بظروفها. انطلق من تلك الحوادث ليتعدّاها، مستخلصاً معانيها وأمثولاتها وخلاصاتها، واضعاً تلك الخلاصات في خدمة مستقبل أفضل لجميع اللبنانيين.

فقد عبقت أرض لبنان طويلاً ببخور الكتب المقدّسة والقيم الإنسانيّة، بحيث صارت الديانات في صلب تكوينه ومن خاصيّاته الملهمة. وقد تحقّق العيش معاً عند اللبنانيين، وارتقى عند بعضهم إلى حدود التآخي. فبرزت العادات الحلوة، كالتسامح واحترام الجار والانفتاح.

إنّ الميثاق الأوّل والأساسيّ للجماعات اللبنانية تمثّل في عيش القيم والمبادئ التي طبعت جبل لبنان التاريخيّ وإنسانه، وانتقلت من الجبل إلى المدن والمناطق الساحليّة، وهو شأنٌ سابق للدول وللسياسة بمفهومها الحديث.

وعندما ركب الغرورُ السياسةَ، فطمعت في الانقلاب على تلك القيم والمواثيق والعهود التاريخيّة، أو رغبت في امتطائها والالتفاف عليها وتشويه معانيها، انهار البناء.

وهكذا، فقد أظهر لنا التاريخ أنّه كلّما استعادت الجماعات اللبنانيّة طبائعها في العيش معاً، الشبيهة بكينونة البيت المعقود، استعاد البنيان قوامه وعافيته وقدرته على مقاومة الرزايا والأخطار وتقلّبات الأزمنة والسياسة. هذا ما يريده الموارنة وما ينشدونه. فقد استمدّ أهلهم وأجدادهم منذ البدايات البكر، قواعد لصوغ مشروع حياتهم الخاصّة والمجتمعيّة طريقَ عيشٍ وشراكة. عاشوا تاريخهم الغابر ملتصقين بالأرض ومرتبطين بها.

هذا التاريخ نفسه، الذي عاشته الجماعات الدينيّة، صار دعامةً لبناء الوطن الدولة. ففي عيشها معاً، وفي انفتاحها بعضها على البعض الآخر، ثروة ومصدر غنى روحيّ وحضاريّ.

لم تنغلق هذه الجماعات على نفسها، ولم تقفل الباب في وجه الانفتاح على سائر الشعوب، بل رأت في رحابة التطلّع إلى البعيد أفقاً يمكّنها من العيش معاً، وفي العالم.

وعندما واجهت الجماعات اللبنانيّة استحقاق العيش معاً سنة ١٩٤٣، في كنف الدولة، لم تجد صعوبة في توليد الصيغة الطبيعيّة لهذا العيش. فاختارت أن تنخرط في مشروع للدولة اللبنانيّة المستقلّة، شبيه بصورة البيت التاريخيّ المعقودة حجارته حجراً على خدّ حجر.

فوُضِع ميثاق العيش المشترك. وصارت للبنانيين دولة مستقلّة ذات سيادة، وحدود معترف بها دوليّاً، ودستور ينظّم سبل العيش في ظلّ سلطة القانون. وقد شهد العيش معاً في ظلّ الدولة اللبنانية فترات مشرقة، فانتظم مشروع دولة المؤسّسات انتظاماً حثيثاً، وراحت تترسّخ ببطء وتؤدة فكرة القانون. ثمّ حدث ما حدث.

فضلاً عن المجمع، قدّم الموارنة، كما الكنيسة الكاثوليكيّة، مبادرات وطنيّة جلّى في السنوات الأخيرة من أجل لبنان والشرق.

منها ما صدر خلال زيارة البابا القدّيس يوحنا بولس الثاني في أيّار سنة ١٩٩٧. عندما سلّم الإرشاد الرسولي المنبثق من سينودوس **رجاء جديد من أجل لبنان**. ومنها **شرعة العمل السياسي في ضوء تعاليم الكنيسة وخصوصية لبنان** الصادرة سنة ٢٠٠٩. وكذلك من خلال زيارة قداسة البابا بينيديكتوس السادس عشر لبنان حاملاً **الإرشاد الرسولي لمسيحيي الشرق الأوسط** بعنوان **شركة وشهادة**. وصولاً إلى **المذكرة الوطنية** الصادرة

لمناسبة عيد مار مارون في ٩ شباط ٢٠١٤. وأظهرت هذه المبادرات ما هو مطلوبٌ من الموارنة واللبنانيين، وبيّنت ماذا يريد الموارنة.

إلاّ أنّ النصوص، أو الوثائق، مع القيمة التي ترتديها في ذاتها، تبقى حبراً على ورق إذا لم تُطبَّق في حياة الكنيسة المارونيّة على جميع مستوياتها. من هنا مسؤوليّة الموارنة واللبنانيين على السواء. إنّ كلّ «جماعة بشرية تحتاج إلى سلطة تنظّم شؤونها وتؤمّن خيرها العام. إنّ السلطة تجد أساسها في صميم الطبيعة البشريّة، وتخضع في الممارسة لنظام أخلاقيّ طبعه الله الخالق في قلب الإنسان، إذ كوّنه على صورته ومثاله. وهذا النظام هو بمثابة النور للعقل البشريّ، في ضوئه يعرف الإنسان ما يجب أن يفعل من خير، وما يجب أن يتجنب من شرّ»[1].

بفضل هذا التعليم، اعتبرت الكنيسة «أن السياسة فنّ شريف... لخدمة الإنسان والخير العام»[2]. ولا حلّ أمام الجماعات اللبنانية، إلّا بالعيش معاً. وهذا لا يكون إلّا بالرجوع إلى الدولة المدنيّة، ومؤسّساتها. وهي الدولة التي تحترم «الأديان عقيدة وممارسة... ولا تعني عقيدة فلسفيّة تحتوي على مفهوم ماديّ وملحد للحياة البشريّة والمجتمع... ولا تعني إرادة الدولة في عدم الخضوع لأيّ سلطة معنويّة أعلى... فالكنيسة لا يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدي عندما تنتهك حرمة الإنسان والقواعد الدينيّة والخلقيّة»[3].

إنّ ما يريده الموارنة بات واضحاً وصريحاً. فإلى الجانب الروحي والرعائي، هم ينشدون في ممارسة المسيحيين واللبنانيين للشأن العامّ، التحلّي بروح الخدمة المتجرّدة والسخيّة، المقرونة بالمناقبيّة وبالكفاءة والفاعليّة. وهم يتطلّعون إلى مَن يحملون ميزة الشهادة للقيم الإنسانية والإنجيليّة، ولا سيّما منها بساطة العيش والحبّ التفضيليّ للفقراء وروح الغيرة والتضحية، ومَن يعتمدون التضامن كنهج ووسيلة، ومَن يلتزمون قضيّة السلام القائم على احترام حقوق الإنسان.

١. كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ١٨٩٨ و١٩٥٥.
٢. شرعة العمل السياسي في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصية لبنان، صفحة ٦.
٣. شرعة العمل السياسي في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصية لبنان، صفحة ١٤.

يحزّ في قلوب الموارنة أنّ المصالحة والغفران على كلّ المستويات، الروحيّة مع الذات ومع الله، ومع الآخر، ومع الوطن، لا يزالان غير كاملَين على الصعيدَين المسيحيّ والوطنيّ.

ما يريده الموارنة في بعض ما يعتري الشأن الزمنيّ من شؤون وطنيّة، يتلخّص في اعتماد آليّات تحول دون تعطيل المؤسسات الدستوريّة، والابتعاد عن سياسة المحاور الإقليميّة والدوليّة، وتنفيذ ما نصّت عليه **وثيقة الوفاق الوطني** من خلال «تحقيق اللامركزيّة الإداريّة الموسّعة، في سبيل تأمين فرصة جدّية لبناء الوحدة الوطنيّة وتأمين الاستقرار عبر تخفيف حدّة الصراع على السلطة المركزيّة، وتعزيز الإنماء المتوازن»[4].

ما يريده الموارنة هو عدم «تكبيل المؤسسات الدستوريّة ورهنها بخيارات الأفرقاء الذين يدّعي كلٌّ منهم أنّ خياراته هي المُنجّية. فليس من المنطق بمكان أن يتغنّى اللبنانيّون بأنّ لديهم ديموقراطيّة ودستوراً ومؤسّسات، وهم في معظمهم يناقضون الديموقراطيّة لصالح الاستقواء، ويعلّقون الدستور رهناً بحسابات ذاتيّة أو فئويّة، ويعطّلون المؤسّسات باستغلالها كلٌّ على هواه.

وقد طغى على الحياة السياسية عندنا استغلال مبرّح لـ«الديموقراطيّة التوافقيّة»، ما أدّى إلى عجز اللبنانيين عن إيجاد الحلول داخليّاً، وحاجتهم الدائمة إلى ناظم خارجيّ يبدع لهم التسويات» (المذكّرة الوطنيّة).

ما يريده الموارنة هو الإلتزام الجدّي لبناء الدولة العادلة والقادرة والمنتجة من خلال حفظ السيادة، وحصريّة القوة العسكريّة في يد الشرعيّة، ومن خلال حماية استقلاليّة القضاء وحرمته، ودعم هيئات الرقابة وتفعيلها، وفرض سلطة القانون على الجميع من دون أيّ استثناء أو تمييز؛ والقضاء على المحسوبيّات والفساد، ومن خلال تعزيز الإقتصاد وإيجاد فرص عمل للمواطنين.

ما يريده الموارنة هو انفتاح لبنان على قوّة أبنائه في الانتشار، كامتداد فعليّ لثروة لبنان الإنسانيّة والحضاريّة. وشدّ الروابط الوطنيّة مع المنتشرين في كلّ ما يؤول لخيرهم

٤. شرعة العمل السياسي في ضوء تعليم الكنيسة وخصوصية لبنان، صفحة ٢٢.

وكرامتهم. والعمل على منحهم حقّهم في الإقتراع، وعلى إقرار قانون استعادة الجنسيّة. والتعاون معهم في حمل القضيّة اللبنانيّة والعربيّة إلى مجتمعاتهم.

ما يريده الموارنة هو الاهتمام بالشباب الذين هم ثروة البلاد الكبرى والقوّة التجدّدية في المجتمع والكنيسة، وتعزيز مساهمة المرأة في المسؤوليّات العامة ومشاركتها في الحياة السياسيّة.

ما يريده الموارنة هو «تعزيز إسهام لبنان في عمليّة خروج العالم العربي من مخاضه الراهن، بحثاً عن أنظمة سياسيّة معاصرة تليق بإنسانه وبعراقة تراثاته، وتقوّي حضوره الإيجابيّ في عالم اليوم. فلبنان، بحكم أصالة هوّيته وفرادة تراثه، قادر على أن يكون شريكاً في صنع الحضارة الإنسانيّة، وتدعيم الاستقرار والسلام العادل والشامل في المنطقة... مع إصرار لبنان على أحقيّة القضيّة الفلسطينيّة، وبالتالي حقّ الفلسطينيين في العودة إلى أرضهم، وفي إنشاء دولة خاصّة بهم على ترابهم الوطني، وبالتالي رفض لبنان أيّ شكل من أشكال التوطين الفلسطينيّ على أراضيه، وفقاً لما جاء في مقدمة دستوره» (المذكّرة الوطنيّة).

ما يريده الموارنة هو قانون إنتخابيّ نيابيّ جديد، يترجم المشاركة الفاعلة في تأمين المناصفة الفعليّة، والاختيار الحرّ، والمساءلة والمحاسبة، ويؤمّن التنافس الديموقراطيّ، ويُلغي فرض نوّاب على طوائفهم بقوّة تكتّلات مذهبيّة.

يتطلّع الموارنة الى استكمال تطبيق اتّفاق الطائف، والنظر في ما يجب إيضاحه أو تفسيره أو تطويره في ضوء التجربة المعيشة، بما في ذلك صلاحيّات رئيس الجمهوريّة، لسدّ الثغر الدستوريّة والإجرائيّة التي ظهرت في تجربة ممارسة الحكم منذ هذا الإتّفاق.

إنّ الميثاق هو روح وعهد، تجسّده صيغة عقد ملزمة، في كيان ودولة. و«إن الكنيسة المارونيّة الحريصة على ما أنجزه اللبنانيّون معاً منذ إنشاء لبنان الكبير وحتّى هذه اللحظة، ترى أنّ الخروج من الأزمة الراهنة لا يكون إلاّ بالعودة إلى المصلحة الوطنيّة العليا على أسس الميثاق والدستور، لأنّ لبنان، إمّا أن ننجزه معاً أو لا يكون. ويحتاج ذلك إلى حوار شفّاف وصريح يفضي إلى سلام داخليّ حقيقيّ، وإلى تحديد الأولويّات للنهوض بلبنان.

وهاتان المسؤوليّتان ملقاتان أيضاً على عاتق رئيس الجمهوريّة الجديد، الذي يعدّ انتخابه ضرورة للبنان، كي يظهر لذاته وللعالم أنّه بلد يحترم ديموقراطيّته في تداول السلطة، وأنّه حريص على دستوره» (المذكّرة الوطنية). فانتخاب رئيس جديد للجمهوريّة، كرئيس للدولة وحامٍ للدستور، هو الشرط الأساس الذي من دونه لا حضور للدولة ولا انطلاق نحو المستقبل.

إنّ ما يريده الموارنة، ختاماً، هو وطن يليق باللبنانيين وتاريخهم وقيمهم، يجسّد بالفعل تلك التجربة الإنسانية الفريدة. وهذه مسؤوليّة تاريخيّة ملقاة على عاتق الجماعات اللبنانيّة، وعلى عاتق الموارنة في شكل خاصّ، باعتبار لبنان الدولة الوحيدة في العالم العربي التي يعيش فيها المسلمون والمسيحيّون معاً، بمساواة.

فلا حياة للبنان إلاّ باعتباره البلد النموذج أو البلد الرسالة، على قول البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني: «إن لبنان هو أكثر من بلد. إنّه رسالة حرية، ونموذج في التعدديّة، للشرق كما للغرب»، حيث يؤمّن لجماعاته العيش في دولة مشرقية تحقّق الغنى ضمن التعدُّد والوحدة في التنوّع.

وهي رسالة لبنان في إشاعة الاستقرار والعدالة والسلام. وهي رسالته في ذاته، ولذاته، قبل أن تكون رسالته إلى الشرق والغرب معاً، بل إلى العالم أجمع، حيث يتحقّق التلاقي بين إرث الديانات السماويّة وبين قيم التجديد والانفتاح والحداثة، وحيث لا مفرّ من أن يصبح لبنان ملتقىً دولياً للأمم المتّحدة للحوار بين الثقافات وللتفاعل الحضاريّ بين الجماعات.

إنّ عودة الموارنة إلى أصالتهم هي المدخل إلى عودة الآخرين إلى أصالتهم أيضاً. إنّ وحدة الموارنة هي باب الأمل للحوار مع الآخرين. فعندما يمدّ الموارنة يدهم، بعضهم إلى البعض الآخر، والى الآخرين، تختفي أسباب المخاصمات ويصبح التفاهم على خدمة لبنان أمراً ممكناً.

إنّ المحبّة هي الأساس. إنّ المحبّة هي أساس الحوار بين الشعوب.

خاتمة

على سبيل الوصية

على سبيل الوصية

ليست المرّة الأولى يواجه فيها الشعب المارونيّ تحدّياً خطيراً يهدّد وجوده وحرّيته. لقد اختار هذا الشعب طوال أكثر من ١٥٠٠ عام أن يكون أبناؤه شهوداً ورسلاً. فقدّم الشهداء، مثلما قدّم الملافنة والقدّيسين والأبطال.

عرف هذا الشعب جوهر المسيح، فاختطّ طريق الجوهر، مستلهماً خطى بطاركته وأسلافه الذين عرفوا كيف يقفون في وجه التحدّيات. وعرفوا كيف يخرجون منها راسخين في إيمانهم، أشدّاء في الدفاع عن معتقداتهم وخصوصياتهم، واثقين من مستقبلهم.

منذ أيّامهم الأولى، أدرك الموارنة أنّ الطريق الذي اختاروه لأنفسهم هو الطريق الأصعب. لأنّه طريق المسيح والرسل. فكان عليهم، كلّما امتحنتهم الأقدار والأهوال والتجارب، أن يقدّموا الشهادة على الإيمان القوّي بحقيقة المسيح، وعلى إعلاء شأن الحرّية.

عاهدوا معلّمهم القدّيس مارون، كما عاهدوا أنفسهم، أن يكونوا شهوداً، وأن يتميّزوا بالعزيمة، والصبر على الشدائد، والتضحية، والإيمان. هذه كانت صفاتهم التي رافقتهم في أيّام المحن، كما في أيّام الهناء والأمان. فهل يثبتون الآن عليها؟

هذا السؤال الكبير، هو السؤال الذي يجد الموارنة أنفسهم معنيّين بالإجابة عنه، بوضوح لا لبس فيه، ولا إبهام. إنّهم الآن في صميم الألم المسيحي الكبير، ألم الجلجلة. فهل يتراجعون عن إنجاز عهدهم الخلاصيّ؟

إنّهم اليوم مدعوّون أكثر من كلّ وقتٍ مضى، إلى تقديم البراهين التي تؤكّد ثباتهم على القيم التي رافقت مسيرتهم الشاقّة في هذا الشرق. إنّهم ربّما يواجهون التحدّي الأشدّ

خطورة في تاريخهم كشعب، وفي تاريخ الجماعات المسيحيّة الشرقيّة على السواء.

إنّه تحدّي الوجود. فكيف يواجهونه؟

أنْ يختار شعبٌ ما طريقَ الرسل، يعني أن يختار الشهادة للمسيح.

المعادلة المارونيّة المطلوبة بسيطةٌ للغاية. لكنّها في الآن نفسه جوهريةٌ وخطيرةٌ للغاية: أن يستعيد الموارنة خطى مارون، ليهتدوا بها، ويقتفوا أثر تلامذته ورسله وشهوده وشهدائه.

ليس من دور للموارنة في لبنان، وفي الشرق، وفي العالم، خارج هذا الدور. ولا خلاص لهم إلاّ به. عليهم أن يثبتوا مرّةً جديدة أنّهم شهود ورسل. كلّ تلكؤ عن احترام مواثيق هذه المسؤوليّة العظيمة، ينزع عنهم صفة الرسل، ويضعهم في مرتبة البشر العاديّين. كلّ خروجٍ على هذا الدور، يجعلهم في ظلمة العالم. ويرميهم في المنزلقات الخطيرة.

شهادتي أنّ الكثيرين من الموارنة نكثوا بالعهود. ولهذا يتخبّطون الآن في ظلمةٍ دامسة، وفي منزلقاتٍ خطيرة.

لقد أعمت الكثيرين منهم أمجاد الدنيا، فغفلوا عن معنى الرسالة والشهادة.

تناسى الكثيرون منهم أنّه لا يمكنهم أن يعبدوا ربّين، فوقعوا في الخطر الوجوديّ الكبير.

لقد شتّتتهم الدسائس والمحن. وضربتهم الشدائد. وأغوتهم شياطين الثروات والكراسي والمناصب والأمجاد. فاندفعوا وراء صغائر الدنيا، متنكّرين لحقيقتهم كموارنة، ولرسالتهم كشعب.

قد يسأل سائل: هل المطلوب من الموارنة التخلّي عن الحياة المعاصرة وأن يعودوا أدراجهم إلى حياتهم الأولى في القرى النائية والمغاور والوديان والجبال؟ لا. ليس المطلوب أن يفعلوا ذلك. بل أن يشهدوا للمسيح من حيث هم. أي في قلب العالم. وفي خضمّ المشقّات الملقاة على عاتقهم. والتحدّيات التي تعترض سبيلهم. هذه هي مسؤوليتهم. وهذا هو دورهم.

ليس من سبيل أمام الموارنة إلاّ تنفيذ مقرّرات مجامعهم المقدّسة، وتطبيق بنود الإرشاد الرسوليّ.

فإذا كان العالم أجمع يعرف مَن هم الموارنة، فيجب أن يثبتوا لعالم اليوم، مَن هم، وكيف يحافظون على هذه الهويّة.

لن يستطيع الموارنة أن يواصلوا مسيرتهم من دون تجديد نذورهم في الرسالة والشهادة.

عليهم أن يقولوا علناً ماذا يريدون.

من موقعي ككاهنٍ أمضى نحواً من ستّة وخمسين عاماً في الشهادة للمسيح، وللقدّيس مارون، بينها أربعة وثلاثون عاماً في البطريركيّة المارونيّة، أرى أنّ على الموارنة أن يعلنوا العودة إلى الينابيع، ليتطهّروا من أخطائهم وخطاياهم في شؤون الدين والدنيا. عليهم أن يعودوا إلى مارون. لا لينكفئوا. بل ليكونوا له شهوداً ورسلاً في لبنان، وفي الشرق، وفي العالم الآن.

ماذا يريد الموارنة؟

إذا أراد الموارنة أن لا يتنكّروا لحقيقتهم، فليس أمامهم سوى استكمال شروط هذا الامتحان: أن يكونوا شهوداً. ومن واجب الشهود أن يكونوا أحراراً وأبطالاً وقدّيسين وملافنة في القرن الحادي والعشرين هذا.

عليهم، بكلّ بساطة، أن يستعيدوا كرامة قدّيسهم مارون، الذي تركوه، بتشتّتهم وصغائرهم، وحيداً في عتمة العالم البرّانية.

هذه هي وصيّتي إليهم.

للمؤلف

- خبز وخمر
- اليوم ولد لكم مخلّص (ثلاثة أجزاء)
- رجاء الشعوب
- المسيح رجاؤنا
- ديانتنا المسيحية (أربعة أجزاء)
- تعليم مسيحي للبالغين
- ملح الأرض
- اتبعني (بالعربية والانكليزية)
- سأبقى معكم
- أنت المسيح (بالعربية والفرنسية)
- الموارنة ضمير الكنيسة (بالعربية والفرنسية والانكليزية)
- الموارنة مَن هم وماذا يريدون؟ (بالعربية والفرنسية والانكليزية والاسبانية)
- وادي قنّوبين مدرسة حياة (بالعربية والفرنسية)
- الله ومواعيده
- ابن الله
- البطريركية المارونية تاريخ ورسالة
- الله مَن هو وهل نؤمن به؟

- صار إنساناً
- دعاني إليه
- يسوع المسيح أمس واليوم وإلى الأبد
- أمسيحي أنت؟
- رَفَعَ المتواضعين
- الله كما أخبرنا عنه يسوع
- يسوع
- آمنتُ بكَ يا ربّ
- السراج العتيق



ميشال العويط

صاحب هذا الكتاب هو كاهنٌ للمسيح منذ نحوٍ من ستّين عاماً، أمضى منها أكثر من ثلاثة عقود أميناً لأسرار الكرسيّ البطريركيّ ولبطريرك أنطاكيا وسائر المشرق للموارنة.

هذا الرجل «الديبلوماسيّ»، الذي لم يُدلِ يوماً بتصريح علنيّ إلى الصحافة، ولم ينشر شيئاً من مذكّراته، التي لا بدّ أنها تحفل بالكثير من الوقائع المهموسة وخلفيّاتها، كتب فيه زميلنا الصحافيّ الكبير الراحل ميشال أبو جودة ثلاث مرّات، في افتتاحيّاته «النهاريّة»، متحدّثاً عن دوره الإيجابيّ الفاعل، الظاهر والخفيّ، في كواليس البطريركيّة المارونيّة، التي كان مكتبه فيها، منتدىً يوميّاً يلتقي فيه كبار رجال الدين والدنيا، من لبنان والعالم.

شخصٌ كهذا، اضطلع بمثل هذا الدور، وحمل مثل هذه المسؤوليات، ووضع نحواً من سبعة وعشرين كتاباً دينياً منشوراً، فضلاً عن مخطوطاتٍ عدّة مهيّأة للنشر، لا بدّ أن يجد اللبنانيّون، مسيحيّين ومسلمين وعلمانيّين على السواء، في «وصيّته» هذه إلى الموارنة، مفاتيح مضيئة ترشدهم إلى أبواب الخلاص، وخصوصاً في هذه الأوقات التاريخيّة الحرجة من تاريخ لبنان.

«وصيّتي إلى الموارنة» لميشال العويط، هو خريطة طريق لكلّ اللبنانيّين، الذين يبحثون عن ضوءٍ يقيهم العثرة، ويجنّبهم، وبلادهم، السقوط في الهاوية.

الناشر



ISBN 978-9953-74-394-3